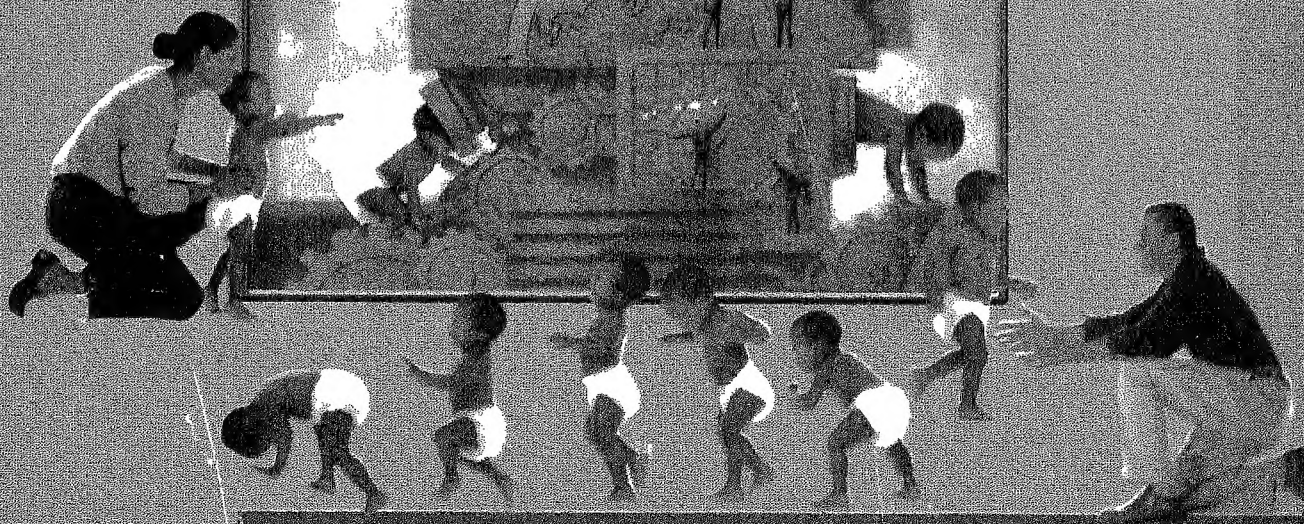
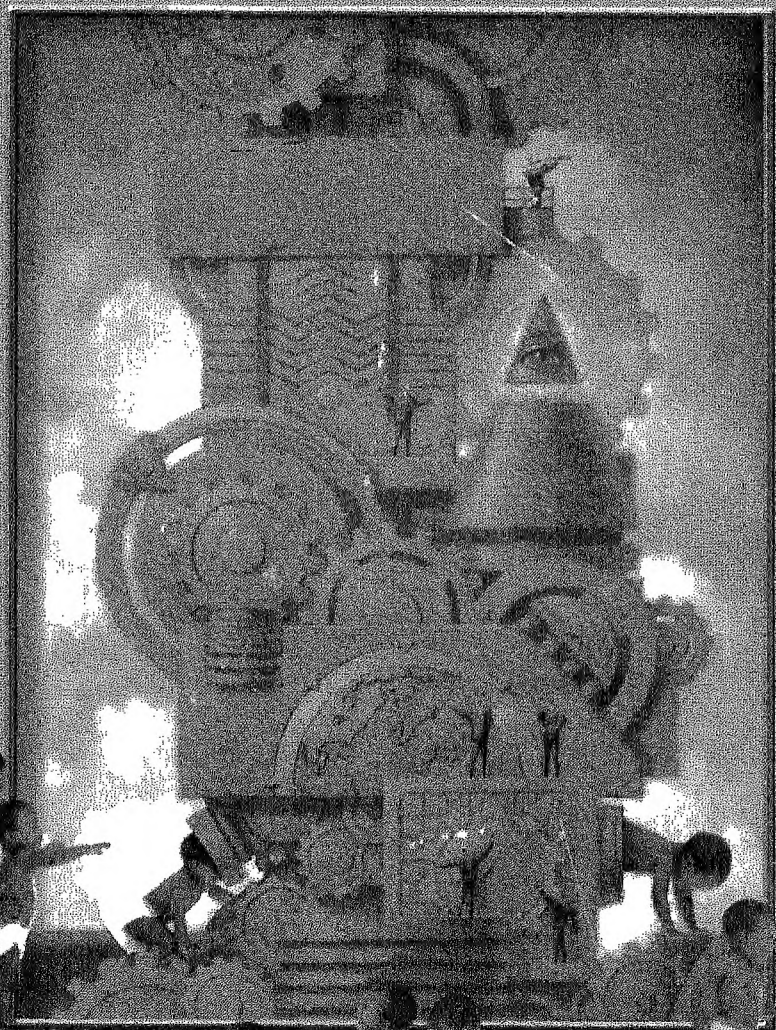


أدركوا علوم الإسلام

الخلق والبعث بين المادة والطاقة والعدم

عبد الرحمن محمد الرفاعي



مدبولي الصغير

آدم . . وعلوم الاستتساخ

الخلق والبعث بين المادة والطاقة والعدم

الكتاب: آدم.. وعلوم الاستساخ
المؤلف: عبد الرحمن الرفاعي
الناشر: مكتبة مديولى الصغير
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين
ت: ٣٤٤٢٢٥٠ - ٣٤٧٧٤١٠
رقم الإيداع: ٩٨/٧٨١٤
الترقيم الدولى: 057 - 286 - 977
تصميم الغلاف: عاطف منصور
الجمع والتنفيذ الفنى: عفت إبراهيم
مراجعة لغوية: سيد عبد المعطى
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

من الإعجاز العلمي
للقرآن الكريم والسنة المطهرة

آدم .. وعلوم الاستنساخ

الخلق والبعث بين المادة
والطاقة والعدم

عبد الرحمن محمد الرفاعي

الجزء الأول

إهداء

إلى مَنْ مِنْ نَفْسِي اسْتَنْسَخْتُ.. (وخلق من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها)..
إلى مَنْ جُعِلَتْ لِي السَّكَنُ.. المودة.. الرحمة..
(وجعل بينكم مودة ورحمة).. إلى الفؤاد شقيق القلب.. إلى أم.. أحمد رواء..
وأُمون ومحمد.. ونوره وعمر..
إليك يا رفيقة العمر وأنيسة الرحلة.. أهدى هذا الكتاب..

عبد الرحمن محمد الرفاعي

القاهرة في : ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

المقدمة

اللهم لك الحمد يا من خلقت فأبدعت، لك الحمد يا من أوجدت وصورت، لك الحمد يا من تنزهت وتعاليت.. لك الشكر يا من ألهمت وهديت، ووفقت وأعطيت، فلك الشكر ولك المن.. فزدني يا من أمرت بالاستزادة من علمك وعطائك - علماً - زدني يا من قلت في محكم كتابك المعجز الخالد: ﴿وقل رب زدني علماً﴾^(١) فزدني علماً.. علماً نافعاً.. وقلبا خاشعاً.. ولسانا شاكراً.. وصلِّ وسلم على سيد الخلق وشافعهم في المقام.. يوم المعاد.. نبينا محمد ﷺ صاحب الإسراء والمعراج.. صاحب المعجزة الكبرى القرآن.. الكتاب الذي ﴿لا يفسد صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾^(٢).. المعجز في جدله، المعجز في علمه وعلموه.. كيف لا وصاحبه هو (العليم الخبير).. ويكفى أن في خلوده إعجازاً.. إعجازاً كثيراً.. وعطاء متنوعاً.. معجز مع تغيير الأزمنة والامكنة.. يعطى كل زمان ومكان ما يلائمه ويصل إليه ارتقاؤه وتطوره.. إنه كتاب أسفله مغدق، أعلاه مثمر.. كتاب قد حوى كل ما في الكون الخافى منه والمنظور: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾^(٣).. كتاب يسير مع الامكنة وعصورها، يعطيهم ويمدهم ويرمز لهم وحيناً يكشف.. وحيناً يشير بكل ما يعجزهم ويبههم فيما هم فيه مبرزون وفائقون.. حتى جاء

(١) سورة طه: آية «١١٤».

(٢) سورة الكهف: آية «٤٩».

(٣) سورة النحل: آية «٨٩».

عصرنا.. عصر العلم والعلوم، عصر الكشوفات والإبداعات العلمية.. فطبيعى أن يكون موقف إعجازه معهم، هو موقفه مع كل عصر وبيئة قد مضت.. وقبل أن نمضى يستحسن أن نقف هنيهة مع استفسار خاطف استوجب المقام الإشارة إليه، هو هل صفة هذا الإعجاز الرئيسة هي العموم أو الخصوص أو بمعنى آخر: هل معجزة محمد ﷺ القرآنية هي خاصة بقومه العرب أم أنه عام لكل الخلق إلى أن تقوم الساعة؟.. وإجابة هذا الاستفسار تدعونا لأن نعود إلى الوراء سريعا لكي نلقى نظرة خاطفة على بعض من خاضوا حول ذلك عبر القرون، ولكن فى إيجاز لا يتجاوز السطر أو السطرين بمشيئة الله تعالى.. وذلك أن معظم من خاضوا حول صفة الإعجاز القرآنى نجدهم يقولون: بعمومية صفة هذا الإعجاز إلى أن تقوم الساعة، مستدلين على ذلك بكثير من الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١).. بل هناك ما يزيل أى تردد وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾^(٢).

فى حين هناك فئة قليلة تقول بعكس ما سبق، أى أن صفة هذا الإعجاز هي صفة الخصوص، أى أنها خاصة بالعرب وحدهم، ويقولون فى ذلك إن القرآن الكريم تنزل بلغة العرب وحدهم، ولم يشر إلى لغات غيرهم، كما أشار القرآن الكريم إلى هذا فى كثير من آياته كما فى قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾^(٣) وكقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾^(٤) بل إن هناك ما يؤكد هذه الإشارة بما لا تردد بعده وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾^(٥).

فى جو هذا المعترك الخلافى، نتوجه بهذا الاستفسار لترجمان القرآن وحبر الأمة، وعالمها ابن عباس رضى الله عنهما وأرضاها.. لتقول له: وأنت ماذا تقول؟ وما القول

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

(٢) سورة سبأ: آية ٢٨.

(٣) سورة يوسف: آية ٢.

(٤) سورة فصلت: آية ٢.

(٥) سورة إبراهيم: آية ٤.

الفصل الذى يحسم هذا المعترك الجدلى؟ وعند الرجوع لجل ما روى عن حبر الأمة وعالمها، يمكن لنا أن نلخصه فى العبارة التالية:

يقول رضى الله تعالى عنهما ما معناه إنا أخذنا آية إبراهيم «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» مع آيتى الفريق الأول «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وآية «وأرسلناك للناس كافة».. سنجد أن الصفة الرئيسية لهذا الإعجاز القرآنى، هى العمومية.. وذلك أنه إذا كان محمد ﷺ مرسلًا للناس كافة، بل رحمة لغيرهم - أى للناس - من الخلق كالجن والملائكة عند بعضهم «رحمة للعالمين».. تكون آية سورة إبراهيم «بلسان قومه» مؤكدة أن اللغة العربية التى هى لسان المرسل «لناس كافة» و«رحمة للعالمين» هى لسان «لناس كافة» وأن قوم محمد ﷺ ليسوا هم العرب وحدهم، بل هم الناس كافة، وذلك لأنه مرسل لهم للأمم كافة.. إذن ما فى القرآن الكريم من إعجاز ليس خاصا بالعرب وحدهم، بل بالناس كافة، روميهم وفارسيهم وأحباشهم، بل كل الأمم.. وهذه الإشارة الدقيقة من حبر الأمة - رضى الله عنه وأرضاه - تجعلنا نقول إن المفهوم الإعجازى للقرآن الكريم يعنى أنه: عام فى خاص، وخاص فى عام.. أى أن فى القرآن الكريم إعجازا خاصا بالمنزل عليهم مباشرة هم العرب وفيه إعجاز عام يختص بشتى أجناس أمم من غير العرب.. فى الوقت الذى نجد أن تلك الخصوصية التى تختص بمن يحملون صفة العربية فى الإعجاز، تحمل كل مفاهيم صفة العمومية الإعجازية، كذلك نجد الصفة العمومية تحمل كل مفاهيم صفة الخصوصية الإعجازية. أى أن مفهوم الإعجاز القرآنى: أنه خاص فى عام.. عام فى خاص - والله تعالى اعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الإشارة ليست هى فلسفة منا.. وإنما هى حقيقة فرضتها مفاهيم وإشارات ما تجلى من حقائق هذا الإعجاز العظيم.. وإذا أردنا أن نوضح هذه الإشارة أكثر، فإننا نقول: إذا كان القرآن الكريم قد أفحم وأعجز من نزل عليهم مباشرة فى أعظم وأدق ما هم فيه مبرزون وفائقون، ومعلوم أن أمة العرب كانت ساعة نزول القرآن الكريم أفصح الأمم وأبلغهم على الإطلاق، وقد أسكتت بلاغة القرآن وفصاحته بل عظمة الإبداع النظمى التى تجلت فى سبكه وصياغته وتركيب جملة وعباراته - كما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى كتابه

«دلالات الإعجاز» أسكتت زعماء البلاغة والبيان في أمة العرب، بل جعلتهم يخرون ساجدين - كما ورد عنهم - وإذا كان من كان يتزعم بلاغة وبيان الأمم قد أفحموا فمن باب أولى أن يفحم غيرهم، وكيف ذلك؟

فمثلا إذا نحن أخذنا أقرب الأمم جوارا للعرب عند النزول وبعده، فيا ترى ما الأمر الذي كانوا هم فيه مبرزين ويفوقون العرب، ويدون تفكير وإطالة سنجد أن من ذلك أنهم كانوا مبرزين في تقانينهم التشريعية، وفي تنظيماتهم الإدارية، بل في كل الشؤون التي تستدعيها وتتطلبها الدول والإمبراطوريات من تنظيمات في السياسة وشئون الحكم، فبلاغة تلك الأمم وفصاحتها تتجلى في صياغة وسبك تلك التقنيات وما تستلزمه من صياغات الدساتير والقوانين وغير ذلك مما يتطلبه الحكم والحكومات في إدارة شئونها.. ولا تنزل القرآن الكريم بأحكامه وتقنياته وتشاريعه في قيام الدولة وتنظيم العلاقات بين الحاكم والمحكومين داخل تلك الدولة، أو بين تلك الدولة نفسها ومحكومياتها مع ما يجاورها من حكومات ودول.

فهذه التنظيمات والتشريعات القرآنية أبهر وأدهش بل أفحم ما فيها من عظمة في العدل والمساواة، ودقة إبداع في جمال إيجازها مع الشمول لكل ما تقتضيه الحياة.. ما فيها من حلاوة في الصياغة، وتناغم في العبارة مع منطق مفحم في الإشارة، منطق يرتكز على عقلنة تخر ساجدة أمامها جباه العباقرة. كل ذلك أفحم وأعجز غير العرب من الأمم.. إذن فخصوصية ما كان يملكه العرب، اشترك فيه معهم عمومية ما كان يملكه غيرهم من أجناس الأمم، وأيضا ما كانت تملكه تلك الأمم من العمومية، اشترك معهم فيه خصوصية ما كان يملكه العرب، وهكذا في كل ما يشمل شئون الحياة ويرتبط بها.

وهذا وغيره هو ما دعانا لأن نقول ما سبق أن قلناه: من أن الإعجاز القرآني هو خاص في عام وعام في خاص - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الإشارة العقلية سيجد أخی القارئ لها تفصيلا أوضح وأشمل في فصلين كاملين خصصنا بهما هذا الجانب. وقد حمل الفصل الأول منهما عنوان التسوية العمومية لكل الخلق الإنساني، والثاني بعنوان: التسوية الخصوصية، وهي ما تتناول التسوية

الفردية أو تسوية جمعية لكل أمة يربطها مكان وزمان واحد وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن ذلك سنجد كيف يستطيع من لا ينطق العربية ولا عرفها حياته، فإذا أسلم وقرأ القرآن، فسنجده كأنه فرد من أفرادها، كما هو الشأن مع الماليزيين والأندونيسيين وغيرهم من الأمم. إذن فلغة العرب أمة العرب ليست خاصة بلسانهم وحدهم، بل هي تشمل كل الأمم الذين اندرجت تسويتهم العمومية والخصوصية وتحت مسمى أمة محمد، وهم كل الأمم من زمن البعثة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وذلك أن أمة محمد ﷺ ينقسمون إلى قسمين: أمة دعوة وأمة إجابة، فمن أجاب دعوة محمد ﷺ وأسلم فيندرج تحت مسمى أمة الإجابة، ومن امتنع عن الإسلام فهو يندرج تحت مسمى أمة الدعوة حتى يسلم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعلى هذا فكل من يسمون أنفسهم يهودا أو نصارى فهم فيما يدعونهم كاذبون واهمون، إذ العقل والواقع يكذبهم، وسوف نرى ما فى داخل هذا البحث من حقائق وإشارات وخصوصا فى الفصلين المشار إليهما آنفاً - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل الشواهد والبراهين موجودة ومحسوسة وملموسة.. وهكذا.

ومن هذا المنطلق الإعجازى لهذا الكتاب القرآنى العظيم كانت وقفتي مع عطاء هذا الإعجاز الذى لا تنتهى عجائبه ولا تنفد غرائب، ولا يشبع منه العلماء.. هذا الإعجاز المتجدد عطاؤه، والحق لفظه والغنى معناه، كيف لا يكون هذا الإعجاز حيا أبداً؟ وكلمه كلام الحى الذى لا يموت، لهذا كان عطاء هذا الإعجاز على قدر حكم الخالق للمخلوق «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»^(١) بمعنى أن من جاء الإعجاز لأجلهم مختلفو القدرات، وهذا الاختلاف لا يخص الفرد فقط، بل إن اختلاف القدرات فى الأفراد يؤول لاختلافها جماعيا، بمعنى أن الأمم - أيضاً - تختلف قدراتها العقلية والفكرية حسب الأزمنة والأمكنة، ولهذا رأينا كيف راعى هذا الإعجاز هذا الاختلاف فى عطائه للأمم حسب اختلاف أزمنتها، ومن خلال ألفاظه المعهودة لكونها حية وباقية لا تتغير، لهذا كان إعجازه الذى صاحب الأمم

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

زمن إنزاله - كما أشرنا آنفا - اختلف فى طبيعته للأمم التى تلت من قبلها بقرون، وهذا أمر طبيعى لكتاب من أهم سماته وصفاته صلاحه لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وهذا الصلاح أهله لأن يُعجز ويفحم ويسكت إعجازه أى أمة فى أى بيئة أو زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو يفحمها فى بلاغتها وفكرها من أن تتسامى إليه، ويعجزها فى كشوفها، ورقبها العقلى، ويسكتها فى أى إبداع علمى وقد تتعالى به، كيف لا وهو كتاب فيه «بيان وتفصيل لكل شىء».. وإلا كيف يكون بقاءه وصلاحه مع اختلاف الأزمنة والامكنة؟ ومن هذا المنطلق يجب أن تكون البحوث والدراسات حول إعجاز هذا الكتاب العظيم، الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».. بمعنى ألا نكتفى بما وجد من كتب ودراسات حول هذا الكتاب عبر الأزمنة المختلفة، وذلك لما علمناه عن طبائع هذا الإعجاز، وكونه يختلف فى عطائه حسب ما لدى الأمم ولا يعنى هذا أننا نهمل كليا كل ما وجد من كتب وبحوث ودراسات هذا الكتاب العظيم.. إذ مثل هذا القول لا يقول به إلا جاهل أو مجنون.. لكن فى الوقت الذى لا أهمل فيه ما سبق، أيضا لا أجعل ما سبق مغنيا للحاضر، إذ ليس كل ما سبق صالحاً للحاضر والمستقبل، وذلك لأن الحاضر تجد فيه أمورا لم تكن فى الماضى، ولعدم وجودها فى الماضى لم يتعرض لها الإعجاز، إذ كيف يتحدى شيئا غير موجود، ومن هنا استوجب الأمر أن نأخذ من الماضى للاستنارة به فى توضيح ما جد فى الحاضر، وكيف كان علاج أولئك مع ما كان يجد عندهم، ولا نعيب ما عمله أولئك بحجة نقصانه وعدم وفائه بما فى حياة الحاضر، هذا أمر لا يمكن قبوله، لعدم حصوله عندهم إذ لو أنه وجد عندهم لكان له شأن وعلاج.. بمعنى أننا نرى ونلاحظ ما الذى جد وحصل فى زمننا واختلف فى طبيعته عن زمن أولئك، فالأمر يستوجب علينا أن نهتدى بمن سبق فيما سنعمله.. فمثلا نلاحظ اليوم ما الذى حصل من رقى وتطور فى كل جوانب الحياة، فالغرب وصل به الأمر أنه الآن يحاول الوصول إلى المريخ بعد أن وصل إلى القمر، فهذا الرقى الفكرى، والإنجاز الإبداعى العقلى، هل نقف أمامه ونقول إن الإعجاز القرآنى لم يتعرض له ولم يشر إليه، ومن أجل ذلك فدعوة القرآن الكريم لا تشمل هؤلاء إذ لو أن دعوته تشملهم لما أهمل إعجازه ما وصلوا إليه وما سوف يصلون، لأنه من عند الله، فلو شملهم لما أهمل أولئك القدامى التعرض له؟ فتزداد عنجهية الغرب

وغطرسه.. فهل هذا منطق يقال؟ إذ قوله والله كبيرة الكبائر، وجرم الجرائم.. بل تالله إنه لكفر صريح!!! كيف لا يكون كفرا وهو تعطيل للقرآن الكريم وتجميد لعظمة إعجازه؟ وكيف لا يكون تجميدا، والغريب بعلمه وعلومه ساد الأرض وقاد البشرية.. فأين تحدى زمكية الإعجاز؟ أتراها كانت مقصورة على زمكية نزوله؟ أو ما بعدها بقرون يسيرة؟! إن من يقول بمثل ذلك فقد ظلم نفسه، لأننا رأينا الإعجاز يقول عن نفسه أنه: «كافة للناس»، و«رحمة للعالمين».. إذن فهو كما تحدى أهل زمكية نزوله وما تلاهم.. كذلك هو يتحدى كل ما جد من تطور في العلوم ورقى في الفكر.. إنه يفحم الغرب الآن وكل من سيأتي بعدهم.. ولكن كيف ذلك؟ ذلك لا يكون إلا بالغوص في معاني إبداعاته ودلائل محيطه، الذي لا يحيط به إلا من أنزله.. إن إيقاف الاجتهاد في أسرار الإعجاز عند زمن الطبرى أو غيره يعد تعطيلاً لأسرار الإعجاز، وتجميدا لتحديه.. أنا لا أهمل ما جاء في تفسير الطبرى أو غيره.. فى الوقت الذى لا أقف عنده وأكتفى به.. أخذ ما جاءوا به لأصل من خلاله لكشف ما جد فى زمنى من رقى علمى وإبداع.. وهكذا نستطيع بتوفيق صاحب الإعجاز - الله تعالى - ربط الماضى بالحاضر لإنارة الطريق للمستقبل.. لتجلى بذلك حقيقة ما سبق أن قلناه حول عظمة هذا الإعجاز وكونه ليس خاصا فقط، ولا عاما فقط، بل هو خاص فى عام، وعام فى خاص.. ومع يقينى الجازم أن فتح هذا الباب والولوج إلى مجاز أسرارهِ، أمل دونه خرق القتاد وعمل يكلف من الجهد مالا يطاق.. لكن بالعزم وهمم الرجال، يستقاد المحال.. إن العمل الفردى لا يجدى فى هذا المجال، بل لابد من تضافر كل القوى.. ويهب أصحاب التخصصات كل فى مجاله ليشارك فى تحقيق هذا الأمر.. وإن ما أقوم به هو محاولة منى لرفع الراية والاستعانة بكل من يهمهم شأن الإعجاز، ليهبوا لجلاء وتوضيح عظمة ومكانة هذا الإعجاز.. ورغم قناعتى الجازمة بأن الجهد الفردى فى هذا الأمر لا ينفع، إلا أنى أحاول من باب ما يترك جله، يضيع كله.. ومن هنا تعددت وقفاتى مع عظمة هذا الإعجاز.. مع عطائه الذى لا ينفد ولا ينتهى.. ولكن هناك حقيقة يجب عدم تجاهلها لكل من يريد أن يتعامل مع الإعجاز القرآنى وعظمته، ومن تلك الحقيقة، أن من أسرار هذا الإعجاز أنه على القدر الذى تعطيه من الإخلاص والإقبال والعمل والصبر يعطيك مقابله

من الأسرار.. وكل ما سبق أن قدمته فى المرة الأولى فى كتاب سليمان - عليه الصلاة والسلام - وحقائق التلفزة، أو فى المرة الثانية فى كتاب الجن بين إشارات القرآن وعلم الفيزياء، أو مع كتاب وكالة الأنباء.. كل ذلك يشهد كيف كان الأمر إشارة خاطفة من لفظة قرآنية، أصبحت مع كل كتاب مما سبق - بفضل الله تعالى وحده - سفرا كاملا.. كل ذلك كان شاهدا لما قلته عن ثراء هذا الإعجاز وعطائه.. بل إن هذا ما سنلاحظه فى بحثنا هذا، وكيف كان عطائه أيضا فى هذه المرة، وعبر إشارة خاطفة ولحة إعجازية معطاءة فى لفظة من آية قرآنية - أيضا - لفظة ترتبط دائرتها العظيمة، بدوائر القصة الخالدة قصة الخلق الإنسانى، وكل ما اكتنفها ودار حولها، قصة خلقه من العدم، وإيجاده حيا ناطقا.. ثم قصة تسويته وتعليمه، قصة دخوله الجنة وتدريبه العملى.. قصة دمج ومزج الجنس الإنسانى جميعه فى فرد اسمه آدم.. ثم قصة استنساخه من «أم الكتاب».. ثم استنساخه - بعد الدمج والمزج - نرات من رقيقة ظهر آدم «صلب آدم عليه السلام».. ثم إعادته فى رقيقته بعد ذلك.. قصة تصوير قوالب جميع الذرات الإنسانية المستنسخة فى رقيقة ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - ثم إدخال تلك الذرات بعد ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» (١).

ثم قصة إهباطه - بعد ذلك - إلى الأرض لأجل محدود.. ثم موته وعودته فى رحلة عكسية إلى النقطة التى انطلق منها. إنها قصة الرحلة الإنسانية التى ملئت بها الكتب والأشعار وثار حولها الجدل وتصارعت العقول والأفكار، محاولة فك الرموز التى بنتها حولها صراعاتهم العقيمة دون أن تصل إلى حل سديد لكل تلك الرموز، وذلك لأنها فى كل محاولاتها التى قامت بها من أجل أن تصل إلى حل ترتضيه عقولها، كانت تدور فى محيط دائرته غير محكمة، لأن محيط تلك الدائرة غير محدد المعالم، لارتباطه بدوائر أخرى بتكاملها قد تتضح بعض معالم هذه الدوائر، إن جل أولئك المفكرين والفلاسفة حينما حاولوا إيجاد حلول لفك بعض تلك الرموز، كانوا ينطلقون فى حلولهم تلك من خلال خلق الإنسان فى المرحلة الدنيوية، ومن هنا كان الانحراف الذى أدى لكل ما حصل من تيه وبعد

(١) سورة الأعراف: آية ١١٠.

عن حقائق قصة الخلق الإنساني، وذلك لأسباب كثيرة جدا، منها مثلا أن الوجود الإنساني في الحياة الدنيا لا يسمى خلقا، وإنما يسمى إنشاء، كما سماه القرآن الكريم بذلك: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾^(١).

والنشأة الأولى هي إيجاد الحياة الإنسانية في الدنيا، لأنه تعالى سمي الإيجاد في الحياة الثانية - يوم القيامة - بالنشأة الآخرة ﴿وأن عليه النشأة الآخرة﴾^(٢). وذلك لأن الإنشاء يختلف مدلوله اللغوي عن مدلول لفظة الخلق، وإن تقاربا من حيث المقصود، ولكن تعبيرات القرآن الكريم دقيقة جدا جدا، وكيف لا يكون كذلك وكل شيء به فيه إعجاز؟ فالإنشاء في اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - يعني النماء والإنباء، من شيء موجود مسبقا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أما الخلق فيعني إيجاد الشيء من العدم.. إذن فهذا المدلول اللغوي يعطينا المفتاح الأول لفك بعض تلك الرموز.. وبذلك فإننا نخرج من هذا الفهم اللغوي، بأن إيجاد الإنسان في الحياة الدنيا ما هو إلا إنباء له من موجود سابق له، وهذا الموجود السابق له، إنما هو الإنسان المخلوق نفسه سابقا، والذي كان منه هذا الاستنساخ الإنمائي في الحياة الدنيا.. وهذا يعني أن هذا المنشأ هو الذي كان له الخلق والإيجاد سابقا.. أي أن هذا الإنسان كانت له مرحلة خلق قبل الإنشاء الإنمائي.. وهذا الفهم أشار إليه القرآن الكريم نفسه ودل عليه بقوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾^(٣).

إذن فالوجود الإنساني أو مراحل الخلق والإيجاد الإنساني، هو ذو ثلاث مراحل، وهي خلق نوراني من العدم: ﴿ولقد خلقناكم﴾.. ثم استنساخ إيجادي نوراني بخواص وخصائص تختلف - وإن كانت نورانية - عن المرحلة السابقة لها.. ويشير إليها ﴿ثم صورناكم﴾ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم استنساخ إنشائي إنمائي في الحياة الدنيا بعد الإهباط.. وهذا النوع تشير إليه كثير من الآيات

(١) سورة الواقعة: آية «٦٢».

(٢) سورة النجم: آية «٤٧».

(٣) سورة الاعراف: آية «١١».

القرآنية منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).

وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث لها خواصها وخصائصها، وماهيتها، وآياتها القرآنية التي تدل عليها وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام - وكل هذه المراحل الخلقية للإنسان كانت محك حديثنا في بحثنا هذا، والذي حاولنا إيجازه واختصاره قدر الاستطاعة في كل محاوره الثلاثة، وذلك لكثرة ما ورد عن هذا الخلق من آيات وأحاديث وشروحات وتفاسير.. ولهذا كان مصير أى حديث عن هذا الخلق وعودته إلى طبيعته التي انطلق منها فى رحلته الطويلة، عبر كل تلك التحولات والتبدلات التي تقلب فيها إلى أن وصل إلى محطته الدنيوية، أى حديث لا يتعرض لكل هذه المراحل وغيرها مما له ارتباط بذلك، سيكون مصيره الفشل.. وذلك لعدم الوقوف على الحقيقة كاملة.. ولا أقول أن ما فعلته فى هذه المحاور الثلاثة التي ضمتها ثلاثة أجزاء منفردة، هو الحل النهائي لكل تلك الرموز الهائلة - لا والله - لا أقول ذلك أبداً.. وإنما أقول عسى أن يكون ما فعلته الراية الأولى التي ارتفعت داعية ومنبهة، بعد بحث وللممة وتنقيب - ومن موجود - فلعل ما فعلناه يفتح الباب فى هذا الطريق - بمشيئة الله تعالى - المحفوف بالمزلق.. ومن هنا أقولها صادقاً لكل من أراد الدخول والغوص فى هذا المحيط الزاخر أن يتسلح بتقوى الله سبحانه وتعالى، وبالتوكل عليه، إذ بذلك تنفتح المغاليق.. ثم عليه بعد ذلك بالكد والبحث والتنقيب، والتزود بالصبر، إذ الطريق طويل وصعب وشاق، ولكنه - ورئى - لذيذ بكل ما تحمله هذه اللفظة من مدلولات، ثم عليه بعد ذلك محاولة إيجاد المراجع المطلوبة، وهى العقبة الكؤود، إذ ما كل ما يتمنى المرء يدركه.. إلخ. وضرورة توافر المراجع وتنوعها شيء تستدعيه أمور كثيرة، منها مثلاً: تدعيم ما ظننت صحته فيما أشرت به ولاسيما فى بحث كهذا مزلقه كثيرة.. وتدعيم - أيضاً - ما قد يظنه الكثير جنوحاً أو شطوحاً، وذلك لأن الغوص فى محيط القرآن الكريم الواسع، ليس

(١) سورة النساء: آية «١».

بالأمر الذى قد تُظن سهولته.. إنه كتاب كله مخازن أسرار لا تنتهى - وحاشا أن تنتهى - إنه كلام الحق جل سناه ﴿فل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾^(١).. إذن فمرحلة خلق الإنسان فى الدنيا ليست هى الأولى فى الخلق، وإنما هى الأولى فى الإنشاء، لسبقها بمرحلة خلق من عدم، وهى إبداعية تقديرية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ﴿ولقد خلقناكم﴾.. ثم مرحلة إبداعية تصويرية نورانية ﴿ثم صورناكم﴾.. ثم تصويرية طينية بصفات علوية - نورانية - ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾^(٢).. ثم حصل بعد ذلك المزج الجمعى والاستنساخ البعضى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾^(٣).. ثم حصول الإهباط بعد ذلك إلى الأرض وبداية مرحلة الإنشاء، أو الاستنساخ الإنمائى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. ولهذا نجد أن الحديث عن قصة الخلق الإنسانى لا تتضح معالمها، إذا اقتصر فى الحديث عنها على المرحلة الدنيوية فقط.. وهذا ما حاولنا عمله فى بحثنا هذا الذى نقدمه لك أختى القارىء.. ومن هنا نخرج أن المراحل الخلقية التى مرت بها الإنسانية قبل أن تصل إلى عالمها الدنيوى، لم تكن مادية، كما هى عليه الآن، بل رأينا أن مرحلة وجودها فى «أم الكتاب» قبل استنساخها منه كانت نورانية بحتة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم تلت بعد ذلك مرحلة الطبيعة - مرحلة التسوية الطينية - العلوية أى التى كانت فى الملا الأعلى، وهى كما سترى - بمشيئة الله تعالى - مرحلة وسطية بين المرحلة النورانية البحتة السابقة عليها والمرحلة المادية الكثيفة الدنيوية، وهى مرحلة الاستنساخ الذرى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾.. إلخ. وهى مرحلة سكنى الجنة والتدريب العملى.. أو كما قال الشيخ ابن عربى: «استنساخ ذراتكم من الأزل».. وهى مرحلة وسط بين النورانية الأولى والمادية

(١) سورة الكهف: آية ١٠٩.

(٢) سورة ص: آية ٧١ - ٧٢.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

الدينيوية، وهى أيضا التى ستكون على خصائصها النشأة الثانية يوم القيامة كما وضع ذلك من خلال الآيات القرآنية وما ورد عنها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن خصائص نورانية هذه المرحلة التحول إلى خصائص المادية الدينيوية بالإهباط الذى حصل لآدم - عليه الصلاة والسلام - من السماء إلى الأرض.. ولهذا نقول لكل أولئك الذين ينكرون أمر البعث والنشور، أو حتى يتشككون فيه، عليهم أن يراجعوا حساباتهم، ويعلموا أن أمر العودة أت لا مناص منه، إذ أن اللغز الذى كانوا يدعون إبهامه وغموضه، قد وضع وبان، وانكشف سر غموضه للعيان، كما أعلنها صريحة القرآن الكريم: ﴿..كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾^(١).. ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾^(٢).. ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾^(٣).. إذن فمن بدأ يعيد ومن بدأ أخبرنا كيف كانت الطبيعة الأولى التى أوجدنا عليها، وكيف أنا انطلقنا بعد ذلك منها وأخذنا نتقلب ونتحول إلى أن وصلنا إلى طبيعة كنا نعلمها، ومعلوم لدينا اليوم أن أى شئ قد وجد أصلا على خصائص طبيعة معينة ثم انتقل منها إلى خصائص طبائع أخرى، لابد أن يعود إلى خصائص الطبيعة التى كان عليها فى بداية أمره، وهذا ما نحن عليه، إذ قد كنا بخصائص نورانية، ثم تحولنا إلى خصائص مادية، بعد أن جمعنا جميعا فى جرم معين سوف يحمل خصائص طبيعة معينة، بإهباطه من نقطته التى كان فيها إلى طبيعة خصائص البيئة التى سوف يستقر فيها، وهذا ما حصل لنا جميعا مشخصا أمره فى جرم أبينا آدم - عليه الصلاة والسلام - والذى أهبطنا من طبيعة البيئة الأولى التى كنا نحمل خصائصها، إلى خصائص طبيعة بيئة أخرى بأمر إهباطه لنا متجمعين جميعا فى جرم نفس واحدة، فحصل ما حصل من تحول فى الخصائص بأمر هذا الإهباط، هذا الذى أهبطنا يقول لنا - أيضا - كما بدأناكم سوف نعيدكم لسهولة أمره علينا، فكما حولنا إلى ما

(١) سورة الأنبياء: آية «١٠٤».

(٢) سورة الروم: آية «١١».

(٣) سورة العنكبوت: آية «١٩ - ٢١».

وصلتم إليه سوف نعيدكم لما كنتم عليه قبل مزجكم وجمعكم فى نفس واحدة عند الإهباط - أى فى نفس آدم عليه الصلاة والسلام - أى الأمر الفرادى الذى كنتم عليه عند الإيجاد الأول سوف نعيدكم إلى طبيعة هذا الأمر: «ولقد جنثمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة»^(١). وهذا سهل أمره، فمن أنزلنا جميعا فى جرم نفس واحدة سهل عليه أن يعيدنا وييعثنا كخلق نفس واحدة: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير»^(٢).

إن من جاء بنا ونقلنا من خصائص إلى عكسها هو الذى سيعيدنا أيضا عودة عكسية لما كنا عليه من خصائص قبل الإهباط.. إذأ فأمر الخلق والبعث مربوط أمره بين حقيقة عالم التحولات، انطلاقاً من طبيعة ذات خصائص معينة إلى أخرى عكسية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه هى الفكرة الرئيسية التى يدور حولها بحثنا هذا، وهى فكرة أمر الخلق والبعث، وكيف أن طبيعة أمره تدور بين طبيعة حقائق عالم التحولات، طاقة ثم مادة ثم رحلة العودة العكسية من مادة إلى طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الفكرة تشعبت وتفرعت وتجزأت إلى قضايا وأفكار كثيرة ومتعددة جرّ إليها أمر توضيح وتجليّة الفكرة الرئيسية - بحمد الله وتوفيقه - وتعدد أمر هذه القضايا وأفكارها جعلنا نحاول - ما استطعنا - أن يكون هناك شئ من التخصص الجزئى لكل مجموعة من تلك القضايا والأفكار الفرعية المتشعبة، بحيث يضم كل مجموعة محور رئيسى عام يربط بين مجموع المجموعة التى تنضوى تحت مفهوم عنوان فكرته الرئيسية، وقد خرجنا من تلك المحاولة التصنيفية - بتوفيق الله تعالى وعونه - إلى بلورتها فى ثلاث مجموعات، كل مجموعة يضمها محور خاص بها، وكل محور يضم مجموعته جزء خاص به يحمل عنوانه - بحمد الله تعالى وعونه - فمثلاً سنلاحظ - بإذن الله تعالى وتوفيقه - أن المحور الأول سوف يدور حديثنا فيه حول فكرة كيفية بدء الخلق - الأول - وكيف أخذ بعد ذلك فى أمر تحولاته، وتعدد صور تلك

(١) سورة الأنعام: آية «٩٤».

(٢) سورة لقمان: آية «٢٨».

التحولات، ولذلك سنجد أن من جملة الإشارات التي دار حديثنا حولها في هذا المحور.. إشارات الطاقة والخلق الأول - اللوح والقلم والنورانية من إشارات مخازن عالم الغيوب.. «أم الكتاب» والوجود النوراني الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين حول التفريق بين «أم الكتاب» واللوحة المحفوظ.. وقفة مع ماهية «أم الكتاب» ولحة سريعة عن مكونات الكمبيوتر.. نماذج حول «أم الكتاب» حول دلالات الكتاب، والرق والرقائق والأدسك وكل ما يرتبط بقضايا البرمجة والاتصالات - إرسالاً واستقبالاً - وقفة مع الرأي العلمي الأول ومدلوله، مع إشارات الموجات والرقائق و«أم الكتاب».. «أم الكتاب» وحالات من حالات الخروج الاستنساخي إلى عالم الوجود النوراني الخالص - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - من اختلاف نورانية المراحل الثلاث.. الخلق جميعه كان مستقلاً مع آدم في «أم الكتاب» وعند الاستنساخ الأول عند التعليم المنهجي الأول في الملا الأعلى: «الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان»^(١).. أى العرضة التعليمية الأولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عودة لمحاورات الآيات والكتب والرقائق، أى أن لكل شيء رقائقه ودسكه المخزن فيه هو وكل ما له علاقة وارتباط به، فهناك دسك الأرزاق ودسك - كتاب - الأعمال، ودسك الآجال - الخاص والعام - ودسك الخلق ودسك البعث والنشور. وقفة مع قضية الآجال والموت، وقضية الموتات الثلاث.. والبرمجة.. لمحة سريعة عن عملية الموت والبرمجة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مع قضية «الكتاب المبين» وماذا يعنى ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ومن هنا ينتقل بنا الحديث إلى الفصل الثاني من فصول المحور الأول.. وفيه يبتدىء الحديث بهذا العنوان «أم الكتاب» بين فكر ابن عربي وعلوم الحاسوب - الكمبيوتر - الحديث عن معنى مدلول القلم الأول والعقل الأول.. «أم الكتاب» وقضايا الاتصالات: بين فكر ابن عربي وعالم الرقائق.. ثم الحديث عن ابن عربي وأول منفصل وآخر منفصل في

(١) سورة الرحمن: آية ١٠ - ٤٤.

دورة الفلك.. ثم وقفة مع ابن عربي وكيفية كون الإنسان على الأرض صورة مصغرة للحاسوب الأعلى «..أى آدم الأصل الذى فى السماء» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم الحديث عن كون الإنسان عبارة عن مجموعة من الرقائق المشفرة وكيف يتم الاتصال بينه وبين «أم الكتاب» عند ابن عربي.. ومن هنا يعود بنا الحديث حول قضايا الاستنساخ وبعض من مدلولاته، ومنه تكون بداية الفصل الثالث من المحور الأول، ويبدأ بهذا العنوان الجانبى: «من مفاهيم الاستنساخ» وفيه يدور بنا الحديث حول تنقل وتحولات خلقنا بين مراحل مختلفة.. ثم تعدد صورته وتنوعها، مع أن الأصل الذى استنسخت منه واحد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك كصورة الهباء والاستنساخ منه، الصورة الحركية النورانية، أى بداية التركيب الجسمى للإنسان نورانيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو استنساخ الإنسان الصورة مما هو مخزن فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - ثم صورة الظل.. وكيف يخالف الظل أصله.. ثم الصورة التى مع ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - وصورة الأرض وتعدد صورها.

ثم يأتى الفصل الرابع ويدور الحديث فيه حول البداية الإنسانية الطينية الأولى بخصائص الملائكة الأعلى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم الحديث عن التسوية الخصوصية والعمومية للجسم الإنسانى - الحاسوب الحى - وما الذى تعنيه هذه الإشارة.. وقفة مع التسوية الهيولية وبرمجة ذرات أصول بنى آدم بعضها فى بعض فى الظهور، لما سيكونون عليه فيما بعد - بإذن الله تعالى - مع مدلولات كلمة «مسنون» والتصوير بأنواعه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مع قضية عالم الروح ومحاولة التعرف عليه وسؤال حول ذلك - بإذن الله تعالى - عودة لعالم الاستنساخ: استنساخ (النطفة الإنسانية).. مع قضية الشريط الوراثى العهد والميثاق.. وقفة سريعة مع بعض مدلولات الإهباط وما الذى تعنيه.. مع سؤال مهم: «لم لم يبق الإنسان على طبيعته بعد الميثاق؟».. من أسرار التكليف.. مع شئ من مدلولات السجود ومفاهيمه وقضايا التسخير الكونى للإنسان والانفعال بينهما - والله تعالى أعلم

بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كمفهوم رقيقة الكرام الكاتبين.. ثم الحديث عن بعض محاولات تبويب ما أجمله ابن عربى حول تأهيل الجسم الإنسانى.. ثم تحليل سريع لما سبق. وهنا يبدأ الفصل الخامس: ويدور حول صور وحكم الدمج والمزج وإشارات.. ثم كيف أنه لا صور محسوسة للأعيان قبل تركيب عناصرها.. من أدلة وبراهين الاستنساخ الجمعى ذى النورانية المتجسدة.. عودة للحديث عن ابن عربى وعالم الصور وتنوعه.. مع قضايا التبعية الجنسية وما يرتبط بها كقضية الاصطفاء والاختيار.. وقفة مع بعض علماء الفكر الإسلامى حول آية الاصطفاء.. مع التسوية وقضايا أشباه البشر.. ثم الحديث عن الدارونية ونورانية المرحلة الثانية وقضية التركيب، وهنا مسائل كثيرة كشواهد من طبيعة النشأة الثانية فى الدنيا ونوعية طينة آدم - عليه الصلاة والسلام - وقضايا كثيرة يختتم بها الحديث حول المحور الأول من محاور هذا البحث - بعون الله وتوفيقه.

وبهذا الاستعراض السريع لبعض نقاط المحور الأول ينتهى الجزء الأول ليبدأ بذلك استعراض سريع آخر أيضا لبعض نقاط المحور الثانى، وفى المحور يدور الحديث مرتبطا بمحور الجزء الأول ومجليا جل قضايا وإشارات.. فإذا كنا قد تحدثنا فى المحور الأول عن آدم - الإنسانية - من حيث خلقه النورانى، ثم بداية التجسيد النورانى تمهيدا للانتقال والتحول المادى، ثم إهباطه وتحوله - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وكيف أنه كان صورة مستنسخة من آدم الأصل الذى بقى هناك فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فإن حديثنا فى هذا المحور سيدور - بإذن الله تعالى - حول أهم الأسس لهذه الصورة الآدمية.. وذلك أن أساس هذه الصورة الآدمية كلها، هو عجب الذنب.. ثم كيف يصبح هذا العجب هو الفؤاد؟ وكيف يخرج من الفؤاد قلب وعقل. وسنلاحظ - أيضا - كيف ستتضح حقيقة الفرق بين دلالة ومفهوم القلب ومقصوده فى مفهوم الإعجاز القرآنى، وبين مقصود القلب فى المفهوم الطبى.. وذلك أن مفهوم القلب فى إشارات الإعجاز القرآنى يختلف تماماً عن مقصوده فى المفهوم الطبى، وهذا ما حاولنا توضيحه فى محور الجزء الثانى، من

خلال استعراض بعض النقاط التوضيحية.. كالتعرض لدلولات القلب والفؤاد والعقل فى عالمى اللغة والطاقة.. وقضية النفس الكلية وعالم القلوب.. ثم وقفة سريعة مع ملخص الإمام الرازى حول هذه الدلالات الثلاث عند أهل الطب قديما ثم استعراض سريع لهذه المدلولات عند أهل الطب حديثا.. فقضية الجهاز العصبى العام والمركزى.. ولم سُمِّىَ الدماغ قلبا فى القرآن الكريم - والله تعالى أعلم - ولم يُسمَّ دماغا.. عودة للجهاز العصبى بعمومه وهو الفؤاد العضوى.. والمركزى بوجه خاص هو القلب العضوى.. إذن فالقلب والفؤاد لهما وجهان؛ وجه عضوى.. ووجه نورانى - طاقة - ثم الحديث عن «المضغة المخلقة» بين القلب والجهاز المركزي.. القلب النورانى هو الطاقة التى تتقلب داخل تجاويف هذه الأعصاب.. ثم وقفة مع البطن والبطون والظهر والجلد والقلب والفؤاد.. القلب والفؤاد وجهان لشئ واحد.. كيف تشهد الأعضاء على صاحبها؟.. كيفية تسجيل الأعمال؟.. عودة مع القلب والطاقة والفؤاد.. النخاع الشوكى والفؤاد.. مع عجب الذنب والقلب والفؤاد . عجب الذنب هو الفؤاد.. إذن هو الإنسان بذاته.. عجب الذنب والاستيداع وأيتا هود والأنعام.. عجب «الذنب والمضغة المخلقة وغير المخلقة».. الرحم مصنع تحويل وتجميع ذرات الصور الإنسانية الدنيوية.. عودة للون المضغة غير اللحم.. أين يذهب الشطر غير المخلق من المضغة؟ النسخة الأخروية، مع الشريط الوراثى والشفرتين اللتين فيه، وقضية النسختين المستنسختين من «أم الكتاب» والموجودتين فى عجب الذنب.. مع قضية اختلاف التربية بين الناشئين من حيث الخصائص والخواص وإن اتحدتا أصلا.. وجود جزيئات الأعضاء الأخروية مع نفس الأعضاء الدنيوية.. عجب الذنب والذرة، وأمكنة الأصول للنشأتين.. مع قضية قانون الحياة الحالية، وكيف بتغييره تتغير أنظمة الحياة وتنتقل إلى قانون الحياة الثانية؟ مع إشارة لابن عباس رضى الله تعالى عنهما والنورانية وعالم التحولات.. النورانية وحديث: «يذر عليه من تربته».. وقضية الجزيئات الأصلية.. مع قضية كيف احتفظت تلك الجزيئات النازلة من أعلى بخصائصها النورانية.. وهكذا يستمر الحديث والتحليلات السريعة حتى يصل بنا الأمر للحديث حول المحور الثالث، والذي ضمه الجزء الثالث والأخير من بحثنا هذا.. وهذا المحور أمره يتعلق بالحديث عن كيفية عودة هذا المخلوق الإنسانى إلى النقطة التى انطلق منها فى عوالم تنقلاته وتحولاته حتى وصوله لهذه

الدنيا.. والتي منها تبدأ رحلته العكسية إلى نقطة انطلاقه، أى أن جل الحديث يدور حول تجلية حقيقة البعث والنشور والعودة إلى رب العالمين.. وحقيقة البعث والنشور هذه، ورغم جلائها، وبرغم كون كل شئ فى هذا الوجود يصرخ بحقيقتها، إلا أن الكثير الكثير من الناس تجدهم ما بين منكر ومتشكك فى حقيقتها - إلا من شاء ربك.

وفى هذا الجزء الأخير من هذا البحث حاولنا - ما استطعنا، واستكمالا مع كل ما سبق - توضيح سهولة وبساطة هذه الحقيقة كما شرحها وجلالها القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ.. وكما أشار القرآن الكريم فإننا سنلاحظ أن عموم فكرة العودة، أو البعث والنشور، يركز أمرها على مبدأ عالم التحولات، وهو مبدأ أن أصل كل الأشياء طاقة، أى أن كل عالم المادة الذى نعيشه، كان طاقة، وأخذ بعد ذلك فى تحولات متعددة ومتنوعة إلى أن وصل إلى هذه الطبيعة المادية - وقضية الإعادة - البعث والنشور - أى إعادة الأشياء إلى طبيعتها الأصلية التى انطلقت منها.. وقانون مبدأ التحولات أمر لا ينكره عقل، ولا عرف، ولا دين بل إن السباق على أشده بين علماء العصر الحاضر تحقيقه وذلك لإيمانهم وقناعتهم التامة على تحققه، إذن فالبعث والنشور حقيقة واقعة لا محالة.. وقد دار حديثنا فى هذا المحور الأخير على توضيح هذه الحقيقة.. وذلك من خلال الكثير من النقاط التى عالجنا فيها قضايا ومبادئ هذا العالم التحولى وقوانينه، مع الكثير من الشواهد والبراهين ثم ختم هذا الجزء بثلاثة شواهد أتى بها القرآن الكريم.. الأول: شاهد وبرهان عملى يريك كيفية حصول هذا البعث وكيف أنه يشبه فى كل خواصه وخصائصه مرحلة الخلق الثانية التى كانت فى المبدأ الأعلى، ولذلك جعل شاهدا وعلامة وآية لكل ما يجلى ويوضح شأن هذه الحقيقة.. وهذا كله نجده متجليا فى خلق سيدنا عيسى - عليه الصلاة والسلام - «وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها».. وإذا كان هذا الشاهد - الأول - قد تعلق أمره ببعض القضايا الخاصة بأمر هذا البعث والنشور وهى قضية السرعة التى لا يتصورها عقل ولا خيال بشرى، أى السرعة العالية جدا فى إحداثه، وكذلك فى أمر خصائص الطينة التى سوف يكون عليها الخلق عند البعث، وكيفية أن خصائصها تلك تختلف عن خصائص الطينة الحالية وإن كانتا واحدتى الأصل.. وهناك قضايا أخرى

كثيرة ارتبط بها أمر الشاهد الأول بتوضيحها.. تقول: إذا كان هذا الشاهد ذا خصوصيات جاء لتحقيقها، فإن أمر الشاهد الثالث كان أكثر عمومية فيما جاء لتوضيحه من قضايا أمر البعث والنشور وحقايقه.. ومن هنا سنلاحظ أنه كان أوسع دائرة، وأكثر شمولية في عموميته من الشاهد السابق له.. وذلك لأن هذا الشاهد يريك ويجلى لك الكثير والكثير من حقائق التحولات التي حصلت وتنقلت فيها الخليقة الإنسانية منذ أن وجدت، إلى أن استقرت على هذه الأرض.. ثم يريك أمر مراحل عودتها حتى وصولها إلى النطفة التي انطلقت منها بعد إيجادها.. وقد كان تطبيق هذا الشاهد ونموذجه العملى على حياة سيد الخلق جميعا محمد بن عبد الله ﷺ فى رحلتى الإسراء والمعراج وبعد عرض القرآن الكريم الشاهد الثالث، والذي فيه أرانا الحق جل سناه: سهولة الإماتة والإحياء وأمر بساطتها بالنسبة لقدرته - سبحانه وتعالى عما يصفون - وذلك فى نموذجى قصة صاحب القرية، وقصة نبي الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مع الطيور التى أمر بذبحها.. هاتان القصتان اللتان تجلت فيهما عظمة إبداع البديع وقدره التقدير القادر، إبداع الإيقاف والتشغيل للإيجاد والإعدام - الموت والحياة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهكذا.. وقد كانت أهم النقاط الرئيسة وإن كانت هناك نقاط فرعية كثيرة جدا دار الحديث حولها فى بعض هذه الشواهد الثلاثة.. هى قضية قانون السرعة الفورية المشترك بين الخلق الأول والثانى لآدم وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - وبين البعث والنشور وهو قانون «كن فيكون».. ففى خلقهما الأول قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ أَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).. وقال سبحانه وتعالى مثل ذلك آيات كثيرة منها مثلاً: ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٢) إلى أن يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.. ثم نجد أن هذا القانون الفورى وقضية السرعة فيه مطبقة فى أمر نشأة نبي الله عيسى - عليه الصلاة والسلام - فى إيجاده فى الدنيا، سواء

(١) سورة آل عمران: آية «٥٩».

(٢) سورة يس: آية «٧٨ - ٨٢».

كان ذلك فى أمر تكونه أو فى أمر حمله وخروجه إلى الدنيا، وقرأ إن شئت فى ذلك قصة حمله ونشأته - عليه الصلاة والسلام - فى الآيات: من «١٦»: ﴿واذكر فى الكتاب مريم..﴾ إلى نهاية آية «٣٥» وهو قوله تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾^(١).. ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن قضية خصائص الطينة التى تكونت منها نسخة جسد نبى الله عيسى - عليه الصلاة والسلام - وذرات نسخة جسده - عليه الصلاة والسلام - التى سوف تكون على خصائصها عند البعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم وقفة سريعة عن كيفية كون خصائص ذرات طينته الدنيوية بخصائص أخروية، فى بيئة وطبيعة الحياة.. ثم يأتى الحديث فى لمحة سريعة عن قضية تكوين الجزء الثانى من بدنه - عليه الصلاة والسلام - وبراهين وأدلة ذلك.. ثم عودة إلى طبيعة طينة نبى الله ﷺ وقضية أمر الموت وقوانينه، ثم ينتقل بنا الحديث للخوض حول أمر مرحلية الطاقة والخلق وعالم التحولات.. وهذه الإشارة تجعلنا نعود لنتحدث عن قضية اللون واللونية من ناحية فيزيائية.. وذلك لارتباط أمر الألوان بأمر الطاقة وتحولاتها كما هو معروف - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهنا نقف مع بعض من إشارات القرآن الكريم حول التحولات من مادة إلى طاقة والعكس. كالماء وتحولاته.. إلخ.. ثم نعود للحديث عن عجب الذنب وعالم الكوارك والكواركات فى عالم الطاقة والمادة وارتباط أمر ذلك كله بقضية البعث والنشور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الإشارة جعلتنا نعود بالحديث لقضية الازدواجية فى تنشئة الكون وكل ما فيه، وارتباط هذا الأمر بقضايا البعث والنشور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ليقف بنا الحديث بعد ذلك عند الفصل الأخير وخاتمة البحث، وذلك باستعراض نقاط بعض الإشارات فى قضية التشفير ونظام البرمجة الكمبيوترية وارتباط أمرها بأمر قضايا الخلق والبعث والنشور.. والنداء والإجابة والإرسال والاستقبال الكمبيوترى حتى فى أدق الأجزاء الخلقية، وكل ذلك فى إشارات ولمحات سريعة جدا جدا،

(١) سورة مريم: آية ١٦ - ٣٥.

كقضية الشفرة الموجودة بين الأجزاء بعضها بعض والآتية إليها عن طريق مراكزها الموجودة في داخلها والمرتبطة بالمركز الرئيسى فى الخلية الأم والمرتبطة بالمرسل الرئيسى الموجود فى الصور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وغير ذلك كثير مما سيجده أخى القارئ حول هذا أو غيره فى المحور الثالث وسابقه، يختتم بذلك أمر هذا البحث بعد أن أخذ منا الكثير من الجهد فى الجسد والإرهاق الفكرى.. ولكن ما يريح القلب أن كل ذلك كان من أجل خدمة كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ فنسأل الله تعالى أن يجعله فى سجل حسناتنا لترجع به كفة أعمالنا.. بإذن الله تعالى.

وهنا نعود لنقول إن هذه النقاط التى ألمحنا إليها ليست هى كل ما فى هذا البحث بل قد لا نبالغ إن قلنا أن ما ذكرناه لا يعدل الخمسين بالمائة مما تعرضنا له، وقراءة البحث هى خير ما يؤكد صدقنا أو العكس.. وشئ آخر أود أن أقوله لإخوتى القراء وهو أن كل ما تحدثنا عنه فى هذا البحث الذى بين أيديكم ما هو إلا جزء مما وفقنا فى التوصل إليه بفضل الله تعالى وتوفيقه وجوده وكرمه، وذلك مما جمعناه فى هذا الموضوع، إذ قد كان واسعا جدا.. وقد تسألنى عن الأسباب التى دعتنا للاختصار والإيجاز، وقبل أن تسأل ذلك فإننى أقول لك ما كل شئ تجده يمكن أن تقوله لاعتبارات وأسباب كثيرة تحول دون قوله، ومن ذلك أن الكاتب لا يكتب لفئة خاصة، ولكنه حينما يكتب يضع نصب عينيه أن القراء يختلفون فى مداركهم.. وهذا الاختلاف يحتم على الكاتب أن يراعى اختلاف تلك المدارك، أضف أن الكثير من القراء حينما لا يدركون بعض القضايا التى عالجها الكاتب يذهبون فى تأويل تلك القضايا مذاهب شتى، بل قد يصل الأمر فى تأويل بعضهم إلى علمنة هذا الكاتب أو تكفيره، ومثل هذه التأويلات جعلتنا نوجز ونختصر الكثير مما توصلنا إليه، بل قد لا نسلم من مثل ذلك حتى فى هذا الموجز الذى نقدمه.. بل قد كانت لنا سوابق مثل هذا فى الكتابين السابقين سليمان - عليه الصلاة والسلام - وحقائق البث التلفزيونى، وكتاب الجن وعلم الفيزيا.. فقد أطلقت علينا أحكام كثيرة ما بين معلمين منهم ومكفر، وبعضهم حاول أن يكون أقل غلوا فيما أطلقه إذ «فكر وقدر» ثم صاح والله إنه لصوفى.. ولكن كل ذلك لم يثننا عما عزمنا عليه من خدمة كتاب الله وسنة رسوله الكريم

ﷺ، ولأن نية العزم - بحمده تعالى وتوفيقه - كانت صادقة فسرعان ما عاد أولئك عما ردوا وقالوا.. بعد أن اقتنعوا بما قرأوا.. ومع ذلك علينا أن نتوقع الكثير والكثير بل الأكثر مما سبق حول قضايا وإشارات آراء هذا البحث.. وليقولوا ما شاءوا، إذ قد أصبحت لدينا مناعة رصيدها: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه».. ومع ذلك فنحن لسنا ضد الحوار، ولا نرفض الرأي الآخر إذا كان أقوى حجة مما ذهبنا إليه، إذ هذا هو الهدف الحقيقي مما نصبو إليه فكلنا مجتهد، ولكل مجتهد نصيب، وهذا ما يجب أن يكون.

وقبل أن أنهى حديثي السريع في هذه المقدمة الخاطفة أود أن أشير بشيء من التوضيح اليسير لبعض الملاحظات التي قد تكون موضع استفسار.. مثل أن يقال: يلاحظ عليك أنك تقتصر في أخذ شواهد حججك من كتب التفسير جميعها على اثنين منها فقط.. والمعروف أن كتب التفسير كثيرة، وهي مختلفة في مشاربها، متنوعة في مراميها ومعانيها.. وقد تجلى ذلك في اقتصارك على كتابي الرازي والقرطبي.. ويلاحظ عليك أيضا - أنك كثير الأخذ من الشيخ محيي الدين بن عربي، مع علمك بما يقال ويدور حوله؟.. ثم هل أنت واثق كل الثقة من صحة وتخريج ما أورده من روايات بعض الأحاديث المتناثرة في جل كتب التفسير؟.. هذه بعض الملاحظات أردنا أن نشير إليها.

وقبل أن يسأل عنها.. أردنا أن نشير إليها لإحساسنا بأن مثل ذلك قد يقال.. وإن كان هناك الكثير مما كنا نود توضيحه والإشارة إليه.. لولا خوفنا من الإطالة على إخواننا القراء.. أما قضية أن جل استشهادنا تفسيرا قد كان من كتابي الرازي والقرطبي، فإننا نقول: من المعلوم أن جل كتب التفسير قديمها وأكثر الحديث منها، وإن اختلفت مشاربها وتنوعت مراميها لا تخرج عن أمرين رئيسيين.. وهذان الأمران إما أن تكون كتب التفسير كتب رواية، أي أنها تورد جل الروايات، التي تحدثت عن القضايا والمواضيع التي تحدثت عنها هي، إيرادا فقط دون أن يكون فيها تعرض لها بأي نقاش أو تعليق، أو حتى توضيح لما ورد فيها، أما الصنف الآخر فهو ما يسمى بكتب الدراية.. وهذا النوع يندرج تحته نوعان.. الأول: وهو من يورد كل تلك الروايات التي أوردها سابقتها، ولكنه يضيف إليها الشرح والتعليق، مع المناقشة لصحة ما أورده تلك الروايات، بل وما قيل حولها من

شروحات وتعليقات أهل زمنه.. ومن هذا الصنف كان الشيخ القرطبي فى كتابه الذى أسماه (جامع أحكام القرآن الكريم) وقد كان جل أخذنا منه فى بابه، وذلك لأسباب كثيرة منها مثلاً أنه يورد جل ما قيل حول الآية القرآنية المراد تفسيرها إلى زمنه مع تعليقه، إذن فهو يريحنا من عناء الحصول على ما ذكر من مراجع نحن فى حاجة إليها ولا تتوفر فى منطقتنا أو حتى فيما حولنا، إضافة أنه يشارك بما تريده.. أما النوع الآخر من هذا الصنف، فيمكن أن يندرج تحت تصنيف كتب الدراية فى علم التفسير، فهى كتب بعض علماء الفكر الإسلامى قديماً أو حتى حديثاً، التى تناولت تفسير القرآن الكريم، ولكن بما يمكن أن نسميه فى عصرنا الحاضر بالتفسير العلمى، خصوصاً الآيات التى عالجت بعض الإشارات إلى بعض القضايا الكونية، وإن كانت كتبهم لم تخلُ من قضايا الأحكام التشريعية، حتى فى هذه المواضع فقد كانت طرق علاجهم لها لم تخرج عن المعالجات العلمية، كقضايا أحكام الحيض وما يترتب عليها من أمور نفسية وروابط إنسانية، وقد تلاحظ فى بعض أصحاب هذا المنهج ممن يسلكون مثل هذه الطرق، أنهم يجمعون جل ما قيل فى الموضوع الذى يعالجه بمثل معالجتهم إلى زمنهم، مع شرح ما قيل ومناقشته، وبيان مافيه من صحة أو خطأ، ومن أصحاب هذا المنهج الشيخ فخر الدين الرازى، كما هو واضح فى تفسيره الذى أسماه بمفتاح الغيب، وبعضهم يسميه بالتفسير الكبير تمييزاً له عن كتاب آخر يعد مختصراً لهذا التفسير، ولهذا السبب وماسبق حول الكتاب الجامع، كان جل أخذنا منه، وذلك لكونه حاوياً لجل الكتب التى مواضيعها فى مثل مافيه، أى أنه مكتبة مصغرة فى فنه ولأنه - أيضاً - يكفى الباحث مؤنة البحث عن المراجع التى يريد لها موضوعه، فى حين هى موجودة، فى هذا الكتاب ملخصة مختصرة مشروحة.. بل هى طريقة أقرب لما يعمل به حديثاً فى بعض مكتبات العالم المتطور، كمكتبة الكونجرس الأمريكية مثلاً، وذلك أنها تقدم للباحث ملخصاً كاملاً يحوى جل ما قالته المراجع عن موضوعه الذى يتناوله بحثه، وأظن أن ما عملناه لا يخرج عن مثل هذا، أضف أن هناك سبباً آخر دعانى لعمل ما تناوله استفسارك - أخى القارئ - وهو شح وعدم توافر المراجع المطلوبة بمواضيع بحثنا، وخاصة الجانب العلمى قديماً لعدم توافر المكتبات

العامّة في مدينتي «جيزان»، إضافة إلى أن الكثير من الكتب المرجعية يمنع تناولها ووجودها، فأخوك مكره لا بطل، أما كثرة أخذنا واستشهادنا من كتب الشيخ محيي الدين بن عربي - رحمه الله تعالى - مع علمنا بما يقال ويدار حوله.. فإنني أقول: إن ما يقال ويدار حوله لا يمنع من الأخذ من علمه.. ثم إن أخى المستفسر قد أراحنا بإيراده هذه الإشارة في استفساره.. وذلك أنه قال: مع ما يقال ويدار حوله.. إذن فما يشاع ويقال حوله هو من باب التقول.. والتقول افتراء، والافتراء على الآخرين ظلم وبهتان، ومن هذا الظلم والبهتان منع قراءة التراث والفكر الإسلامي العربي، والأخذ منه، بأي حجة أو تعلل، فالعقل الإسلامي قد حباه من دقة التمييز ما يؤهله لأن يميز الغث من الطيب.. ومن هذا التراث، تراث وفكر ابن عربي، إذ كان من الواجب علينا قبل تعميم منع قراءته والأخذ منه، وقبل العمل بهذا المنع، أن نقوم بتمحيص هذا المنع المعرفة مصدره، ومعرفة ما الذي يرمى إليه هذا المصدر من إطلاقه وترويجه بين أمتنا، فما بالك وقد وجدنا أن من كان وراء ما أشيع عن ابن عربي، هم المستشرقون ذلك الجسم الغريب الذي كان وراء كل بلاء وشقاء لأمتنا العربية والإسلامية، ومعلوم أن الهدف من وراء ذلك قد أصبح مكشوفاً لكل أبناء هذه الأمة إلا من شاء ربك معلوم أنهم يريدون إبعاد الأمة عن فكر علمائها وعباقرتها لينهلوا منه ما يشاءون وينسبوا إلى أنفسهم كل ما حصل من إبداع فكري أو رقى عقلي ليجردوا بذلك الأمة من كل أمجادها الحضارية، ويقتلوا بخبثهم وحقدهم كل رموزنا في العلم والفكر والأدب، وبالمصيبة بأيدي زيد وعمرو لا بأيدي طومسن وروجر والبلية أننا نصدقهم ونستجيب لما يقولون ويريدون، فابن عربي الذي أشاعوا عنه ما أشاعوا، نجدهم يطلقون عليه - فيما بينهم - لقب شيخ العلماء، إذن فما أشيع ويشاع عنه، هو تقول من خبث أو حقد من منتن، إذ هو لم يكن وجودياً، أو ملحداً، بل كان موحداً، عالماً مفكراً، ولعل ما نسب إليه وحكم لأجله عليه بالكفر والإلحاد، كان أتياً من قبل أولئك الحقدة الماكرين، أو لأننا لم نفهم حقيقة ما رمى إليه وقصد.. وإلا كيف يكون الأمر برجل ملئت رسائله التي أثرت عنه بمثل قوله: (وعليك بلزوم الذكر والاستغفار.. إن كان عقيب ذنب محاه وأزاله.. وإن كان عقيب طاعة وإحسان، فنور على نور، وسرور على سرور، فالذكر

أجمع اللهم وأصفي للخاطر، فإن سئمت فانتقل إلى تلاوة كتاب الله مرتلاً بتدبر وتفكر وتعظيم وتنزيه وسؤال عند آية سؤال، وخوف وتضرع عند آية خوف ووعيد واعتبار، فإن القرآن لا يسأم قارئه لاختلاف المعاني فيه.

وعليك بحل عقد الإصرار من قلبك ولا تطيق ذلك إلا أن تقول لنفسك في النفس الخارج. هل تدريين يا نفس أن النفس الآخر يأتيك، أم لا! فلعل - والله أعلم - ربما تموتين في هذا النفس، فإنه آخر أنفاسك في الدنيا، وأنت مصرة على السوء .

عند الله تعالى للمصرين على الذنوب من العذاب، مالا تطيقه الجبال الشوامخ كيف بضعيفة مثلك؟ فتوبى إلى الله تعالى، فإنك لا تدريين متى يفاجئك الموت، فإن الله تعالى، يقول: ﴿وليسست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ وقال سيد الخلق رسول الله ﷺ «إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغفر».

وعليك بتقوى الله في السر والعلانية، ومعنى التقوى، هو الحذر من عقابه، فإنه من خاف من عقابه بادر إلى الفعل الذي يرضى الله تعالى والله تعالى يقول: ﴿وحيذرکم الله نفسه....﴾ (١).

إذن فرجل يمتلىء قلبه وينطق لسانه بمثل هذا، كيف يتسرب إليه الكفر والإلحاد؟ أليس ما ينسب إليه هو تقول وافتراء من أعداء أمته وأعدائه؟ إذن فهو موحد لا وجودي، ومؤمن لا ملحد، - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - وهذا الإنصاف ليس صادراً مني ولم أقله أنا، بل هو صادر عن رجل غاص في فكر ابن عربي، وقرأ تراثه، كعلم شامخ من أعلام المدافعين عن العقيدة الإسلامية، إنها شهادة لعالم وشيخ من مشايخ الأزهر الشريف، إحدى القلاع الحصينة والمدافعة عن بنيان العقيدة، إنه الشيخ عبد الرحمن حسن محمود ، وهو أحد الذين قاموا بتحقيق بعض تراث الشيخ ابن عربي.

يقول الشيخ عبد الرحمن حسن محمود، في مقدمة تحقيقه لكتاب مجموعة رسائل ابن عربي: «عثرت أثناء البحث عن كتب الإمام محيي الدين بن عربي: رحمه الله تعالى ورضى

(١) بإيجاز واختصار من كتاب «مجموعة رسائل ابن عربي»: من ٢٧ - ٢٩

عنه - على كتيب يشبه أن يكون رسالة، وهو فى واقع الأمر حجة من الحجج القائمة على أنه يدين لله بالربوبية، وأنه من كبار الموحدين، وأن ما قاله أعداؤه مكذوب عليه رضى الله عنه وأرضاه، وأنه فحل من فحول العلم لايبارى. وإننى - والحمد لله - دائب البحث عن أمثال هذه الكتب، التى تزيل الالتباس من عقول بعض الدائبين على تكفير خلق الله، دون تعقل وروية، أو بحث عن الحقيقة^(١)... إذن فما يقال عن ابن عربى، ماهى إلا أقوال مكذوبة عليه من أعدائه.. ومع ذلك كله فإن من أهم الأسباب التى دعتنى لأن آخذ من ابن عربى، أو حتى غيره ممن ينهج نهجه، هو أننى رجل مسلم، مهمته فى الحياة البحث عن الحقيقة، أو كما ورد عن رسول الله ﷺ مامعناه: (الحقيقة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها) ومادامت مهمتى هى البحث عن الحقيقة فلا يهمنى أمر المأخوذ منه فـ (كل امرئ بما كسب رهين) إذ ما يهمنى هو الحقيقة ذاتها، أما قضية اعتمادى على بعض الروايات التى أخذها من بعض كتب التفسير، وما إذا كنت أنا واثقا من صحتها، أم لا؟ فى الإجابة عن ذلك، سوف أعيد بعضاً مما سبق أن قلته عن مثل هذا التساؤل فى مقدمة كتاب: سليمان عليه الصلاة والسلام بين حقائق التلفزة وعلم التقنية، وقد قلت حول ذلك باختصار: «ذلك أن تلك الإشارات أو الروايات التى أخذتها واعتمدت، بعد مساندة الله تعالى وتوفيقه، عليها فى الاستشهاد على الكثير مما أوردته، فذلك لأنى وجدتها تعطينى الضوء الأخضر - كما يقولون - فى الانطلاق لما أردته، فمثلاً حينما أجد أن الرواة ينقلون حول قول الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(٢) يروون ما نصه، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: (فى العرش مثال كل شيء خلقه الله فى البر والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد كقوله تعالى: ﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾^(٣) هذه الإشارة حينما نقف عندها ألا نجد فيها الكثير والكثير من الإشارات العلمية؟ ألا نجد فيها تلميحاً لمفهوم وجود الأصول

(١) من كتاب «مجموعة رسائل ابن عربى» تحقيق الشيخ عبد الرحمن محمود ص ٥٠.

(٢) سورة الحجر: آية ٢١.

(٣) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبي: ١٤ - ١٥/١٠.

للأشياء واستنساخ الصور المتعددة منها على حسب ملائمتها للبيئات التي ستكون فيها مثل تلك الصور المستنسخة؟ كيف لانجد فيها مثل هذا المفهوم، ونحن نعلم الكثير من الروايات التي صحت عن رسول الله ﷺ وهى تشير لمثل ذلك إن لم تكن تؤكد؟ ألم يرو عن الكثير من عمالقة الصحابة كعلقمة وابن مسعود وغيرهم - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - الكثير من الروايات التي تحدثت عن قضية خلق النطفة والملك الموكل بها، مثل ما ذكر عن علقمة عن عبد الله قال: إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها الملك - الموكل بالرحم - بكفه، فقال: أى رب أمخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال (غير مخلقة) لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دماً، وإن قال مخلقة.. قال: أى رب أذكر أم أنثى؟ أشقى أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأى أرض تموت؟ فيقول: اذهب إلى (أم الكتاب) فإنك ستجد هذه النطفة فيها، فيقال: للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله.. فيقال: من ربك؟ فتقول: الله، فتخلق، فتعيش فى أجلها، وتأكّل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، فالأثر هو التراب الذى يؤخذ فيعجن به ماؤه^(١).

إنّ فهى تؤكد إشارة الأصول واستنساخ الصور المتعددة منها، ومستودعات ومخازن تلك الأصول، وقضايا التصوير، والتحويلات من طاقة إلى مادة والعكس وغير ذلك من القضايا العلمية، التى تفوق إدراكات البشر كما سبق الحديث عنها فى أماكنها، إنّ فهناك أسباب كثيرة دعتنى أخذ بها.. أما عن كيفية اعتمادى على مثل تلك الإشارات وأمثالها من عدم التوثيق.. فهنا نقول وبالله العون والتوفيق: لعل عدم توثيق بعض تلك الروايات، إن صح عدم توثيقها عند الكثير ممن أهملها أو ضعفها ولم ينقلها، أو حتى يرويها، أن يكون ذلك لأسباب، منها مثلاً، بعدها عن العقلية فى تلك الفترة، إذ أن ما فيها من معان توحى بغرابتها وعدم ملائمتها للمفهوم العلمى فى زمانهم، فهذه الغرابة أدت عندهم لضعفها ثم إهمالها، أو أنه لم تحصل أو تحدث أى كشوفات علمية تشير ويقرب مافيهها من دلالات علمية من معانى هذه الإشارات وغير ذلك كثير.. والواقع أن هذه الإشارات وأمثالها المتناثرة فى أمهات مراجع ومصادر الحديث والتفسير وشروحاتها أو

(١) كتاب «التذكراء للقرطبي، ١٠٧/١.

حتى فى أمهات مراجع ومصادر التاريخ الإسلامى، يجب الاهتمام والعناية بها فى عصرنا الحاضر، ومابعده، بإذن الله تعالى وعونه، لعل أن يكون فيها إشارة، أو برهان لحديث علمى تشير إليه آية قرآنية أو تكون تأكيداً لرواية حديث حوله خلاف.. وهذا المعنى أو غيره، هو مادعائى للأخذ بمثل هذه الإشارات أمثالها، وهذا ماستلاحظه مبعوثنا، فى ثنايا هذا البحث عند قراءته.. بإذن الله تعالى وتوفيقه.. وهنا أعود مرة ثانية لأطلب من كل من أراد أن يقرأ هذا البحث ألا يصدر لى حكم عليه أو له حتى ينتهى من آخر سطر أو كلمة كتبت فيه.. وذلك لأسباب متعددة، من أهمها، إضافة لما سبق كون أفكاره الرئيسية والفرعية متداخلة ومتشابكة بعضها مع بعض، فقد لا تتضح فكرة منه إلا بعد قراءة أكثر أفكاره إن لم يكن جميعها.. ولتكون الكثير من إشاراتنا والتي قد يظنها الكثير غريبة فى دلالاتها، ولذلك قد يزول ماظنه غريباً بقراءة الأفكار التالية لسابقتها - بإذن الله تعالى وتوفيقه - وأيضاً من تلك الأسباب، تلك الصعوبة والمشقة التى عانىناها فى كتابة هذا البحث، إما بسبب طول الفترة الزمنية التى أخذناها فى كتابته، فعلى ماأذكر أننى بدأت الكتابة فيه مع منتصف عام ١٤٠٨ هـ إلى كتابة مقدمته هذه التى بين أيدينا، فى أواخر شهر جمادى الأولى من عام ١٤١٨ هـ .

ويرجع ذلك إما لشح المراجع كما سبق أن أشرنا ومن تلك الأسباب - أيضاً - تكرار فترات الانقطاع عن الكتابة فيه لأسباب وظروف عائلية، وكذلك أسباب وظروف العمل، وغير ذلك كثير جداً، هذه بعض النقاط التى ودنا أن نشير إليها فى مقدمة هذا البحث.. وليعذرنا إخواننا القراء على ماقد يبدو من تقصير، فهذا ما وفقنا الله تعالى إليه، وهنا نعيد ونعلن وندعو ونناشد كل من سيقراً هذا البحث سواء كان متخصصاً أو غير متخصص أن يدلى بدلوه فى هذا الميدان، بل الواجب المقدس لما فيه من خدمة والدفاع عن العقيدة، وعظمة اللغة، ودقتها وإبداعها، واستيعابها لكل جديد ومتطور، وكيف لا وهى لغة القرآن كتاب الله العظيم، الكتاب الذى لا تنتهى عجائبه ولا يشبع منه العلماء.. وإننا على يقين أن إخواننا القراء لديهم الكثير والكثير فى هذا المجال.. وهم لا يحتاجون إلا للتذكير والتوفيق الإلهى.. فعسى أن نكون قد وفقنا - بحمد الله تعالى وعونه - لهذا التذكير والتوفيق - بإذن الله تعالى - حاصل لمن طلب واستمده.

وفى الختام نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن نكون قد أشرنا إلى ومضة وجيزة
ويسيرة من عظمة الإعجاز القرآنى والسنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة
وأزكى التسليم.. ولعلنا - أيضا - نكون - بحمد الله وتوفيقه - قد أدينا بعض الشئ لخدمة
ديننا العظيم وسنة نبينا الكريم محمد بن عبد الله ﷺ.

اللهم إنا نسألك دائما وأبدا العون والتوفيق والرشد، وأن يجنبنا الزيغ والضلال..
والحمد لله رب العالمين.

عبد الرحمن محمد يحيى الرفاعى

٥ جمادى الأولى سنة ١٤١٨هـ

الساعة التاسعة مساءً من ليلة السبت

صباح الأحد ١٤١٨/٥/٢١هـ الموافق ١٩٩٧/٩/٢١م.

الفصل الأول مع الطاقة والخلق الأول

من إشارات الخلق التقديرى

إن الخلق التقديرى هو كل ما قدره الله الحق جل سناه فى علمه - تعالى - أولاً، وغيباً قبل أن يوجد ويتكون هذا المقدر.. وقد كان العالم كله مقدرأ فى علم الله تعالى على هيئة وصفة لا يعلمها غيره - سبحانه وتعالى - حتى أوجدها وأخرجها إلى الوجود على هيئات وأشكال متعددة كما يريد هو سبحانه وتعالى. وفى هذا الصدد يقول أحد العارفين بالله تعالى: «إن هذا العالم وجد على المثال الذى وجد عليه من غير تفصيل.. فهو العلم القائم بنفس الحق - تعالى - فإنه - سبحانه - علمنا بعلمه بنفسه وأوجدنا على حد ما علمنا، ونحن على هذا الشكل المعين فى علمه، ولو لم يكن كذلك لأخذ هذا الشكل بالاتفاق لا عن قصد، لأنه لا يعلمه.

وما يتمكن أن تخرج صورة فى الوجود بحكم الاتفاق. فلولا أن هذا الشكل المعين معلوم لله - سبحانه وتعالى - ومراد له لما أوجدنا عليه، ولم يأخذ هذا الشكل «المميز له» من غيره، إذ قد ثبت أنه تعالى «كان ولا شىء معه».. إذن فمثالنا هو عين علمه بنا سبحانه وتعالى^(١).

هذا بعض مما قاله هذا العارف بالله تعالى.. وفيه تلاحظ أن الخلق التقديرى هو القدر الذى كان ويكون فى علم الله تعالى.. وأن هذا العالم كله ما هو إلا صورة مماثلة تماماً لما هو فى علم الله - تعالى - ولا تخرج عنه. وهذا القول من هذا العارف قد ورد ما يشير إليه إشارات ضمنية فى آيات كثيرة منها مثلاً آية سورة الأعراف وهى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾^(٢) وسوف تأتى حول معنى الخلق «ولقد خلقناكم».

(١) الفتوح المكية: ٢/٢٢٧

(٢) سورة الأعراف آية ١١٠.

إن الخلق فى اللغة عبارة عن التقدير.. وتقدير الله عبارة عن علمه بالأشياء.. ومشيئته لتخصيص كل شىء بمقداره المعين، فقلوه: ﴿خلقناكم﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر فى هذا العالم^(١).

إذن فالخلق الأول هو إشارة إلى علم الله تعالى بالأشياء قبل حدوثها. وهذا الأحداث هو صورة مماثلة لهذا العلم المقدر لا تخرج عنه.. وسوف نلاحظ فى الإشارات التالية ما يشير إلى حقائق هذه المثالية وكيفية خروجها وتكونها أى تقلبها فى صور ومراحل متعددة، وأن هذه المثالية هى تلك الصور الأولى التى تكونت وانطبعت فى (أم الكتاب).. فهذا القرطبى يقول حول قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(٢) يقول: «روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر». وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾^(٣).

إذن فكل هذا العالم ما هو إلا مثال لما كان فى علم الله تعالى ونلاحظ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن ذلك المثال بدأ بإيجاده بأن أودع فى مخازن متنوعة ومتعددة.. فما هى تلك المخازن الغيبية.. وماذا تعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

من إشارات مخازن عوالم الغيوب

يقول ذلك العارف بالله فى أحد كتبه: «أعلم أن الغيب مراتب».

أولاً: غيب الغيوب، وهو علم الله المسمى بالعبادة الأولى.. لوح القدر الإلهى، الذى هو تفصيل قضائه وعلمه - سبحانه - وهو عبارة عن إحاطته بالكل بحضور ذاته لكل هذه العوالم.. لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض.

(١) تفسير الرازى ص ١٤٤

(٢) سورة الحجر آية «٢١».

(٣) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى: ١٤٠ - ١٥/١٠

ثانياً: ثم غيب عالم الأرواح: وهو انتقاش صورة كل ما وجد وسيوجد فى العالم العقلى - النورانى - الذى هو روح العالم المسمى بألم الكتاب على وجه كلى.

ثالثاً: ثم غيب عالم القلوب، وهو ذلك الانتقاش بعينه، مفصلاً تفصيلاً علمياً كليا وجزئياً فى عالم النفس الكلية، التى هى قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.

رابعاً: ثم غيب عالم الخيال: وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة فى أجرامها، معينة مشخصة، مقارنة لأوقاتها على ما يقع بعينه، وذلك العالم هو: المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة^(١).

هذه إشارة سريعة لمستودعات تلك العوالم الغيبية، وإن كان سيأتى بمشيئة الله تعالى لكل هذه الإشارة تفصيل فى أماكن مختلفة بإذن الله تعالى، وترى معنى أن تلك الغيوب تبدأ بأعلاها وقمتها وهو علم الله تعالى الأزل وهو تفصيل قضائى وإحاطته به.. وإشارة هذا الغيب بكل حقيقته وحقائقه يؤكد لها ولنا هذا الحديث، إذ قد رواه البخارى فى باب بدء الخلق - خلق آدم عليه السلام - ومسلم فى نعيم الجنة والترمذى فى آخر كتاب التفسير وهو: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله - قال له ربه: رحمك الله يا آدم، أذهب إلى أولئك الملائكة: فقل السلام عليكم قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربى وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال أى رب ما هؤلاء - فقال: هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه^(٢).. سوف يأتى تفصيل له كامل فى مكان آخر بمشيئة الله تعالى.

إذن فهذا الحديث الجامع على صغره يجلى لنا حقيقة تلك المثالية. حقيقة كون كل هذا الخلق ما هو إلا صورة مثالية لما كان فى علم الله تعالى.. فهذا آدم المخلوق

(١) الفتوحات المكية

(٢) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «صلى الله عليه وسلم»: ٢٩٦ - ٢٩٧/٥.

المكون حينما يبسط له الحق - جل سناه - يديه، فيرى أمراً عظيماً، أمراً لم يكن يتوقعه يرى نفسه طبق الأصل وصور بنييه، شاخصة أمام عينيه، بل وعمر كل واحد منهم، إذن فالإنسانية المحدثة بأكملها وجميع الخلق كانوا صوراً مقدرة في علم الله تعالى وهي التي أودعت في مستودعها الغيبي الآخر والذي سمي بأم الكتاب. فما الإشارات التي تشير إلى عملية هذا الإيداع.. وكيف بدأ أو كان والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وما الكيفية التي بدأ بها إخراج الخلق إلى عالم الوجود الروحاني والنوراني الخالص.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - والحمد لله رب العالمين.

مع أم الكتاب والوجود النوراني الخالص

روى الإمام أحمد والترمذي - وصححه أيضاً - من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً (أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة..). وروى ابن أبي حازم عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة خمسمائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب فقال وما أكتب.. قال علمي في خلقي إلى يوم القيامة».

وهنا روايات كثيرة كثيرة ومتعددة الطرق قد وردت وتنفيذ أن أول الخلق وبدءه هو القلم. وإن كانت هناك روايات أخرى وردت في تعيين مخلوق آخر قبل القلم وهو العرش، وهي كثيرة.. وهناك روايات أخرى تسمى القلم بالعقل أي أن القلم هو العقل.. ورغم كل ما قيل من كلام على طريق رواية حديث العقل وضعفها إلا أن ابن حجر في شرحه لفتح الباري عند تعليقه على قضية الجمع بين الروايات المختلفة حول بدء الخلق يقول: «وأما حديث «أول ما خلق الله تعالى العقل».. فليس له طريق ثبت.. وعلى تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله»^(١).

(١) فتح الباري بشرح ابن حجر: ٦/٣٤٤

إذن فابن حجر لم ينف حديث العقل نفياً مطلقاً.. ومن هنا نعلم أن القلم أو العقل قد كتب في اللوح أو أم الكتاب، كل ما هو كائن وسيكون إلى أن تقوم الساعة.

هذا بعض مختصر عن بداية أول الخلق خروجاً إلى الوجود، وهو ذلك القلم أو العقل على الخلاف.. فكيف كان هذا القلم؟ وماذا أخرج؟ كما يراه أحد العارفين بالله تعالى يقول: أعلم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبلية وإنما ذلك عبارة للتوصيل، تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع. كان - جل وتعالى - في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء.. وهو أول مظهر سرى فيه النور الذاتى، كما ظهر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلما أسبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيمين، الذين هم فوق عالم الأجساد الطبيعية.. فلما أوجدتهم تجلى لهم، فصار لهم ذلك التجلى غيباً.. وكان ذلك الغيب روحاً لهم، أى لتلك الصور، وتجلى لهم في اسمه الجميل فهاموا في جلال جماله - سبحانه وتعالى عما يصفون.

فلما شاء الحق - سبحانه - أن يخلق عالم التدوين والتسطير، عين واحداً من هؤلاء الملائكة الكروبيين، وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سماه - القلم أو العقل - وتجلى له في مجلى العلم الوهيبى، بما يريد إيجاده من خلقه.. فقبل العقل أو القلم علم ما يكون، وما للحق من الأسماء الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقى.. فاشتق من هذا العقل أو القلم موجوداً آخر سماه اللوح.. وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة. وجعل الحق لهذا القلم.. ثلاثمائة وستين سناً في قليميته، أى من كونه قلماً.

وجعل الحق لهذا القلم من كونه عقلاً ثلاثمائة وستين تجلياً أو رقيقة.. كل سن أو رقيقة تفترق من ثلاثمائة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية فصقلها القلم في اللوح.. فعلمها اللوح حين أودعه القلم إياها، فكان ذلك علم الطبيعة.. وذلك كله في عالم النور الخالص^(١).

(١) الفترحات المكية: ٣٥٠ - ٣٥١/٢.

وبالتأمل بهذا الملخص لهذا العارف، نرى أن ذلك الخلق المقدر أزلا في علم الله تعالى والذي رأى آدم نفسه وبنه في اليدين الشريفتين تراه يخرج إلى الوجود النوراني الخالص، صورا نورانية.. بل إن ذلك الغيب أصبح أرواحا تتحرك في تلك الصور.. وهذا يعطينا إنطبعا واضحا عن طبيعة وأصل وصفة ذلك القلم أو العقل، وهى كونه نورانيا خالصا وهى أيضاً الصفة الرئيسية لطبيعة كل ما يوجد في ذلك العالم.. وهذه الحقيقة من ابن عربى، قد جاء فى كتب الشرع الإسلامى، ما يؤكد تلك الحقائق ويسندها بل يعطينا تفصيلاً أوضح وأشمل.

فقد جاء فى جامع أحكام القرآن الكريم للشيخ القرطبى - ما نأخذ منه هذا المختصر - قال: «روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، قال: من اللوح من ياقوته حمراء أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر ملك يقال له ماطريون كتابه نور وقلمه نور، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، ليس فيها نظرة إلا وهو يفصل: يرفع وضعها أو يضع رفيعا، يغنى فقيرا، أو يفقر غنيا، يحيى ويميت ويفعل ما يشاء ولا إله إلا هو.

وقال أنس ومجاهد - رضى الله تعالى عنهما - إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى.. هو فى جبهة إسرافيل عليه الصلاة والسلام.. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش وقيل اللوح المحفوظ، هو الذى فيه الخلق والخلقة وبيان أمورهم وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم والأقضية النافذة فيهم ومآل عواقب أمورهم (وهو أم الكتاب).

وقال بعض المفسرين واللوح شئ يلوح للملائكة فيقرءونه - وهو ذو نور وشرف وعلو - وقال الزمخشري واللوح: الهواء يعنى اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح وجاء أيضا عن قوله تعالى: ﴿ن.. والقلم وما يسطرون﴾.

ن: لوح من نور.. وعن ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ن.. والقلم﴾ هو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض - ويقال خلق الله تعالى القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين فقال: اجر - فقال يارب وبم أجرى - قال بما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ.

هذا بعض مختصر مما جاء عن القلم وسوف يأتي تفصيلاً أكثر بمشيئة الله تعالى، وفيه نرى أن الصفة العمومية للخلق الأول أى الصورة المستسخة الأولى لما كان مقدراً فى علم الله تعالى - إن صح هذا التعبير - والله أعلم بالحقيقة والصواب - والحمد لله رب العالمين - هى الصفة النورانية الخالصة - الطاقة فى عرفنا العصرى - وهذه النورانية واردة فى كل النصوص، فابن عباس رضى الله تعالى عنه وأرضاه يقول: هو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض ويقول عما اشتق منه «واشتق منه اللوح وهو من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر ملك - فكونه معقود بالعرش، والعرش نورانى - إذن فالمقصود من باب أولى أن يكون نورانياً. وشيء آخر أن أسفله فى حجر ملك والملك طبعه وجنسه. بل إن أنس رضى الله عنه يقول إن اللوح فى جبهة إسرافيل عليه السلام^(١) - إذن فأول مخلوق كان نورانى الطبع والأصل وهو القلم وكذلك ما اشتق منه - وإذا كان الأمر كذلك، فطبيعى أن يكون كل ما بينهما - اللوح والقلم - من اتصال وإبداع وما يظهر عنهما أيضاً من صور هى أمور نورانية بحتة، لكونها مستسخة وظاهرة من مكان نورانى. يقول ابن عريى: «إن أول مبدع خلق هو القلم الأعلى.. وكان مؤثراً فيه بما حدث الله تعالى فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه كانبعاث حواء من آدم فى عالم الأجرام، ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب فيه ذلك القلم الإلهى - وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق - تعالى - أدلة عليه، فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثى، كما ورد فى الشرع الحنيف «إن أول ما خلق الله القلم ثم خلق اللوح وقال للقلم: اكتب. قال وما أكتب.. قال: الله تعالى له: اكتب وأنا أملى عليك. فخط القلم فى اللوح ما يملى عليه الحق وهو علمه فى خلقه إلى يوم القيامة.

وجعل الحق - سبحانه - فى اللوح العاقل عن الله تعالى ما أوحى به إليه ثم أوجد الله فيه - أى فى اللوح - صفتين:

صفة علم وصفة عمل.. فبنسبة العمل تظهر صور العالم عنه - أى عن اللوح المحفوظ.. كما تظهر صور التابوت للعين عند عمل النجار فيها «أى بالصفة العملية

(١) القرطبي: ٢٠ / ٢٩٨.

يعطى النجار الصور». والصور على قسمين:

صور ظاهرة حسية وهى الأجرام وما يتصل بها كالأشكال والألوان... إلخ.

وصور باطنة معنوية غير حسية وهى ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات ويتلكما الصفتين ظهر ما ظهر من صور العالم.

فالصفة العلامة (أب) فإنها المؤثرة والصفة العاملة (أم) فإنها المؤثر فيها وعنها ظهرت الصور^(١).

هذا بعض موجز وملخص لإشارة وجود أول الخلق، كما أشار إلى ذلك بعض أصحاب النقل من صحابة وتابعين وبعض أهل الفكر الإسلامى من العارفين بعلوم الإسلام.. وفيه نلاحظ أنها تبرأ - أى تلك الإشارات - بالعلم الأول، وهو علم الله تعالى الذى استسخ منه الاستساخ الكلى، أى الصور الكلية الكاملة لكل ما سيوجد وهو أصول كلى الأشياء، ولكنها بشكل كل، وبنورانية خاصة وهو «أم الكتاب»، ثم استسخ منه لوح آخر وبنورانية أخرى اتصاله مباشرة بأم الكتاب المرتبط مباشرة بعلم الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو نسخة مطابقة كما فى «أم الكتاب» ولكنه بشكل مفصل تفصيلاً علمياً كلياً وجزئياً، أى أن كل كائن موجود فى هذا اللوح - الشريعة - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بشكله الكامل المفصل وبشكله المجزئ تجزئاً دقيقاً لكل الخلائق ودقائقه من تفصيل لكل هذه حقائقه من أعمال وأرزاق.. إلخ. مع ملاحظة أن كل من فى هذا اللوح من موجود هو وجود حركى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم انسخ من اللوح لوح آخر - هو بعينه اللوح الأول، فيه كل ما فى سابقه وبنورانية أقل، وأظن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - هو المعبر عنه بالسماء الدنيا، أو الكتاب المبين، وهو كتاب خزائن الأشياء المنزلة إلى الأرض وتلاحظ من خلال ذلك النزول اليسير

(١) الفتح: ٢/٢١٣

الذى أوردناه سابقاً، ما يثبت أن ذلك الكتاب وما يتفرع عنه من كتب وألواح، هو شئ نورانى، طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأن القلم الذى يكتب به فى تلك الألواح، هو أيضا شئ نورانى بل وكل ما فيه، وقراءته وكتابته «وما يسطرون» هى أشياء نورانية، وأن ما يدخل فى تلك الكتب ويخرج هى أمور من نوعها وجنسها، ومن هنا كانت تلك الكتب وما يرتبط بها من أمور هى أمور نورانية، لأن كل الموكلين بها هم وأدواتهم من جنسها.

وبالتأمل فى هذه الإشارات جميعها نجعلنا ننطلق بقوة لأن نضع كل تلك الإشارات وما سيرد بعدها بمشيئة الله تعالى تحت مسمى رمز علمى عظيم كما سنرى ذلك بمشيئة الله تعالى. وذلك لأننا سنجد من خلال كل ذلك إشارات علمية بحتة، قد نعتبرها بحق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الأسس والأصول لوضع واكتشاف علم الكمبيوتر وعلومه وحقائقه قبل مئات القرون.. لكى نعلم من كل ذلك مدى إبعادنا عن علومنا وتراثنا العلمى والفكرى، واستفادة من أبعادنا عنها منها.. وشوهها فى نظرنا ورسمها لنا فى صورة تتفر العالم اللبيب قبل طلاب العلم المبتدئين، ككتب بعض الصوفيين المعتدلين كالقشيري والجنيد وابن عربى فى بعض كتبه لا كلها.. ولا تعجب ولا تستغرب من إيرادى لفظ الكمبيوتر، فقد ورد عن بعض علماء التفسير والفكر الإسلامى ما قد يزيل وجه العجب والغرابة عما أشرت به آنفا. أقول قد ورد عنهم مثل قولهم: «إن الله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوه فى الدنيا، ومثل هذا جاء فى جامع أحكام القرآن للقرطبي وغيرهم كثير»^(١).

وهذا يعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه سبحانه وتعالى أوجد فى الدنيا أشياء وإشارات تشير لبعض الأمور الغيبية، من أجل التثبيت واليقين، ومن هذه المشاهد فى دنيانا اليوم - قد تكون الإشارة لمثل هذا الكتاب والألواح - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - علم

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٠ / ١١٤.

الكمبيوتر.. وليس هو بذاته طبعاً، وإنما هي إشارة تقريبية لمثل ذلك - والله تعالى أعلم - فهذا اللوح - أم الكتاب - وما تفرع عنه من نسخ اختصاصية - والله تعالى أعلم - مبرمج فيها كل الأشياء.

ففى دنيانا اليوم أجهزة تحول كل شىء إلى نبضات كهربية، ويجرى برمجتها داخل هذا الجهاز سواء كانت أجزاء مفصلة أو كل كاملة.. وكل ما يختص بهذه الأشياء، وقد تحولها إلى العكس.. وقد رأينا أن هذا الكتاب، فيه كل أصناف الخلق والخلقة.. وبيان أمورهم وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكل ما يرتبط بهم.

وإذا كنا قد رأينا أن هذا الجهاز تسجل برامجه فى ذرات دقيقة جداً جداً، أو ما تسمى بالرقائق علمياً - بحيث يتم ادخال قضايا كثيرة، وكل ما يرتبط أو يتفرع لتحفظ بالأمكنة الخاصة بها لتستدعى عند طلبها.. فقد رأينا أن هذا الكتاب الأم (أم الكتاب) ترتبط به كتب كثيرة فرعية وألواح اختصاصية، فهناك كتاب الموت والآجال وما يرتبط به، وهناك كتاب الأرزاق وما يرتبط به، وكتاب أجزاء الأشياء وتفصيلاتها وما إلى ذلك.. وقد رأينا بعض الإشارات لذلك، وسوف نورد بعض التفاصيل لذلك بمشيئة الله تعالى.. ولكن قبل ذلك نود أن ننبه أن جهاز الكمبيوتر كله طاقة ولا يقبل فى كل تعاملاته إلا الطاقة، وكل ما يحفظ فيه ويؤخذ منه فهو طاقة.. بل إن هناك من يترجم هذا المصطلح الأجنبى - الكمبيوتر والعقل الآلى.

وقفرة سريعة بين مكونات (أم الكتاب) والكمبيوتر

وإشارة العقل هنا تعطينا رمز حقيقة ما سبق أن قلناه آنفاً، ويستحسن أن نرجع هنا قليلاً إلى الوراثة لحقيقة تلك الإشارة الخلافية بين رواة أهل الحديث الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم - وبين مخرجى الأحاديث ومحققها. فالرواية يوردون حديثاً يشير إلى القلم بلفظ العقل وبعض المحققين يضعفون تلك الرواية، وبعضهم يؤكد على صحة رواية هذا الحديث. ولكن بعضهم يتوسط فى الأمر كابن حجر فى كتابه فتح البارى بشرح صحيح البخارى - الذى أشار إلى هذا الخلاف وخلاف أيهما أسبق فى الخلق - العرش أو القلم. فإنه يقول «يجمع بين أحاديث خلق

القلم أولا وأحاديث خلق العرش أو الماء... إلخ. وذلك أن يجمع بينها بأن يقال: إن أولية خلق الله القلم هو بالنسبة إلى ماعدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة أى أنه قيل له أكتب أول ما خلق.. وأما حديث «أول ما خلق الله العقل» فليس له طريق ثبت.. على تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله والله تعالى أعلم^(١).

وتقدير هذا الثبوت من ابن حجر يوضحه لنا الشيخ ابن عربى قليلا فيقول وهو يتحدث عن بدء الخلق «إن العقل الأول الذى أول مُبدع خلق، هو القلم الأعلى.. وذلك أنه - سبحانه - لما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عين واحدا من أولئك الملائكة الكروبيين وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور فأسماه العقل والقلم تجلى له - سبحانه - مجلى التعليم الوهيبى بما يريد إيجاد من خلقه فقبل العقل بذاته علم ما يكون.. ثم علم أن الله تعالى لما خلق القلم واللوح، سماهما العقل والروح. وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لهذا القلم ثلاثمائة وستين سنا فى قلميته أى من كونه قلما.. وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لهذا القلم من كونه عقلا ثلاثمائة وستين تجليا أو رقيقة، كل سن أو رقيقة تفترق من ثلاثمائة وستين صنفا من العلوم الإجمالية، فيفصلها القلم فى اللوح^(٢).

إذن فابن حجر حينما يقول فهذا التأويل يعتبر تقديرا لحديث رواية العقل ويأتى الشيخ ابن عربى ليؤكد ويجلى لنا كيفية هذا التأويل بصورة أوضح. فرواية القلم هى صحيحة وذلك باعتبار قلميته من كونه قلما معدا للكتابة، ورواية العقل أيضا هى صحيحة إذ القلم هو نفسه العقل لأن القلم محتاج إلى العقل والوعى والإدراك والفهم وتقبل ما يؤمر به، ولذلك يقول: لما شاء سبحانه وتعالى أن يخلق عالم التدوين والتسطير إذن فالتدوين والكتابة والتسطير تحتاج إلى القلم، فجاءت صيغة القلم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولما كان هذا القلم يختلف عن غيره من القلمان رأيناه يقول: «عين واحدا من أولئك الملائكة الكروبيين»

(١) فتح البارى - لابن حجر: منقول باختصار وتصرف: ٦/٢٣٤.

(٢) الفتوحات المكية: ٢٥٠ . ٢/٢٥١.

إذن فهو ملك روح، حى لذلك سماهما بالعقل والروح. ومادام هو ملكا فهو محتاج إلى العقل لتقبل الأمر، إذن فقد جعل فيه عقلا من أجل تلك المهمة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك قال (تجلى الحق - لذلك القلم فى مجلى التعليم الوهيبى بما يريد إيجاده من خلقه، فقبل العقل بذاته علم ما يكون...) إذن فلا تعارض بين رواية العقل ورواية القلم، ولا تضعيف لرواية العقل على ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ومن هنا ندرك حقيقة تلك الرمزية بين ترجمة مصطلح اللفظ الأجنبى (الكمبيوتر) بالعقل الآلى - وبين رواية القلم والعقل، إذ العقل الآلى - الكمبيوتر - اليوم يتقبل الأوامر أخذاً وعطاءً - طبعاً لا مقارنة ولا مشابهة بينهما - وذلك القلم والعقل يتقبل الأمر أخذاً وعطاءً مع الفارق الضخم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والكمبيوتر - العقل الآلى اليوم - هو شئ نورانى - طاقة - فى كل أخذه وعطائه كما هو معروف - ورأينا ذلك فيما ورد أن ذلك القلم والعقل هو ملك نورانى مخلوق وفى طبيعة نورانية عالية لا يعلم حقائقها إلا خالقها.. ومعلوم أن العقل هو شئ نورانى بل وكل ما يحفظ فيه هو أيضاً شئ نورانى كذلك.. وقد جاء فى لغة العرب (العقل: مشتق من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه مما لا يليق أو من المعقل، وهو الملجأ).

والعقل: العلم.. وفى حواشى المطالع العقل: هو جوهر مجرد عن المادة، لا يتعلق بالبدن تعلق التدبير بل تعلق التأثير.. وفى العقائد النسفية أما العقل: فهو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات وهو المعنى بقولهم غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات.. وقيل: هو جوهر يدرك به الغائبات بالوسائط والمشاهدات.

وفى المواقف قال الحكماء: الجوهر إن كان حالاً فى آخر - أى فى جوهر آخر - فهو صورة وإن كان محلاً لها فهوى وإن كان مركباً منهما فجسم وإن كان متعلقاً بالجسم تعلق التدبير والتصرف فنفس، وإلا فعقل.

وقال قوم: «العقل قوة وغريزة أودعها سبحانه وتعالى فى الإنسان ليتميز عن الحيوانات بإدراك الأمور والحق أنه نور روحانى يقذف به فى القلب أو الدماغ تدرك به النفس العلوم»^(١).

إذن فلغة العرب تثبت لنا حقيقة ما رمزنا إليه فهو من حيث الطبيعة نورانى روحانى، والعقل والقلم.. هو أيضا ملك نورانى روحانى، وهو العلم لأنه قبل علم الله تعالى حينما أودعه فيه وكلاهما من جنس وطبيعة واحدة. فالعلم هو شئ نورانى، والعقل كذلك.. وإن قلنا إنه جوهر، فلأنه نور وضع فيه نور، والكل صورة من علم الله تعالى وضعت فى هذا المخلوق النورانى، إذن فهو صورة لما كان مقدراً فى علم الله تعالى. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. إذن فالقرب بين هدف العقليين العقل الآلى، والعقل القلم واللوح لتقريب الفهم فقط، وإلا لا مقارنة بينهما أصلاً. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. لا يبعد، من حيث حفظ وإيداع الأشياء والتسجيل... إلخ. ولكن شتان بين العقليين واللوحيين، إذ ذاك خلق إلهى، وهذا تركيب إنسانى، فهذا روح حى مدرك فاهم فى أخذه وعطائه، وذاك آلى مسير فى كل شئ. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهذا شئ وشئ آخر أنا نلاحظ مما ورد إشارات لبعض مكونات ذلك القلم واللوح.. إذا رأينا. كما سبق. أنه قد روى: «عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قوله: اللوح من ياقوتة حمراء.. كتابه نور، وقلمه نور..»، وقال بعض المفسرين «اللوحة شئ يلوح للملائكة فيقرؤونه، وهو ذو نور».

وقال الزمخشري: «اللوحة.. الهواء، يعنى أن اللوح فوق السماء السابعة، التى فيها اللوح»^(٢).

هذا بعض ما قاله بعض علماء التفسير، وإذا نحن رجعنا لكتب اللغة فنظنها لا تخرج معانى اللوح فيها عن هذه المفاهيم والدلالات والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

(١) تاج العروس ٢٥ - ٨/٢٦.

(٢) القرطبي: ٢٩٨ - ١/٢٩٩، ومثله فى الطبرى وابن الأثير والرازى..

إذن فذلك القلم أو اللوح هو كونه من ياقوتة حمراء.. ومعلوم أن الياقوت والألماس والزمرد والزبرجد معادن ثمينة، وهى من أهم مكونات التقنيات الحديثة، وعلى رأسها الكمبيوتر - العقل الآلى - ومع ذلك لا نقول أن هذه الياقوتة هى مما نعهده من هذه المعادن - ولكننا نقول: إن ما نعهده من هذا الياقوت والمعادن الثمينة إنما هى ذرات مستنسخة متحولة من تلك الياقوتة الأصلية فوق، لكون كل ما فى هذه الأرض هو مأخوذ أصلاً من تلك الأصول الموجودة هناك. إذن فعناصر هذه المعادن جميعها ومنها معدن الياقوت مأخوذ من عنصر تلك الياقوتة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كغيره من معادن الأشياء.. ولا نذهب بعيد إذ قد نجد ما يؤكد مثل هذه الحقائق مما أخبر به النبى ﷺ فى رحلته ليلة الإسراء والمعراج وما شاهده هناك فى السموات العلى وفوق سدره المنتهى.

فمن تلك المشاهد «ما وقع فى حديث شريف كما عند البخارى فى التوحيد «أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى السماء الدنيا نهريْن يطردان، فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: «هما النيل والفرات عنصرهما»^(١).

إذن فقوله صلى الله عليه وسلم «عنصرهما» أى أن النهريْن اللذين رأهما ﷺ فى السماء هما أصلان لهذين النهريْن الموجودين فى الدنيا أى نهري النيل والفرات، إذن فأصل الأشياء جميعها الموجودة فى هذا الكون هى أصلاً موجودة فى العقل الأول - القلم واللوح - ثم استنسخت فى ألواح متعددة كما سبقت الإشارة السريعة إلى ذلك - سوف تأتى مفصلة بإذن الله تعالى - وهذا أمر يؤكد القرآن الكريم نفسه - كما سبق ذلك - كما فى قوله تعالى: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

إذن فالقرآن يثبت هذه الخزائن للأصول، ويثبت هذا الاستيذاء لها والاستنساخ منها وهذا الاستنساخ منها تؤكد - كما سبق - تلك الرواية المروية عن «جعفر بن

(١) المواهب اللدنية للقسطانى: ٧٠.

محمد عن أبيه عن جده أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر»، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾^(١).

إذن فجميع هذه المعادن الموجودة في الكون ومنه الأرض إنما هي آتية من هناك، من أعلى، من خزائنها وأصولها - والله تعالى أعلم بالحقيقة - وليس هذا فحسب، بل إننا نرى العلم الحديث في عصرنا الحاضر يجلى لنا هذه الإشارة بشكل تحليلي تجريبي لا يبعد كثيرا عن مدلول ومفهوم الآية القرآنية السابقة من أن كل شيء أت من أصوله من أعلى من هناك - من أم الكتاب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وحول هذا المفهوم من علم الحديث رأيان لا يخرجان عن جو المدلولات القرآنية، وجميعها لا يخرج عن مدلول ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، فمع الرأي الأول.

مع الرأي العلمي الأول ومدلوله

وأصحاب هذا الرأي «يعتقدون أن للكون كانت بداية تقدر بخمسة عشر مليار مليون عام تقريبا - والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك - وكانت تلك البداية على هيئة سحابة غازية ذات حرارة عالية ثم حدث انفجار مروع في تلك الكتلة الغازية فتفككت وتبعثرت أجزاؤها في الفضاء الكوني. وبالاخفاض التدريجي لدرجة حرارة تلك الغازات هبطت سرعة جزيئاتها وأخذت تتقارب من بعضها وتتلاصق، وبهذا تحول السديم الدخاني إلى كتلة صلبة هي ما تعرف الآن باسم المجرات والكواكب».. يقول تعالى: ﴿أو لم يرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ وقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾.

ويضيف الدكتور المحجری في كتابه عن القرآن والعلم بأن الأرض قد انفصلت عن المجموعة الشمسية منذ آلاف السنين تقريبا، وباستمرار انخفاض درجة حرارتها أخذت عناصرها المادية في التمييز حسب ثقلها ووزنها الذري، فظهرت العناصر

(٢) القرطبي: ١٥/١٠.

الخفيفة مثل الهيدروجين والهليوم، والعناصر الأثقل مثل الكربون والنيتروجين والأكثر ثقلاً مثل السليكا والألومنيوم وغيرها.

وقد انتظمت تلك العناصر في طبقات حسب وزنها، فالعناصر الخفيفة كانت المكون الرئيسي للغلاف الجوى للأرض أما العناصر الثقيلة كالحديد والنيكل والرصاص والمواد المشعة فترسبت في قشر الأرض وجوفها لتكون مادة المعادن والصخور^(١).

هذا موجز مما يقوله أصحاب الرأى العلمى الأول، وفيه نلاحظ أنهم لا يخرجون عن مدلول الجو القرآنى العظيم والذي يشير إلى أن هذه الأرض وكل ما فيها إنما هو من نفس ما فى السماء لا يخرج عنه وبالدليل القرآنى، لذلك يوردون الآية القرآنية التى تشير إلى مفهومهم إذن فأصل ما فى الأرض من معادن إنما هو فى السماء وما فى السماء هو جنس ما فى الأرض ويأخذ فى تحولات وتقلبات مختلفة ومتنوعة حسب ظروف وبيئات ما هى فيه ومخازنها التى هى فيه ﴿وان من شئ إلا عندنا خزائنه﴾^(٢).

ولذلك نرى أن ما سيورده أصحاب الرأى الثانى لا يخرج عن هذا الإطار والمدلول العام فهم يقولون: مع الرأى الثانى ومدلوله:

«باعتماد أن الجزيئات العضوية - وغيرها - قد نشأت بفعل التفاعلات الكيميائية بين الغازات المختزلة فى الغلاف الجوى تحت تأثير الشحنات الكهربائية المتولدة من البرق وبفعل الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الشمس، ثم هبطت تلك الجزيئات العضوية، وغيرها مع الأمطار التى أخذت تهطل باستمرار وبغزارة لملايين السنين من السحب التى تكاثرت فى الغلاف الجوى، وبهذا تكونت البحار والمحيطات وبها بذور الكائنات.. إلخ».

(١) التطور والأصل الإنسان من منظور إسلامى ص ٨٥.

(٢) الحجر ٢١.

هذا بعض مختصر مما قاله أصحاب الرأى العلمى الثانى ونرى أن مدلوله يتفق مع المفهوم والمدلول العام لقوله تعالى: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾.. ونرى فيه بعض الإشارات التى توضح كيف أن هذه الأشياء أخذت تتحول وتتغير بعد أن استسخت من أصولها وعناصرها الرئيسية فوق، وما العوامل التى جعلها الحق جل سناه لأن تؤثر فى هذه الأشياء حتى تتغير لتتلاءم مع جو محيطها وظروف بيئتها الجديدة بأمر الله تعالى - سبحانه وتعالى - وإذا كان اللوح المحفوظ هو من ياقوته حمراء كما ورد سابقا، وقلنا ما قلناه حول ذلك بفضل الله تعالى ورحمته .. فمن المعلوم أن من مثال هذا المعدن والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الموجود فى الدنيا، طبعاً لا مقارنة ولا مشابهة، وإنما لتقريب الفهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تتخذ الواح هى من الأساسيات الرئيسية فى الصناعات والتقنيات الحديثة ومنها بالطبع جهاز الكمبيوتر - العقل الآلى - وذلك لقابلية هذا المعدن وما يشتق منه من ألواح، للتعامل مع قضايا الطاقة وخباياها. وذلك أن هذه الطاقة هى الأساس الرئيسى فى عمل وتعامل هذه الأجهزة الكمبيوترية من كتابات ونوعيات حروفها وسطورها وتحويلها للماديات المراد إدخالها بها لتخزينها إلى طاقة لتخزن داخل ذرات خلايا ما بها من ألواح. وهذه أمور معروفة معلومة فى عالم الكمبيوترات.. وقد رأينا أن «اللوحة المحفوظة» كتابه نور.. وقلمه نور.. حتى فيما يرسله للألواح الفرعية الأخرى المأخوذة منه، كتلك التى مع الملائكة. أى أن كل ملك معه كتابه - لوحه - الذى يخصه ليأتيه فيه ما يخصه من عمل خلال يومه أو سنته - وسوف يأتي ذلك بشكل أوسع بمشيئة الله تعالى وفضله وحمده - فقد رأينا فيما روى حول: «اللوحة المحفوظة - أو أم الكتاب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين» أن العلماء قالوا: «إنه سمي اللوح لأنه شئ يلوح للملائكة فيقرؤونه، وهو ذو نور»^(١).

فقوله شئ يلوح أى يلمع، واللمعان يكون للبرق ومن البرق، والبرق طاقة. إذن فذلك الشئ الذى يلوح به للملائكة، سواء كان أمراً أو إنزال أرزاق أو غيرها، ولكن

(١) التطور والأصل. الإنسان من منظور إسلامي

هذا التلويح المرسل من المركز الرئيسى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إلى تلك الألواح الفرعية - من أوامر وأرزاق وغيرها - لا يزال على حاله أصل عناصره النورانية حسب تحولاتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

مع إشارة الموجات والبث والإرسال عبرها

ولذلك سنرى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن ما يرسل من المركز الرئيسى - أم الكتاب أو اللوح المحفوظ - إلى تلك الفروع، إنما يرسل عبر وسيلة من جنسه: أى أنها وسيلة نورانية، أو حسب تعبيراتنا اليوم - الموجات الكهرومغناطيسية - ولكنها من جنس قوة عناصرها الأصلية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقولنا بالموجات، ليس قول هوى منا - نعوذ بالله تعالى من ذلك - بل هناك ما يؤيد ويؤكد ما قلنا به - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذ هناك قولان وردا يؤكدان ذلك:

الأول: «وهو ما جاء فى آخر النص السابق من أنه شرف ونور وعلو.. وما قاله وفسره الزمخشري اللوح بالهواء، يعنى اللوح فوق السماء.. وفى اللغة رأيانهم يقولون: اللوح.. الهواء نفسه.. إذن فهو نور، ونوره هذا هو فى الهواء. ومادام الهواء هو الذى يحمل هذا النور فلا بد أن يكون من جنسه أو أن فيهما تناسباً وتقارباً.. بل العلم اليوم يقول إن الهواء نوع من أنواع الطاقة. إذن فالإرسال النوراني يتم عبر هذا الهواء، والعلم الحديث يعبر عن هذا الإرسال بمصطلح الموجات. وهذا المصطلح عندما يحل نجاه لا يخرج عن هذا المفهوم. ولم نذهب بعيداً، فهذا حديث رسول الله ﷺ المعجز فى لغته وبيانه وعلمه يعبر عن ذلك بلفظ الموجات صراحة لمن أراد أن يتأمل ويعى ويفهم فقد روى الترمذى: «عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحب، فقال نبي الله ﷺ هل تدرون ما هذا؟.. فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا العنان، هذه روايا الأرض يسوقه الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه. قال: هل تدرون ما فوقكم؟.. قالوا:

الله ورسوله أعلم: قال: فإنها الرقيع^(١) سقف محفوظ، وموج مكفوف» والحديث طويل جدا، نكتفى بهذا^(٢).

وبالوقوف عند هذا الحديث نلاحظ أن رسول الله ﷺ أشار في بداية الحديث إلى لفظ السحاب، ثم أشار إلى العنان، وبعد ذلك الإجمال جلى ووضح وفصل ما ذلك العنان والسحاب «الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف» إذن فسحاب هو موج منتشر في هذا الفضاء الرحب، موج يحمل الأوامر والنواهي وكل ما يبعث ويرسل من مكانه الرئيسى ويوصلها إلى فروعها واختصاصها لكونها من جنسه ومن طبيعته . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . إذن فهذا نص صريح فى أن السماء الدنيا هى طاقة بل موجات متنوعة من أنواع هذه الطاقة المتنوعة التى لا يعلم كل حقائقها إلا الله تعالى خالقها . سبحانه وتعالى . وإذا كان هذا السحاب هو العنان، والعنان هو موج مكفوف أى مكفوف شرها وأذاها من أن يلحق بالخلق . وهذا سبق وإعجاز علمى لحديث رسول الله ﷺ فى قضايا الطاقة والموجات وآثارها الإيجابية والسلبية .. وإشارة الموجات والبث والإرسال عبرها هى حقيقة فى هذه السموات جميعها وما بينها من خلق ومخلوقات .. وهذه الحقيقة التى أشار إليها الحديث الشريف السابق «السماء موج مكفوف» وتقريب الرسول ﷺ وتوضيح هذا الموج بالعنان .. نرى رسول الله ﷺ يؤكدها بالحديث التالى، والحديث تؤكد وتجليه بعض آيات القرآن الكريم .. فلتعش مع الحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل السلام وأتم التسليم ومع الآيات القرآنية الكريمة وقبل أن أشير إلى الحديث الشريف والآية القرآنية، أود أن أرجع إلى الجو الذى عشته قبل أن أصل إلى ما أرانى ألهمته حول ذلك من خواطر .. كنت دائم الرحلة مع كتاب الله العزيز وكنت دائم التوقف عند آية قرآنية كلما وصلت إليها، وذلك أن توقفت عندها يجبرنى إلى أن أعود إلى كل ما قيل عنها . ولكن رجوعى هذا يزيدي حيرة واندفاعاً أكثر، ما

(١) الرقيع : اسم السماء الدنيا .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٥٩ .

يجول فى نفسى ويموج فى فكرى وقلبى من خواطر تزداد يقينا بما يموج فيها . ولا يعنى ذلك أن ما أرجع إليه ليس فيه ما يدل على توضيح بعض دلالات تلك الآية الكريمة.. لا والله بل فى ذلك الخير كله والزاد كله، بل كان ما أرجع إليه يزيدنى يقينا ويفتح باب الأمل أمامى لما فى خاطرى. وذلك لأننا نعلم أن القرآن الكريم دائماً ماض وحاضر ومستقبل الدلالات والإيحاءات والظلال. وهذا أمر من سمات إعجازه إذ أنه يعطى كل زمان ومكان ما يناسبه ويلائمه من فتوح وكشوف وأسرار قد لا تلائم ماضيه أو مستقبله ولكنها مفتاح وتمهيد لما سيأتى لنفس الدلالة مستقبلاً. ولنعد لنعيش مع واقع تلك الآية القرآنية إنها قوله تعالى: ﴿قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيماً﴾^(١).

هذه هى الآية القرآنية، وتراها تشير إلى أن الذى أنزل القرآن هو الذى يعلم السر فى كل شىء.. هنا يأتى التوقف، تكمن الحيرة. تكون عند قضية السر.. إذ يا ترى أى سر هو المقصود فى ذلك.. إذ عندما ترجع إلى امهات التفاسير تجدهم يشيرون إلى أن المقصود بالسر فى الآية هو الذى ضد العلن.. وهنا لا حجر على ما أشاروا إليه، قد يكون ذلك واردا ضمن الدلالات التى تحملها الآية، ولكن حينما نقرأ الآية التى قبلها تعود إلى التوقف مرة أخرى، أى أن هناك إشارة قد تكون هى المقصودة أكثر. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وذلك أن ما قبلها هو قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾.

هذا قبل الآية المذكورة ولكنك تجد أيضاً أن ذلك كله يرتبط بأول آية فى السورة نفسها وهو قوله تعالى: ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾^(٢).

(١) الفرقان: آية: ١٦.

(٢) الفرقان: آية ١١.

إذن فالآية هي رد قوى على الكفار فيما قالوه، إذ اتهموا الرسول ﷺ بأن القرآن الذى يتلوه إنما هو إفك وكذب يأخذه من أساطير الأمم السابقة، أو أنه إفك يأخذه عن طريق قوم آخرين أو يأتيه به الشياطين والعياذ بالله تعالى من ذلك.

فأراد الحق جل سناه أن يبين للكفار - أن ما يسمعه الشياطين له طرقه الخاصة وأن ما ينزل به الوحي على رسول الله ﷺ له طريقه الخاص الذى لا يجروا أحد أن يقرب منه، لأنه سبحانه وتعالى هو الوحيد الذى يعلم ويعرف السر فى خلق السموات والأرض، سر صنعها ومادتها وتركيبها وطريقها والتعامل معها. وإن هناك طريقاً لا يستطيع أحد أن يقترب منها لأن طاقتها تحرق من يقترب منها.. إذن فالسماء موجات متنوعة وقدرات مختلفة. وهذا ما سيشير إليه الحديث الشريف على صاحبه ألف صلاة وأتم تسليم. وآيات آخر سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾^(١).

توضح هذه الآيات لنا أن الشياطين يتلقون السمع، أى أنهم يستقبلون بعضاً مما يتم إرساله إلى الملائكة من المركز الرئيسى إلى الفروع كل فيما يخصه أو الحديث الذى يدور بين أولئك الرسل الموكلين بتلك الاختصاصات.. والحديث الشريف سوف يوضح لنا بعضاً عن كيفية هذا الإرسال والاستقبال، وكيف يتم بينهم وكيف يؤخذ - يسترق - وقبل ذلك نود أن نشير إلى أن جنس هؤلاء الملائكة كما سبق من أنهم مخلوقون من نور أى من طاقة، وأن الجن والشياطين أيضاً هم مخلوقون من طاقة، وقد سبق أن عملت كتاباً مستقلاً بذلك «الجن بين إشارات القرآن وعلم الفيزياء». فإذا كان من يرسل إليه هو طاقة ومن يسترق السمع هو طاقة، فحتماً أن يكون الموصل بينهم جميعاً من جنسهم.

هذا هو الحديث الشريف على صاحبه أفضل صلاة وأتم تسليم: «قال: وقال الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة

(١) سورة الشعراء: ٢٤٠ - ٢٤٣.

عن عائشة رضی الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: الملائكة تتحدث فى العنان. والعنان الغمام. بالأمر يكون فى الأرض فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقرأ القارورة فيزيدون معها مائة كلمة...».

هذا هو الحديث وترى أن الرسول ﷺ يشرح لنا كيف أن الملائكة حينما تتحدث، وأين يكون حديثها، إنه فى العنان، والعنان هو الغمام، والغمام هو طاقة متأتية متحولة^(١)، والسحاب موصل لذبذبات الصوت المنتشرة بين الملائكة، والمركز الرئيسى فتقوم الشياطين وهى من جنس تلك الطاقة مع الاختلاف فى الخواص والتأثيرات والقدرات. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. باختراق بين كل تلك الموجات إرسالا واستقبالا، وهذا الاختراق معلوم ومعروف فى كل الأوساط العلمية الفيزيائية. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهذا سبق للقرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ.. وهذا الاستراق من قبل الشياطين والعياذ بالله تعالى منهم. والملقى إلى الكهنة، هو الذى يقصده الكفار بقولهم ﴿بل هو إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. فقد جاءوا ظلما وزورا﴾^(٢) كما جلت ذلك آية الشعراء وهى قوله تعالى: ﴿يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ هذا الاستماع الذى يسترقون من أحاديث الملائكة المنتشرين العنان هو الذى يلقونه إلى الكهان. وهو ما قصده بنسبة القرآن الكريم إليه. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. فرد عليهم الحق. على الكفار بأن ما يقولونه هو بعينه الكذب والبهتان، وذلك أن من ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ هو الذى يعلم السر الأساسى الذى تقوم عليه خلقه السماء التى يصعد إليها الشياطين للاستراق، فإذا كان الشياطين يسترقون ما يدور بين الملائكة من أحاديث الأوامر المرسلة إليهم، فلأن الملائكة طاقة مخلوقة والشياطين أيضاً طاقة مخلوقة فهم مثلهم وإن كانوا أقل قدرة من طاقة خلق الملائكة. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب

(١) فتح البارى ابن حجر: الحديث رقم (٣٢٨٨) ص ٣٨٩/٦

(٢) الفرقان: ٤ - ٥.

والحمد لله رب العالمين - لكن القرآن الكريم هو طاقة ولكنها مختلفة تماما عن كل ذلك، إذ هو كلام الحق الخالق جل سناء، فلأن الملائكة الذين يسترق كلامهم، ولا الشياطين الذين يسترقون ذلك الكلام يستطيعون تحمل طاقة هذا الكلام المنزل لاستراقه أو حتى الجسور على الاقتراب منه. ولذلك تلاحظ أن الملك الذي خلق لإيصال هذا الكلام - القرآن الكريم - إلى الرسول ﷺ هو ملك معد إعدادا خاصا، لذلك فهو من المقربين، الملائكة العالين - وهو جبريل عليه الصلاة والسلام.. وأيضا له طريقته الخاصة لنزوله حينما يكون معه القرآن الكريم، لذلك فلأن بقية الملائكة الأخرى لا تستطيع الاقتراب منه أو حتى رؤيته عليه الصلاة والسلام ولا الشيطان. نعوذ بالله تعالى - فهم لا يستطيعون الاقتراب منه أو رؤيته إذ لا طاقة لهم بذلك ولا يستطيعون حتى سمع ما يقوله في الأرض لرسوله محمد ﷺ، وكل ذلك بنص القرآن الكريم نفسه، يقول تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون﴾^(١).

إذن فهم لا يستطيعون سماعه، لأنهم معزولون عنه، ولا يستطيعون حتى مقاربتة. إذن فالسماء الدنيا، الدنيا كلها موجات مكفوفة الأذى عن الإنسانية مسخرة لأداء أوامر الله تعالى إرسالا واستقبالا بين السموات والأرض، ثم إن هناك إشارة أخرى في لفظة العنان حينما ترد، قد يقصد منها إلى جانب المفهوم الذي يصرح به من ورائها، فهي في الحديث إلى جانب مفهوم الغمام، والغمام في السماء، واللغة تقول: «العنان: قد يأتي ويكون من مقاصده جوانب السماء ونواحيها أو ما بدا لك منها إذا نظرتها..».

إذن فالغمام موصل لذبذبات أصوات الملائكة المنتشرين في جوانب السماء ونواحيها عبر موجاته المنتشرة بينهم أيضا.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. وحينما ترسل الأوامر من أم الكتاب إلى جميع تلك الكتب المتفرقة مع أولئك الرسل - الملائكة - المنتشرة بين السموات والأرض كل فيما يخصه

(١) سورة الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢..

سواء كانت الإرساليات نشرات عما سيكون فى خلال ساعة أو يوم أو أسبوع أو شهر أو السنة جميعها، فهى ترسل إليهم عبر تلك الموجات المكفوفة المنتشرة بين السموات والأرض - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذ هى أقرب إلى الطبيعة وخواص ذلك الكتاب الأم، وكل ما تفرع منه، ويرسل منه إليهم جميعا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك رأينا جل المفسرين وأهل اللغة حينما أرادوا أن يفسروا معنى «اللوح المحفوظ» قالوا أشياء كثيرة جميعها يدور فى إطار هذا المعنى العام الذى أوردوه «اللوح: هو شئ يلوح للملائكة فيقرءونه، وهو ذو نور وشرف... إلخ». قد يكون هو تلك الموجات المرسله من المركز الرئيسى إلى الكتب الفرعية التى معهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ومما يزيد كلامنا هذا ويقويه - والله تعالى أعلم - ما ورد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حول قوله تعالى: ﴿فى رق منشور﴾.

الرق بالفتح: هو ما بين المشرق والمغرب، وقيل هو الكتاب الذى كتبه الله تعالى للملائكة فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون. إذن فالرق هو شئ نورانى الدلالة. وقوله هو ما كتبه الله للملائكة بين المشرق والمغرب فى السماء يقرءونه. إذن فهو مختص بالملائكة، والملائكة أشياء نورانية وقلمهم من جنسهم وحروفه كذلك نورانية، ثم كونه فى السماء، يؤكد تلك الإشارات السابقة، وهى موجية السماء «السماء موج مكفوف».

إذن فما ذهبنا إليه حول عمل وتعامل هذا اللوح «أو الكتاب» أخذا وعطاء واستنساخا، وتحويلا، ومكونات، وتخزيننا لكل ما يؤخذ عن وإلى هذا اللوح «أو الكتاب» كون ذلك طاقة وهو أمر حق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومما يؤكد ذلك ويشير إليه ما ورد لبعض المفسرين من تفسيرات حول ألواح نبي الله «موسى» عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فمثلا ما جاء حول قوله تعالى: ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتقصيلا لكل شئ فخذها

بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين»^(١).

قال بعض المفسرين حول هذه الآية: «ذكروا في عدد الألواح وفي جواهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل سبعة.. وقيل أنها كانت من زمردة، جاء بها جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل زيرجدة خضراء وياقوتة حمراء.

أما كيفية الكتابة، فقال ابن جريج: كتبها جبريل عليه السلام بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور^(٢) وفي هذه الإشارة اليسيرة لهؤلاء المفسرين تراها تشير إلى أن ألواح نبي الله موسى عليه الصلاة وأفضل التسليم، كانت من زمردة أو زيرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء، وفي هذه الإشارة أمور كثيرة منها أن اللوح المحفوظ أو «أم الكتاب». والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. سبق أن رأينا أنه من ياقوتة حمراء وهذا تأكيد على أن ما لدينا من معادن هذا الياقوت والزيرجد والزمرد والألواح التي تتخذ منه في تقنيات هذه الكمبيوترات هو من تلك الأصول. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وذلك أن طبيعة نوعيات ما يكتب ويدخل فيها ونوعيات الكتابة التي نقبلها لا تخرج عن نوعيات تلك الأصول القلم الأصل الذي هناك «نون والقلم وما يسطرون». رأيناهم يقولون عنه إنه^(٣) قلم من نور، وكتابته نور وسطورة نور، وهذه ألواح موسى عليه الصلاة والسلام وأفضل التسليم، أولا أنها مشتقة من ذلك اللوح الأصل وهي أيضا مكتوبة بالقلم الذي كتب به الذكر وهو قلم مستمد من النور كما ورد. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. ومن هنا نلاحظ أن ألواح نبي الله موسى عليه الصلاة وأزكى التسليم كانت من جنس ألواح ما أخذت عنه طبيعة وكتابة.. ولكن الآية القرآنية أوضحت حقيقة من حقائق اللوح المحفوظ وتلك الألواح التي انتسخت وأخذت منه. وتلك الحقيقة هي أن النسخ التي انتسخت منه

(١) سورة الاعراف: آية «١٤٥»..

(٢) القرطبي.

(٣) سورة الطور: آية «١»..

أى اللوح المحفوظ . قد حولت من خواص طبيعتها لتحمل صفة وسمة غير صفتها وسمتها العالية حولت لتلائم مكان وعالم ما تحولت إليه وهو عالم الدنيا والتحويلات. وهنا قد نسأل ونقول من أين أتيت بما قلته عن ذلك التحويل .. وحقيقة الإجابة عن ذلك تأتي من تأمل الآية القرآنية السابقة نفسها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . من ذلك ترى أن الآية قد أشارت إلى المفهوم الذى قلناه إشارة ضمنية .. فقلوه تعالى: ﴿وفى نسختها﴾ ترى أن اللفظ «فى نسختها» فيه كانت تلك الإشارة وهى إشارة من دلالتها المعنوية شيئا اثنان: الأول: أنها حملت معنى النسخ وهو التحويل.

والثانى: أنها أيضا حملت المعنى الثانى للنسخ: وهو النقل ثم دلالة الحرف الظرفى «فى» فى نسختها أى بداخلها .. وهو قوله تعالى: ﴿ولما سككت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾.

قال الفخر الرازى «وفى نسختها» النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا كتبت كتابا عن كتاب حرفاً بعد حرف فأنت نسخت ذلك الكتاب، كأنك نقلت ما فى الأصل إلى الكتاب الثانى يعنى مع بقاء الأصل «وفى نسختها» أى وفيما نسخ منها ولا شك أنها كانت مكتوبة من اللوح المحفوظ فهى أيضا تكون نسخا على هذا التقدير^(١).

إذن فهى قد نقلت من الأصل إلى ألواح مأخوذة منها، ولكنها قد حولت عن خواص طبيعتها إلى خواص طبيعة ما هى متحولة ونازلة إليه وهى الطبيعة الدنيوية .. وإذا نحن وقفنا قليلا عند الآيات الثلاث السابقة وعشنا مع جوها وتأملنا فى نفس اللفظة التى عشنا مع جوها آنفا وهى لفظة «ألواح» فهل ترانا واجدون فيها إشارة أخرى.

وفى الرد على هذا السؤال نرد بقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي تنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾^(٢). وقوله تعالى:

(١) تفسير الرازى: ١٤/٢٣٦.

(٢) سورة الكهف: آية ١٠٩.

﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾^(١) هاتان آيتان قرآنيتان عظيمتان تعلمنا أن القرآن هو كلام الحق، كلام الحى الذى لا يموت والحى يعطى ولا ينقطع لأنه لا ينتهى، ولذلك كلامه - سبحانه لا ينتهى ولا ينقد ولا ينضب مهما أخذنا منه، أى أنه مهما تأملنا فى كلمات القرآن الكريم قلن نزال نجد ونجد ونجد.

مع داللتى أم الكتاب واللوح المحفوظ وماذا تعنيان؟

ومن ذلك أن لفظة «الواح» والتي هى لفظة جمعية للفظ لوح، هذه اللفظة إذا رجعنا إليها فسريراً سيعيدنا لذلك الخلاف اليسير بين بعض علماء التفسير وعلماء الحديث. وذلك الخلاف نرى كثيراً لا يلقى له أى اهتمام، ويرى أن المدلولين يدوران حول مفهوم واحد وإن اختلف لفظاهما. حتى من يرى الخلاف بين الداليتين فإنه فى الأخير يعود إلى نفس المفهوم السابق. فبعض العلماء يرى أنهما مسميان لمسمى واحد، وبعضهم يفرق بين الأمرين، وذلك يجعل: (أم الكتاب) (غير دلالة اللوح المحفوظ). ولكننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وهو الفيصل فى ذلك، فإننا سنجد بإذن الله أن لفظة (لوح محفوظ) لم ترد إلا مرة واحدة وهى قوله تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم فى لوح محفوظ﴾^(٢). أما لفظة (أم الكتاب) بهذا النص وبهذه الدلالة، فقد وردت فى ثلاث آيات صريحة بهذا المفهوم. الأولى فى سورة آل عمران وهى قوله تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات﴾^(٣). والثانية فى سورة الرعد، وهى قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾^(٤). والثالثة فى سورة الزخرف وهى قوله تعالى: ﴿وانه فى الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾^(٥) ولكن لفظة كتاب وردت بلفظ آخر يحمل نفس المعنى واختلف اللفظ من الحروف، ولكن ما ورد

(١) سورة لقمان: آية «٢٧».

(٢) سورة البروج: آية «٢».

(٣) سورة آل عمران: آية «٧».

(٤) سورة الرعد: آية «٢٩».

(٥) سورة الزخرف: آية «٤».

يشير لمعنى كونه أمأ وأصلاً لكل الكتب الأخرى، وذلك فى آيات كثيرة، منها مثلاً، قوله تعالى فى سورة ياسين: ﴿إنا نحن نحيى ونميت ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين﴾^(١). وقوله تعالى أيضاً فى سورة طه: ﴿قالوا فما بال القرون الأولى قل علمها عند ربى فى كتابه لا يضل مرئى ولا ينسى﴾.

هذا بعض من ذلك. فماذا قال المفسرون حول ذلك وماذا يعنى وما الذى يشير إليه فمما جاء مثلاً عن المفسرين، نأخذ باختصار ما جاء فى تفسير الفخر الرازى، حول التفريق بين اللوح وأم الكتاب. يقول أمأ «أم الكتاب» فالمراد أصل الكتاب والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشئ أمأ، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى.. فكذا «أم الكتاب» هو الذى يكون أصلاً لجميع الكتب، وفيه قولان:

الأول: أن أم الكتاب هو نفسه اللوح المحفوظ وجميع حوادث العالم العلوى والعالم السفلى مثبت فيه.. عن النبى ﷺ أنه قال: «كان الله ولا شئ معه ثم خلق اللوح المحفوظ وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة... إلخ».

قال المتكلمون: الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات على سبيل التفصيل وعلى التقدير: فعند الله تعالى كتابان أحدهما: الكتاب الذى يكتبه الملائكة على الخلق، وذلك الكتاب محل المحور والإثبات.. والكتاب الثانى: هو اللوح المحفوظ والكتاب المشتمل على يقين جميع الأحوال العلوية والسفلية وهو الباقي وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ: أن الله - سبحانه وتعالى - ثلاث ساعات ييقن من الليل ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره، يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء. وللحكمة فى تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة.

القول الثانى: إن «أم الكتاب» هو علم الله تعالى فإنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات الموجودات والمعدومات وإن تغيرت إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغيير، فالمراد «بأم الكتاب» هو ذاك. والله تعالى أعلم^(٢).

(١) سورة يس: آية «١٢».

(٢) تفسير الرازى: ١٩/٦٦.

هذا بعض مختصر مما جاء فى تفسير الشيخ الرازى حول الإشارة فى التفريق بين أم الكتاب واللوح المحفوظ.. وفى هذا الموجز نرى الرازى يورد ما أثبتته العلماء، وهو أن هناك كتاباً أمّاً ورئيساً وهو «أم الكتاب» والذى هو عندهم علم الله تعالى الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل، ثم إن هناك مجموعة كتب أخرى كثيرة جداً غير أم الكتاب منها اللوح المحفوظ وجميعها تأخذ منه - من أم الكتاب - كل كتاب حسب اختصاصه ومهمته.. وهذا ما أكدته ما ورد من الآيات القرآنية الدالة على ذلك وما روى واشتهر عن بعض كبار الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم. فماذا ورد فى القرآن الكريم من تأكيدات توضح ذلك.. إذا نحن رجعنا إلى القرآن الكريم سنجد أن لفظة «كتاب» وردت فى القرآن الكريم فى مائتين واثنين من الآيات تقريباً، ولكن ما يشير منها إلى ما نحن بصدد، فهو ما بين الأربعين إلى الخمسين آية، وإن أضفنا إليها بعض الألفاظ المثيرة إلى نفس الدلالة، ولكنها بغير حروف الكاف والتاء والباء «كتاب» فقد يتضاعف العدد.. وعندما قمنا بحصر البعض منها وحاولنا تبويبها حسب ما تحمل من إشارات أو دلالات، وجدناها تدور حول هذه المحاور الرئيسية والتي بين عموم دلالاتها بعض الدلالات والإشارات الخاصة والمرتبطة بالمعنى الدلالى العام لهذا المحور أو ذاك - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فما هى هذه المحاور وما الذى تضمنه من أجزاء؟

من تنوع الكتب الفرعية الرئيسية لتنوع دلالات اختصاصها

المحور الأول: وهو «أم الكتاب» وقد رأينا الآيات التى تشير إليها منها آية آل عمران (٧) وآية الرعد (٣٩)، والزخرف (٤) مضافاً إليها آية ياسين (١٢).

المحور الثانى: وهو الكتاب المختص بالأعمال الآدمية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ويضم من الآيات تقريباً إحدى عشرة آية.

المحور الثالث: وهو كتاب الآجال - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ويضم كثيراً من الآيات منها أربع آيات رئيسية.. وسترد بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

المحور الرابع: وهو الكتاب الموصوف بقوله تعالى: ﴿فى كتاب مبين﴾ ويضم تحت مسماء من الآيات القرآنية ست آيات.

المحور الخامس: هو تحت مسمى إشارات ودلالات متنوعة عامة وخاصة.. ويضم سبع عشرة آية.. وسوف تأتى بعض من أماكن هذه الآيات وبعض الإشارات بعد قليل بمشيئة الله تعالى. هذا بعض مما ورد من الآيات المتنوعة والتي تشير بإشارات ودلالات تؤكد أن هناك أكثر من كتاب وجميعها مرتبط بأمر الكتاب ومنه وعنه تأخذ إذ هو أصلها.. ومن هنا ندرك بعض الأسباب التي أدت لاختلاف كثير من المفسرين حول «أم الكتاب» و«اللوح» المحفوظ وقبل سرد الآيات التي تخص كل محور وما تشير إليه وربطها بما نحن بصدد.. سنورد إشارة سريعة أخرى الشيخ القرطبي يؤكد فيه ما سبق وأشار إليه الشيخ الرازى وفصلناه سريعا - بحمد الله تعالى - والقرطبي يؤكد حقيقة هذا التنوع، قال حول آية الرعد السابقة (٣٩) بعد كلام طويل:

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هما كتابان سوى «أم الكتاب».. يمحوها الله منهما ما يشاء، ويثبت «وعنده أم الكتاب» الذى لا يتغير ولا يتبدل منه شيء^(١). ونضيف أن هناك أيضاً الكتب التي مع الحفظة، والملائكة المسخرين والمكلفين بأمور هذا الكون، فهناك الذاريات والمرسلات والنازعات والسابقات.. وغير ذلك كثير.

من هنا نقول - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إن اللوح المحفوظ: هو كتاب أو لوح من مجموعة هذه الكتب، ولكنه كتاب خاص يحفظ القرآن الكريم وهو موجود من ضمن سائر الكتب المحفوظة المخزنة فى «أم الكتاب»، وليس هذا منا رجما بالغيب، بل هناك ما يؤيده ويؤكد من آيات القرآن الكريم نفسه، ألم يرد فى القرآن الكريم قوله تعالى عن القرآن نفسه وعن اللوح قوله تعالى: ﴿وانه فى

(١) القرطبي: ٢٢٧ - ٢٢٢/١٠.

أم الكتاب لدينا لعل حكيماً^(١). وقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾^(٢).

اللوح والكتاب بين الرقعة والأدسك،

إذن فالقرآن الذى قال عنه منزله: «إنه لقرآن مجيد. فى لوح محفوظ».. قال عنه إنه فى «أم الكتاب» وفى كتاب مكنون وأنه فى هذا الكتاب حفظه.. والذى قال إن حفظ هذا القرآن فى لوح فى أم الكتاب رأيناه سبحانه يخبرنا أن التوراة نزلت فى ألواح من أم الكتاب. كما سبق. بل إن الله تعالى - سبحانه - أكد ذلك بقوله: ﴿فى كتاب مكنون﴾.. إذن فاللوح المحفوظ هو لوح من ضمن الألواح المحفوظة المخزنة فى «أم الكتاب».. وكل لوح ومحفوظ الذى خزن فيه.. وهذا يؤكد لنا حقيقة هامة جداً - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الحقيقة هى أن هذه الكتب المتعددة هى أيضاً ألواح، وإن سميت كتباً، فاللوح هو الكتاب والكتاب هو اللوح، أو ما يمكن لنا أن نسميه كما هو الحال فى عصرنا الحاضر بالرقائق أو الأدسك. إن جاز لنا هذا التعبير. ولا مقارنة، ولكن مقارنة وتمثيل فقط. والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. إذ فى هذه الألواح والكتب يحفظ ويخزن ما يوضع بها من أمور وقضايا ينسخ منها فى وقت يراد منها ذلك باستدعائها بمجرد طلب ذلك منها، لأنها تعقل وتدرك وتفهم ما يراد منها. والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وكذلك ما نعرفه اليوم عن الرقائق والأدسك التى بين أيدينا، هو قريب من ذلك. والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وسيأتى بإذن الله تعالى تفصيل أوسع من هذا.

ثم إن لفظة الحفظ التى وردت مع «اللوح المحفوظ» لم ترد معه وحده لتفرد استقلاليته وتجعله «أم الكتاب» كما ذهب إلى ذلك البعض الآخر من العلماء. والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. بل هى وردت - أيضاً - مع مسمى

(١) سورة الزخرف: آية «٤».

(٢) سورة الواقعة. الآيات: ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

لفظ الكتاب، وحول قضية أخرى مستقلة فرعية، كغيرها من القضايا المستقلة بالألواح خاصة مرتبطة بأَم الكتاب.. مما يؤكد ما ذهبنا إليه في كون اللوح غير «أَم الكتاب» - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾^(١).

إذن فهناك الكتاب - أو اللوح - الخاص بقضية البعث وهو في الوقت نفسه حفيظ أدخل فيه، وهو أيضا حافظ له، وهو أيضا محفوظ في أم الكتاب مع سائر الألواح الأخرى، وهذا يؤكد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى. قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٢).

إذن فكل شيء قد وضع في لوحه وكتابه الخاص به وبزمناه وهو - أي هذا الكتاب أو اللوح - محفوظ في «أَم الكتاب» - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

يقول الشيخ القرطبي حول هذه الآيات باختصار: «..وعلم أحوال القرون الماضية المسئول عنها - وهو مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ.. فهم وأعمالهم محصاة عند الله تعالى، ومحفوظة عنده في كتاب.. وقيل: عنى بالكتاب اللوح المحفوظ، وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة...»^(٣).

وإشارة القرطبي هذه وهي ارتباط اللوح بالقراءة والكتابة.. ومجيئها ثم مجيء نفس لفظ لوح مع القرآن الكريم وهو أيضا مرتبط أساسه بالقراءة والكتابة، تجعلنا نؤكد ما قلناه سابقا من أن «اللوحة المحفوظ» هو لوح خاص بالقرآن الكريم ذاته لارتباط القرآن الكريم بذلك، ولذلك نجد أن أول آية نزلت منه هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(٤).

(١) سورة ق: آية ٤٤.

(٢) سورة طه: آية ٥٠ - ٥٢.

(٣) القرطبي: ١١/٢٠٥.

(٤) سورة العلق. الآيات: ١ - ٤.

إذن فالقراءة «اقرأ» ، والكتابة «الذى علم بالقلم» من أهم سمات وخصائص هذا القرآن، لذلك فهو فى اللوح، وهذا يؤكد أيضا - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قوله تعالى: «فى كتاب مكنون»^(١) والكتاب مرتبط بالكتابة.. بل إن هذه الخاصية - خاصية قراءة وكتابة القرآن الكريم فى ألواح وخاصة للتعليم - لا يزال يعمل بها إلى وقتنا الحاضر فى كثير من البلدان الإسلامية.. أيضاً لكونه أقرب إلى الذهنية العامة للشعوب فى تلك الفترات وإلى الآن وما بعد الآن، وأن اختلفت مدلولات الدلالة نفسها حسب رقيها وارتقائها وتطورها ومسائرتها لكل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لما تحمله ألفاظ القرآن من حياة فى دلالاتها وتجدها وحملها أيضا لشتى المعانى المتطورة المتجددة مع الأزمنة مع احتفاظها بروحانية إطارها الرئيسى.. ولذلك تجد وترى أن من تلك المعانى للفظه لوح - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ما قد ترتبط دلالاته ببعض المصطلحات العلمية الحديثة المتجددة مع الأزمنة والأمكنة، كما رأينا فى المعانى التى أوردناها للفظه لوح، كقولهم أن من معانيها: البرق - والبرق يعنى الطاقة، والهواء وهو من ذلك أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والياقوت والزمرد - وهى مادته - وغير ذلك، وكورودها حول نفس دلالة القراءة والكتابة مع ألواح موسى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. وما يؤكد هذا التطور والتجدد لألفاظ القرآن الكريم وإعجازه، ورود أمر كون القرآن الكريم محفوظ فى لوح محفوظ وارتباطه بالقراءة والكتابة، وورود آيات قرآنية تشير إلى أن القرآن الكريم نفسه فى لفظ، مقصود به نفس اللفظ السابق - اللوح - ولكنه يحمل دلالة تعطى هذا المفهوم المتطور والمرتقى مع الأزمنة والأمكنة، لفظ يحمل دلالة علمية مطعمة عصرية وما بعد ذلك بل تؤكد كل هذا الذى أشرنا إليه وهى قوله تعالى عن القرآن الكريم وكونه محفوظا فى لوح مكتوب ومكتوبا ومسطورا: «والطور. وكتاب مسطور. فى رق منشور»^(٢). فماذا يعنى ذلك؟ ماذا يعنى لفظ «الرق» فى لغة العرب.. ما الذى يربطها بهذه المصطلحات العلمية الحديثة.

(١) سورة الواقعة.

(٢) سورة الطور: آية ١٠، ١١.

الرق بين دلالات لغة القرآن والمصطلحات العلمية الحديثة.

وإذا نحن رجعنا إلى مجمل كتب لغة العرب نجد أنها تورد للفظه الرق معانى ودلالات كثيرة متنوعة، ولكنك تجدهم يركزون على دلالة معينة ويتركون البقية، لظنهم أنها لا تتلاءم مع المقصود من اللفظة، وهذا الكلام منهم نعتبره صحيحا لو أن دلالات القرآن الكريم خاصة بزمانهم، لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحا لأننا نعرف أن دلالات القرآن الكريم هي لكل زمان ومكان وتعطيه الدلالة التي تتلاءم مع زمانه ومكانه، ومن هنا ندرك عظمة ثراء اللغة العربية لغة القرآن الكريم؛ ولذلك نجدهم يصطلمون مع المفسرين الذين يوردون بعض الدلالات التي قد تخالفهم، ونجد بعض المفسرين يميلون معهم، فمن ذلك يورد القرطبي حول الآية المذكورة ﴿وكتاب مسطور. في رق منشور﴾ أى مكتوب، يعنى القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف وتقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ.. كما قال تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون﴾.. وقيل يعنى سائر الكتب المنزلة على الأنبياء.. وكأن كل كتاب فى رق ينشره أهل لقراءته.. وقال الكلبي: هو ما كتبه الله تعالى لموسى بيده من التوراة، وموسى يسمع صرير القلم.. وقيل: أنه الكتاب الذى كتبه الله تعالى للملائكة فى السماء ويقرءون فيه ما كان وما يكون.. وقيل المراد ما كتب الله فى قلوب أوليائه من المؤمنين، بيانه ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان﴾.. قلت وفى هذا القول تجوز، لأنه عبر بالقلوب عن الرق.. قال المبرد: الرق: ما رُقق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط.. وكذا قال الجوهري فى الصحاح قال: والرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق.. وأما الرق بالفتح فقد حكى الماوردي عن ابن عباس رضى الله عنهما: «هو ما بين المشرق والمغرب»^(١).

هذا موجز يعطيك فكرة سريعة عما ورد حول لفظة ودلالة الرق، وما توحى به من إشارات، وترى كيف اختلف موقف بعض المفسرين وأهل اللغة حول ذلك، إذ كل واحد منهم يريد أن يحدها بما فهمه هو فى زمانه، وذلك يستحيل فى دلالات القرآن،

(١) القرطبي: ١٧/٥٩.

إذ هو كلام معجز، فالرق في زمنهم من دلالاته الشائعة والمشهورة هو الجلد، لأن ما يكتبون فيه لا يتعدى رقائق الجلود، لذلك فهو لا يخرج عندهم عنه، بل القول بما عداه يعد تجاوزاً لأنه عبر بالقلوب عن الرق.. ولكن الزمن الذي نحن فيه اليوم يرى أن ما عدوه تجاوز هو الأقرب إلى ما عرف وكشف من دلالات الرق، فالقلوب هي أمور نورانية والرقيقة في زمننا هي أيضاً أمر نوراني - شيء من الطاقة - والقلوب هي لوح مستودع الإيمان والعقائد والأعمال، وكل هذه الأمور هي نورانية فهي أقرب إلى دلالة الرق مما عدّ في زمانهم أقرب للملاءمة ذلك لما عرف وشهر من دلالة الرق، بل إن ما نعدّه أقرب إلى دلالة الرق في زمننا تؤيده شواهد كثيرة مما أوردوه هم وتناقلوه عن بعض الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم جميعاً، من ذلك قولهم: «إنه الكتاب الذي كتبه الله للملائكة في السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون ومعلوم - كما سبق - أن كل ما يتعامل به الملائكة لا يخرج عن النورانية لأنها هي طبيعتهم وجنسهم، إذن فالرق وتفسيره بالجلد هو أمر يتفق مع دلالة كل زمن ومكان اتفاقاً طردياً إلى أن يصل والمرحلة التي تتفق مع دلالاته الحقيقية والملائمة مع مكانه الذي هو فيه وسوف ينشر فيه، وهي المرحلة الكبرى، مرحلة يوم القيامة، وذلك أن الجلد وكل ما يرتبط به هو أمر يتلاءم مع المرحلة الدنيوية المادية، أما يوم القيامة فهي مرحلة نورانية، كما سيتضح لنا ذلك فيما سيأتى بعد - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فكل كتاب هو لوح، وكل لوح هو رق والرق هو شيء نوراني - طاقة أو شيء منها - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الدلالة.. واختصاصه بالملائكة يؤكد ذلك، إذ هم نورانيون وقلمهم من جنسهم، وحروف ما يقرءونه من ذلك أيضاً.. ثم كونه في السماء يؤكد هذه الحقيقة النورانية لما سبق من أن السماء الدنيا «موج مكفوف».. ومما يؤكد أيضاً أن كتاب وكتب، هي لوح وألواح وهي رق ورقائق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهي أمور نورانية. إن كتب الأعمال قد وردت في القرآن الكريم بلفظ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ وهذه الصحف هي نفسها كتب الأعمال، التي قال عنها القرآن الكريم نفسه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ

يجاسب حسابا يسيرا» .. ونلاحظ هنا أن هذه الصحف وصفت بصفة (نشرت) أى فى يوم القيامة، ووصف الرق بأنه منشور ﴿فى رق منشور﴾. إذن فالطبيعة واحدة . والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . بل إن كتب الأعمال هذه . الصحف . بما يؤكد نورانيته . طاقة . وأنها أمور فى كل ما يتعامل به معها، ككون من يحملها ويسجلها ويسجل فيها ومنها ويتنزل بها، ويعيد تخزينها فى الأصل «أم الكتاب» . والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أى برمجتها كل ذلك هو أمر نورانى كما سبق . ثم إنه عند إعادة إخراجها مرة ثانية للحساب عليها سميت كتب .. كما قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾^(١).

وهذه الآية كما ترى تدور حول قضايا أعمال ابن آدم، وكيفية تسجيلها، وإخراجها، والحساب عليها بل تشير إلى قضايا كثيرة جداً جداً لا نريد أن ندخل فى خضمها .. لكن هناك بعض النقاط نريد أن نلفت النظر إليها إجمالاً فقط بدون تفصيل، فالآية كما قلنا أشارت إلى العمل بلفظ الطائر، والطائر والطيران هما رمز للسباحة فى الفضاء . والأفعال جميعها معانى، والمعانى هى أمور نورانية . طاقة . ونحن نعلم اليوم أن الموجات الضوئية هى سباحة فى هذا الفضاء .. وعلى هذا كأنى بالآية تقول: إن كل الأعمال خيرها وشرها . هى رسالة من هناك، من أم الكتاب وأبيه إليه . رسالة من ألواحها . رقائقها . الخاصة بها هناك إلى عالم الدنيا، ثم العودة إليه، كما قال تعالى: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ وقد ورد عن هذه الآية ما يؤكد ما أشرنا إليه، فمن ذلك ما ورد فى جامع أحكام القرآن للقرطبى ما نصه «قال على رضى الله عنه: إن لله ملائكة يتنزلون كل يوم بشئ يكتبون فيه أعمال بنى آدم .. وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «إن الله وكل ملائكته مطهرون فينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمال بنى آدم، فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال

(١) الإسراء: آية ١٢ . ١٤ .

العباد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان».

قال ابن عباس: «وهل يكون النسخ إلا من كتاب.. قال الحسن استنسخ ما كتبه الحفظة على بنى آدم. لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال..» هذا ما جاء فى القرطبى حول آية الاستنساخ والإعادة، ولذلك نرى الشيخ الرازى يقول حول الآية الأولى آية الأعمال والطير وهو توضيح أكثر لما ورد عن ابن عباس وعن الإمام على وعن الحسن رضى الله تعالى عنهم جميعا ما نصه: «إن هذه الآية فى غاية الشرف، وفيها أسرار عجيبة، فى أبحاث كثيرة منها:

البحث الأول:

أنه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذى يطير إليه، وذلك لأنه تعالى قدر لكل واحد فى الأزل مقدارا من الخير والشر، فلذلك الحكم الذى سبق فى علمه الأزل. فذلك الحكم كأنه طائر يطير إليه من الأزل إلى ذلك الوقت.. وإذا علم الإنسان فى كل قول وفعل ولمحة وفكرة، أنه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله إليه على منهج وطريق معين، وأنه لابد أن يصل إليه ذلك الطائر.

البحث الثانى:

إن هذه التقديرات إنما تقدرت بأمر الله تعالى، وذلك باعتبار أنه تعالى جعل لكل حادث صارت متقدما عليه لحصول الحادث المتأخر، فلما كان وضع السلسلة من الله تعالى، لا جرم كان الكل من الله تعالى، وعند هذا يتخيل الإنسان طيورا لا نهاية لها ولا غاية لأعدادها.. فإنه تعالى طيرها من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب.. وأنها صارت وطارت طيرانا.. وكأن كل واحد منها متوجه إلى ذلك الإنسان المعين، فى الوقت المعين، بالصفة المعينة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿الزمناء، طائره فى عنقه﴾^(١).

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ١٧٥ . ١٦/١٧٦ .

هذا بعض مما ورد، وفيه ترى الرازى يركز على قضية الطيران وكونه آتيا من هناك «أم الكتاب» والطيران للمعاني ترى ماذا يعنى. ألا يعنى ذلك كونه طاقة، لأنه آت من مكان لا وجود فيه للماديات . والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهذا ما يؤكد الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، فالملائكة النورانيون ينزلون بشيء يكتبون فيه أعمال بنى آدم.. ترى ما الذى أدى بالإمام على رضى الله عنه أن يكتفى عن ما يكتب فيه بقوله: بشيء يكتبون فيه» لماذا لم يصرح بحقيقته أو اسمه؟ لماذا لم يقل مثلا: ينزلون بكتاب يكتبون فيه فكنى عن الكتاب بقوله: «بشء..» فى حين نجد ابن عباس رضى الله عنهما .. يصرح بأن ما يكتب فيه هو الكتاب إذن فذلك الكتاب هو نفس الشيء قاله الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، ولكن كناية الإمام على تجعل للمكنى عنه ميزة وخصوصية تميزه وتخصه عن دلالة لفظة كتاب، وإن كان الاثنان تجمعهما دلالة الكتابة، ولكن تلك الخصوصية قد تخرجه قليلا عن عالم ما عهدنا فى دنيانا من حقائق الكتب والكتاب، وإن جعل لنا ما قد يدلنا على مثل هذه الخصوصيات فى عالم الكتب والكتابة وربما . والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ما رزقنا الله تعالى يكشفه فى عصرنا الحاضر وما سيأتى بعد ذلك بأمر الله تعالى، من عوالم الرقائق والأدساك والكمبيوتر قد يقرنا ويوضح الكثير والكثير من حقائق ذلك الشيء الذى ينزل به الملائكة النورانيون ليكتبوا فيه أعمال بنى آدم ويسجلوها بالصوت والصورة. والجميع كلها لا ترى، ومع ذلك تسجل وترصد فى ذلك الشيء، والمسمى أيضا بالكتاب، بل بالصحائف كما قال الحسن: «لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال ..»^(١) ثم إن الآية نفسها تشير إلى شيء من بعض حقائق ذلك الشيء عند الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، والكتاب عند ابن عباس رضى الله عنهما، وذلك أن الآية القرآنية سمت كتاب أعمال ابن آدم بالطائر، وقد عرفنا بعضا من حقائق ذلك الطائر والطيران ونورانيته، إذن فالآية أعطت ذلك الكتاب خصوصية غير معهودة فى طبائع الكتب فى الدنيا، إذ أن الكتاب لا يطير، ولكن هذا الكتاب نراه

(١) تفسير الرازى: ١٦٨ . ٢٠/١٧٠ .

يطير، إذن فهذا أمر مخالف لطبائع الكتب المعروفة والذي عادت الآية نفسها في آخرها تسمى ذلك الطائر بنفس تسمية الكتاب: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.. نعم إن الآية حينما اسمت هذا الكتاب بالطائر، نراها تعطى هذا الطائر خصوصية قد تجعل البعض من الذين لا يعلمون عن بعض دلالات القرآن الكريم شيئاً، تجعله يسأل ويقول: إن الآية تشير إلى أن الكتاب الذي يسجل فيه كل ما يعمل به ابن آدم من أقوال وأفعال هو محفوظ في عنقه.. فكم تكون سعة هذا العنق الذي يستطيع أن يستوعب حفظ كل ذلك الكتاب وما خزن فيه، وذلك حينما أشارت بقوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ والإجابة على ذلك ليست كما تصورها أخى السائل، بل هى فى عصرنا وما سيكشفه الله تعالى - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مستقبلاً، سهلة جداً جداً، بل إننا نقول: لِمَ الغرابة وما علمناه، ولمسناه فى عالم الرقائق والأدساك والكمبيوترات تجعل ما سئل عنه هو المستغرب والمستكر، لا ما جاء فى الآية الكريمة، فالرقيقة الصغيرة التى لا ترى تسجل فيها علوم الدنيا كلها فى عصرنا الحاضر - كما سنرى ذلك بمشيئة الله تعالى وعلمه - وهى من اكتشاف الإنسان وعمله، فكيف يخلق الله تعالى الذى خلق الإنسان نفسه وأبدع وأحسن كل شئ صنيعاً، أما إن كان ما دعا السائل للاستغراب هو لفظة كتاب وتخزينه فى العنق.. فإننا نقول له لقد جاء فى السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم حول الكتاب والكتب ودلالاتها نوعاً وحجماً وما خزن فى داخلها ما لو قرأه أخى السائل لكان لأمره شأن.. وليقرأ معى ما جاء عن رسول الله ﷺ وعن دلالة كتاب صغير جداً ومع ذلك فما وضع فيه هو العجب العجيب، فليقرأ معى: فقد روى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، قال للذى فى يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة آبائهم وقبائلهم ثم اجعل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال للذى فى شماله مثله فى أهل النار.. وقال فى آخر الحديث، فقال بيديه فنبذهما ثم قال: فرغ ربيكم من العباد فريق فى الجنة وفريق فى السعير.. اسناده حسن»^(١).

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر: ٦/٢٢٦.

هذا هو بعض من نص حديث شريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتصور معى أختي السائل حجم هذا الكتاب الذى سجل فيه جميع أهل الجنة من أول الخلق إلى أن تقوم الساعة، يحمله رسول الله ﷺ فى يده، ولا تنس أن تضع مع هذا التصور أن الكتابة فى عهد رسول الله ﷺ كانت على الجلود، ترى كم سيكون حجم ذلك الكتاب ومثله كتاب أهل النار، أفلا يكون هذا الكتاب متناهيا فى الصغر ليؤمله للحمل فى اليد بل يا ترى ما نوع الأشياء التى بين دفتيه وقد ملئت بما فيها: أهى من الورق؟ أظن أن ذلك غير صحيح، أترأه من الجلد قلنا أن ذلك غير ممكن لنقله وكبر حجمه. إذن فهو كتاب مخالف لما عهد فى تلك الأيام من كتاب، لأنه لم يوجد بعد ذلك، لحكمة يريدنا الحق جل سناه وإذا أردنا أن نتلمس لعدم وجوده أسبابا، فلعل من تلك الأسباب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن طبيعة ذلك الكتاب وخصائصها، هما من غير طبيعة وخصائص البيئة الأرضية، أى أنهما نورانيان آتيان أو مستسخنان من طبيعة أمر نورانى جيئا بهما للتمثيل ثم رفعنا فى حينهما، إذ فى النص ما يؤيد ذلك كقوله: «فقال بيديه فنبذهما..» والنبيذ الطرح جانبا.. إذن فهناك إشارات تشير إلى أن الدلالات القرآنية وكذلك أحاديث الرسول ﷺ هى متطورة متجددة راقية راقيا طرديا إلى أن تصل إلى جلاء الحقيقة التى دعينا للإيمان بها يقينا لنراها بعد ذلك فى وقتها عينا يقينيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ونعود لنقول إن أمر الرقائق والأدساك والكمبيوترات فى عصرنا الحاضر قد وضحت وقربت لنا الأمر بما لا يدعو لأى شئ بعد ذلك.. بل إن فى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، من التأكيدات لمثل هذه المعانى وغيرها، الشئ الكثير والكثير، مما يؤكد أن دلالة الكتاب فى غير عالمنا طبيعتها مختلفة، وكذلك خصائصها وأن ما عندنا اليوم فى أمر هذه الرقائق ما قد يقرب الأمر لنا كثيراً، فهذا الإمام الترمذى - رضى الله تعالى عنه - يروى لنا عن ابن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «أن الله سبحانه وتعالى يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد

البصر، ثم يقول أتذكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول لا يارب فيقول: أفلك عذر فقال: لا يا رب فيقول: بل إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم.. فيخرج له بطاقة فيها اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فيقول احضر وزنك. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء..» قال حديث حسن غريب.. لكن جاء ما يحقق ويؤكد هذا الحديث، وهو قوله: «..وقال محمد بن يحيى: البطاقة هي الرقعة عند أهل مصر، وفي الخبر إذ خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ بطاقة كالأنملة فيلقبها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي ﷺ: «بأبى أنت وأمى، ما أحسن خلقك . فمن أنت . فيقول أنا نبيك محمد، وهذه صلاتك على التي كنت تصلى علىّ قد أوفيتك إياها، وأنت أحوج ما تكون إليها». ذكره القشيري في تفسيره.. وذكره أبونعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس رضى الله عنه والعمرى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجع وإلا شفعت له»^(١).

هذا شيء يسير من الكثير والكثير الذى جاء فى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم . كما سيأتى بمشيئة الله تعالى . وإذا تأملنا فى هذا النص الصغير ألا نجد فيه ما يشير إلى قضايا الرقائق والأدساك والبرمجة . خذ مثلاً هذه الإشارة الإعجازية الجملة، إشارة البطاقة التى هى قدر الأنملة والأمر الذى أدخل ويرمج بداخلها ، لتعدل كفة الميزان الأخرى التى وضع بها ٩٩ سجلاً، كل سجل طوله كمد البصر، ومع ذلك لا ترجح تلك البطاقة التى هى قدر الأنملة . ترى كيف ذلك . ذلك أمر يسير، إنه أمر قد جعل لنا الله . سبحانه وتعالى . عليه فى دنيانا شواهد كثيرة تقرب أمره وتوضحه، منها نحن اليوم وفى عصرنا الحاضر نؤمن بكل ما يقال عن أمر الكمبيوترات ورقائقتها وأدساكها، أفلا تؤمن بأمر تلك

(١) التذكرة للقرطبي، ٤ / ٢٠٥ .

البطاقة وما هو أعظم منها؟ أنستغرب أن تحمل هذه البطاقة التي هي كقدر الأنملة كل تلك الأعمال بداخلها على صغرها؟ أنستغرب مثل هذا القول في يوم القيامة بين يدي الخالق العظيم - سبحانه وتعالى - ولا نستغرب أو ننكر على المخلوق البشري الضعيف في دنيانا حينما يقول: «مستقبل مثير لتقنيات حفظ المعلومات.. علوم الأرض جميعها في رقيقة واحدة فقط.. نحن نعيش اليوم عالماً مليئاً بالمفاجآت.. في ميدان صناعة الرقائق. هناك شيء جديد كل يوم، ولعل أبرز ما يدور اليوم في أذهان علماء الفيزياء، استثمار الذرات الدقيقة للمعادن وتحويلها إلى مكتبات مجهرية عملاقة ل تخزين شتى المعلومات.. وبإمكان هذا المجهر - وهو مجهر الكتروني ضوئي وكذلك رقائقه - تركيب أو التقاط كل ذرة على حدة، وذلك بتحريك طرفه الحر.. حول السطح يقول أونو: أن تقنية هذا المجهر مع علوم الذرات تمكنا من تخزين جميع المعرفة البشرية في رقيقة واحدة «بايت واحد».. ترى إلى أين سيقودنا هذا العلم.. علم المجهرات والذرات؟ وما هو أصغر من الذرات.. إننا نعيش في عالم مليء بالمفاجآت حقاً»^(١).

هذا شيء موجز مما يقوله ويعمله العلم في عصرنا، في الدنيا ومع ذلك نتقبله بكل رحابة، نتقبل فعل البشر المخلوق وما يفعل، ونستغرب فعل الحق الخالق جل سناؤه.. إنه لعجب البشر يقول: في رقيقة واحدة صغيرة نستطيع تخزين جميع علوم الأرض والمعرفة البشرية!! إنها الطاقة وفعلها.. إنه عالم الرقائق، عالم الضوئيات والذرات.. ورغم ذلك لا نستغربه، فإذا كان كل ذلك الفعل البشري يتم من خلال عالم الضوئيات والطاقة.. وكون ما يخزن به - الرقائق - هو كذلك من هذا العالم.. فإن السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - تخبرنا أن تلك البطاقة التي هي قدر الأنملة هي أيضاً طاقة ومن عالم الطاقة التي لا نعرفها، ولا نعرف أي أمر من حقائقها بل كل العالم التي هي فيه ومنه هو عالم كله طاقة، ولا نذهب بعيداً فهذا الشيخ القرطبي يورد في كتابه «التذكرة» صراحة أن تلك

(١) هذا القول مأخوذ باختصار وتصرف شديد من مجلة «الشرق الأوسط» رقم ٢٨٦، وتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٩٣م.

الحسنات التى هى بداخل تلك البطاقة الصغيرة أصلها نور، وإذا كان أصلها نوراً فطبيعى أن يكون أمر ما يوضع بها لحفظه بداخلها من جنسها أى أنه نور.. قال: «وقد جاء أن كفة الحسنات، من نور، والأخرى من ظلام.. والكفة النيرة للحسنات، والكفة المظلمة للسيئات.. وجاء فى الخبر أن الجنة توضع على يمين العرش والنار على يسار العرش ويؤتى بالميزان فينصب بين يدي الله تعالى، كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار.. ذكره الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول»^(١).

إذن فكل حقائق ذلك العالم وكل ما فيه هو نور فى نور، أفلا تكون تلك البطاقة هى نورانية كذلك. وقد جاء ما يثبت ذلك بل إن أحد مفكرى الإسلام وقبل تسعة قرون يسمى أمر تلك البطاقة ومثالها بالرقائق باللفظ بل ينص على أنها رقائق نورانية حينما يقول: «..وجعل للقلم من حيث كونه عقلاً: ثلاثمائة وستين تجلياً ورقيقة بل كل رقيقة تغترف من ثلاثمائة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية.. وذلك كله فى عالم النور الخالص»^(٢). وهذه الرقائق هى مثل أشعة النور..»^(٣).

إذن فهذا المفكر المسلم ينص على أمر التسمية، وأمر ماهيتها، وأنها أشياء نورانية وعملها كذلك وكأنه يتحدث عن أمر الكمبيوتر وحقائقه فى عصرنا الحاضر - والحمد لله رب العالمين - أفنستغرب بعد ذلك أمر تلك الرقائق فى «أم الكتاب» والحفظ فيه للأعمال وغيرها واستساخها وأمر الوزن النوراني - الطاقة - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وغير ذلك، وهذا القرطبي يورد أيضاً: (وذكر أبو عمر فى كتاب جامع بيان العلم بإسناده على حماد بن زيد عن أبى حنيفة عن حماد بن إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾).

قال: يجاء بعمل الرجل فيوضع فى كفة ميزانه يوم القيامة فتخف، فيجاء بشيء أمثال الغمام أو قال السحاب فيوضع فى ميزانه، فيقال له: أتدرى ما هذا؟ فيقول:

(١) التذكرة للقرطبي: ٢/٨.

(٢) الفتوح المكية لابن عريى: ٣٥٠ - ٢/٢٥١.

(٣) نفس المرجع «الفتوح»: ٢/٢٨٦.

لا. فيقال له: هذا فضل العلم الذى كنت تعلمه الناس أو ذلك^(١).

هكذا ورد إذن فلا نستغرب حينما نُخبر عن الحق جل سناه - سبحانه وتعالى - أنه يخبرنا أن كل شيء فى هذا الكون مخزن ومحفوظ أصوله وما يتعلق بأمره عنده سبحانه وتعالى فى: «كتاب حفيظ».. يا للعجب.. ما يدرينا أن هناك ما هو أعظم وأفخم وأدق مما لا نستطيع حتى إدراكه أو استيعابه، ورب الكعبة.. إذن فلا استغراب ولا عجب إذا قال لنا الحق جل سناه: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.. لا ندهش حينما يخبرنا الرسول الأعظم ﷺ عن الحق، وهو يخبر عن استنساخ أى إنسان من «أم الكتاب» من مكانه فيه، من رقيقته من مستودعه فى «أم الكتاب» بقوله صلى الله عليه وسلم: «قال روى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهم جميعا: أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه، فقال: يارب أذكر أم أنثى؟ شقى أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ بأى أرض تموت؟ فيقال له: انطلق إلى أم الكتاب، فإنك تجد قصة هذه النطفة، فينطلق فيجد قصتها فى «أم الكتاب».. فينظر فى اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأجله وأثره وعمله، ويأخذ التراب الذى يدفن فى بقلته، ويعجن به نطفته، فذلك قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾.. وخرَج أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وقد دُرَّ عليه تراب حضرة»..^(٢) وسيأتى هذا الحديث فى أماكن أخرى متفرقة بمشيئة الله تعالى.

إذن فالحق جل سناه - سبحانه وتعالى - يعلمنا أن لكل شيء عنده كتاب - أو لوح أو رقيقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قد خزن وحفظ فيه أصوله وأجزاءه ورزقه وأجله وأثره وكل سير عمله الذى سيعمله فى حياته الدنيوية، كل ذلك مدون فى لوح خاص به - رقيقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن كل جزيء وذرة فى هذا الكون بأكمله له رقيقته التى دون وخزن فيها.

(١) التذكرة للقرطبي: ٢/١٢.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ٦ - ١٢/٧، و: ٦/٢٨٨.

وهنا سنحاول أن نعود لما سبق أن أشرنا إليه في بداية هذا الفصل، وقلنا أن هناك مجموعة محاور قد أشار بها القرآن الكريم، كنماذج لمثل هذه الكتب والألواح - الرقائق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وليس ما ذكرنا هو كل شيء، لا بل هي إشارات فقط، وإلا فالموضوع أسمى وأشمل وأكبر من أن نحيط به، وحاشا ذلك وسوف نورد الآن بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - نماذج لآيات كل محور مما سبق، وبعض النبد اليسيرة مما أشار به بعض علماء التفسير، لبعض الآيات الخاصة بتلك المحاور، لكي نقف على حقيقة ما سبقت الإشارة إليه.. لننتقل بعد ذلك - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه لجزئية توضيحية أخرى بعون الله تعالى وإذنه.

الفصل الثانى

عودة آيات المحاور السابقة

وتضاي التسجيل والبرمجة

مع آيات المحور الأول:

سبق أن أشرنا إلى آيات المحور الأول بأكملها أثناء الحديث عن قضية الفرق بين «أم الكتاب» و«اللوح المحفوظ».. والذي اتضح لنا من خلال - بحمد الله وتوفيقه - نصوص وإشارات أوردناها هناك، دلت أن «أم الكتاب» هو غير «اللوح المحفوظ».. وأن «اللوح المحفوظ» ما هو إلا جزء رئيسى من ضمن الأجزاء التى يحويها «أم الكتاب» لكونه هو الأم والأصل والأساس لكل ما انبثق من كتب - ألواح - رقائق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عنه ومنه وأن لفظة «اللوح المحفوظ» الواردة فى القرآن الكريم، هى إشارة خاصة برقيقة القرآن الكريم نفسه فى «أم الكتاب» لكونها لم ترد إلا معه ولم ترد مع غيره إلا بلفظة الجمع «ألواح»، ومع ألواح موسى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم لكونها من جنسه أما عدا ذلك فلم يرد إلا بلفظ كتاب، وقد سبق ذلك فى مكانه، ولننتقل الآن بعون الله تعالى وتوفيقه إلى آيات المحور الثانى وهو محور كتاب وكتب الأعمال.. فمع آيات المحور الثانى.

المحور الثانى:

مع آيات كتب الأعمال وبعض مما قيل عنها:

ما هى آيات هذا المحور؟

قلنا أن ما أخذناه من آيات لهذا المحور قد لا تتجاوز إحدى عشرة آية، وإن كانت قد تكون أكثر من ذلك لكونها قد ترد بصيغ ألفاظ أخرى مع نفس الدلالة وإشارات أخرى معها.. وهذا مثلا نص أول آيات هذا المحور.

- ١ . قال الله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾^(١).
- ٢ . قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾^(٢).
- ٣ . قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتىلا﴾^(٣).
- ٤ . قال تعالى: ﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾^(٤).
- ٥ . قال الله تعالى: ﴿وأشرقى الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾^(٥).
- ٦ . قال تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾^(٦).
- ٧ . قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾^(٧).
- ٨ . قال تعالى: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا وكتابه . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه﴾^(٨).

(١) سورة الكهف: آية «٤٩».

(٢) سورة الإسراء: آية «١٢» - «١٤».

(٣) سورة الإسراء: آية «٧١».

(٤) سورة المؤمنون: آية «٦٢».

(٥) سورة الزمر: آية «٦٩».

(٦) الجاثية: آية «٢٨» - «٢٩».

(٧) سورة الحديد: آية «٢٢».

(٨) الحاقة: آية «١٩» - «٢٥».

هذه بعض من الآيات التى أشارت إلى كتب حفظ الأعمال، وفيها نلاحظ أن بعضها يشير إلى العمومية، وبعضها يشير إلى الخصوصية، أى أن التى تشير إلى العمومية أى عمومية أمة ما، أمة جمعها إما زمان ومكان معين، وإما أمة جمعها نوعية العمل وخصوصيته، ونلاحظ أن بعضها يشير إلى الفردية أى أن كل إنسان وله كتابه الخاص به، فمثلا الأمة التى جمعتها خصوصية العمل، هو ما أشارت إليه الآية الأولى وهو قوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أى أن هذه الأمة جمعتها خصوصية عمل الإجرام. وقوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾.. إلخ. فهؤلاء أهمهم عمل واحد شملهم وأصبح كأنه الإمام لهم جميعا، وإن لم تشر الآية إلى نوعية العمل، لكنهم جمع من الناس جمعتهم خصوصية عمل ما - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أما آية الزمر فقرأها تشير إلى أن كل الكتب سواء الكتب التى تخص الأمم أو الكتب التى تخص الأفراد كلها يجمعها كتاب واحد عام.. لأنه كتاب تحضره جميع الأمم بدون استثناء، وفيها - الآية - إشارة أخرى إلى أن كل أمة سواء جمعها زمان ومكان واحد أو تباعد زمنهم فلهم أيضا كتاب عام يشمل جميع كتبهم الخاصة، مثلا أمة محمد ﷺ لهم كتاب عام يشمل جميع هذه الأمة، من أولهم إلى آخرهم وإن اختلفت خصوصية كتب أفرادها.. وهكذا، وكذلك آية الجاثية فيها إشارة عمومية.. أما آيات الأحقاف والإسراء فهى تشير إلى فردية كل إنسان وكتابه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

هذه لفظة سريعة لما قد تنبئك به القراءة الأولى للآيات - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والآن سنحاول أن نستعرض سريعا بعضا مما أشار به بعض مشايخ التفسير وعلمائهم، فيما أشاروا ولو نبذا يسيرة.. فمن ذلك مثلا ما ورد عن الشيخ القرطبي عن مجمل الآية الأولى ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾.

قال: ﴿ووضع الكتاب﴾ الكتاب اسم جنس، وفيه وجهان أحدهما: أنها كتب الأعمال أى العباد.. قاله مقاتل.. والثانى: أنه وضع الحساب فعبر عن الحساب

لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة. قال الكلبي: والقول الأول أظهر ذكره ابن المبارك، قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم - شك نعيم - عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسبج قال: قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لكعب: ويحك يا كعب!! حدثنا عن حديث الآخرة، قال نعم يا أمير المؤمنين: «إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله - قال - ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتتشر حول العرش، وذلك قوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾^(١).

هذا جزء مما ورد عن هذه الآية العظيمة ذات الدلالات والإشارات الكثيرة والمتنوعة، ولن نأخذ كل ما قيل عن دلالاتها، بل سنكتفى بما قيل عن الإشارات الخاصة بما نريد، وهى قضية الكتاب وتعددده، وقد سبق أن قلنا أن الآية تشير إلى عمومية الاختصاص فى نوعية العمل للأمم أو الأفراد، مع احتواء عمومية هذا الكتاب إلى مجموعة كتب فردية تشترك فى تلك الخصوصية. وترى أيضا أن الكتاب يقوم بإحصاء وتسجيل كل شئ.. ولكن إذا أردنا أن نقف قليلا عند هذا النص، فسندقق عند بعض نقاط، منها أن قضية هذه العمومية والخصوصية والفردية بعمل كل فرد يشترك مع أمة يجمعهم عمل خاص يحويهم كتاب عام بهم، وهذا الكتاب العام يدخل ويرصد فى كتاب عام يشتمل جميع الكتب الخاصة بجميع الأعمال وأنواعها أمماً وأفراداً، أزمنة وأمكنة، وهذا الكتاب الإمام للجميع، يدخل - يوضع - ضمن أئمة كثيرة جداً ومتنوعة لقضايا متعددة، كالكتاب الإمام لجميع كتب الأرزاق وكتب الآجال وما إلى ذلك، كتاب يؤمهم جميعاً، أى هو لهم أم «أم الكتاب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أى بمعنى إن جاز لنا التعبير - ولا مقارنة ولا مشابهة فى ذلك - أن كل رقيقة فردية مدخلة فى دسك يحوى مجموعة رقائى وجميع الأدساك الكثيرة المختلفة المتنوعة مدخلة فى ديسك واحد يؤمهم جميعاً، أى أنه أم لهم، وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١٠/٤١٨.

لله رب العالمين - وقد تسألنى وتقول من أين أتيت بمثل هذا الإيحاء أو الإشارة؟

والحقيقة أن تلك الإشارة أخذناها من بقية النص الذى لم نورد مع جزئه السابق، ولكن ما دامت الحاجة دعت إليه الآن فلا مانع من إيراد، وهو قوله: «...قال كعب ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكى لا يقول: كانت لى حسنات فلم تذكر، فأحب أن يريه عمله حتى إذا استقص ما فى الكتاب وجد فى آخر ذلك كله أنه مغفور لك، وأنت من أهل الجنة، فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾.. ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله فيجعل من وراء ظهره^(١).

إذن فهذا الكتاب الأم حوى بداخله جميع الكتب سواء ما يخص المؤمن أو ما يخص الكافر إذن فإيحاء أو إشارة ما قلناه مصدره موجود فى ما ورد ولم نأت نحن بشيء من عندنا اللهم إلا أننا وضحنا ما أجمل وأدمج فى نص ما ورد.

ثم إن النص يشير إلى أن هذا الكتاب وما حوى، يسجل ويأخذ كل شيء بالصوت والصورة - الرؤية - وأظن أنه قد سبق وأشرنا إلى هذه الإشارة بصورة سريعة لأنها قد تأتى فى مكانها بتفصيل أكثر - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - ثم إن إشارة الصوت والصورة - الرؤية - القرآن الكريم ملء بالآيات التى تشير إلى ذلك منها آيتان وردتا معنا هنا ضمن آيات هذا المحور، منها آية المؤمنون وآية الجاثية، قوله تعالى: ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾. وقوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وقوله تعالى: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً﴾^(٢).

هاتان الآيتان ترى أنهما تشيران إلى قضية التسجيل الصوتى صراحة ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

(١) جامع أحكام القرطبي: ٤١٨ - ٤١٩/١٠.

(٢) سورة النبأ: آية «٤٠».

وهنا قد تقول أن النطق عائد إلى كتاب أى أن الكتاب هو الذى ينطق، كأن يقول أنتم فعلتم كذا وكذا، لا أن النطق يعود إلى الناطق - صاحب القول فى الدنيا نفسه - ونحن نقول لصاحب هذا القول: قد يكون ما قلته وأشرت إليه ممكنا وواردا، لو لم يرد فى آخر الآية نفسها ما يؤكد ما أشرنا إليه وهو أن الناطق هو القائل نفسه المسجل فى ذلك الكتاب، ألم يرد ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وماذا يعنى الاستنساخ؟ أليس من معانيه الكثيرة النقل، كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - السابق - وما النسخ إلا النقل من كتاب. إذن فالنسخ يعنى النقل، أى نقل صوتك الذى قلته وسجله رقيبك الذى معك فى كتابك، ثم نقله وأدخله فى الكتاب الأم، كما سبق ذلك سوف تأتى عن هذه الإشارة تفصيلات أكثر وأوضح بمشيئة الله تعالى وتوفيقه، أما آيات الرؤية «الصورة» - فكثيرة جداً جداً - وسوف تأتى بمشيئة الله تعالى فى موضعها - منها مثلاً آية البقرة^(١)، ومنها آية النبأ: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً﴾. وآية يونس^(٢).

وهى كثيرة، أما الأحاديث الدالة على ذلك فهى أكثر من أن تعد أو تحصى.. وفى هذه الآيات نرى أنها تنص على حقيقة التسجيل المرئى للأعمال ، فأية البقرة نراها تقول: ﴿نريهم أعمالهم حسرات﴾ إذن فحركات ما تعمل وتفعل محصاة مسجلة مرئية لا جدال فى ذلك أو شك، وإلا ماذا تعنى دلالة ﴿نريهم﴾ إن لم تكن هى رؤية ما عملوا فى الدنيا، وما عمل فى الدنيا لا يتم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولا يكون إلا إذا كان قد سبق أن صوّر فعلاً، وهذا ما تؤكد آية النبأ صراحة، ألا تنص على ذلك: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه..﴾ والنظر ترى إلى ماذا يكون أليس إلى رؤية وسيأتى تفصيل ذلك بمشيئة الله تعالى.

وهنا نعود إلى النص السابق، نص عمر وكعب الأخبار إذ فيه نقطة ربما قد تثير بعض التساؤلات حول الاستشهاد به.. كقول القائل: إن فى نص ما استشهاد به ما قد

(٢) سورة البقرة: آية «١٦٧».

(١) سورة يونس: آية «٦٤ . ٦١».

يشير فى النفس بعض الشكوك حول الاستشهاد به، من ذلك كون عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه وأرضاه - وهو من هو فى الصحابة - رضوان الله عليهم - والقريب من رسول الله ﷺ ولا يأخذ العلم منه ثم إنه - رضى الله تعالى عنه - ملهم هذه الأمة، ومع ذلك يسأل كعب الأحبار عن أمر الآخرة.. فكيف يكون ذلك ألا يجعلنا ذلك نشك؛ فى النص المستشهد به.. وفى الرد على ذلك نقول: أولا: أن كعب الأحبار حينما سئل ذلك السؤال لم يكن على يهوديته، بل قد أسلم، ومع إسلامه أنه حبر، والأحبار هم كبار علماء اليهود.. أوليس عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه، من ورد عنه أنه كان يسأل كعب الأحبار، بل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ورد عنه أنه كان يسأل كعب الأحبار كثيرا، وهو من هو فى علمه بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ولا ننسى أنه كان حبرا لهذه الأمة - ابن عباس رضى الله عنهما - ومدعو له بفقہ الدين وعلم التأويل، وفهم القرآن الكريم والسنة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. ثم إن عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه قد يكون نفسه كان عارفا عما سأل عنه كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه وأرضاه، ولكنه - رضى الله عنه - أراد أشياء منها: والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن يُعرّف الأمة بحقائق ربما بعضهم لا يعرف عنها شيئا فأراد أن يعرفهم بذلك وبطريق الحوار والاستجواب المرسخة للمعلومة، وعن طريق عالم كبير كان ذا شأن وقدم راسخة فى العلم فى ديانتة قبل الإسلام ثم جمع إليها ما علمه من الإسلام العظيم بعد دخوله فيه. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قد يكون أراد عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه شيئا آخر، وهو أن يؤكد حقائق عقيدية موجودة فى جميع الديانات، وبعض أهل هذه الديانات يجربونها عن العامة، فأراد أن يظهرها للعامة من الناس سواء كانوا من أهل الإسلام أو غيره ومن يقول هذه الحقائق هو من هذا الغير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد يكون أراد أيضا أن يسمع هذه اللفظة من غيره على طريقة «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين». وهناك تكون أرسخ وأدعى للتذكر.. ألم ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وهو من هو وكفى، ومع

ذلك كان ﷺ يأتي إلى أبي موسى الأشعري أو أبي بن كعب رضى الله تعالى عنهما وارضاهما ويدعوهم لأن يقرأ عليه ﷺ القرآن الكريم أمامه فيبكي ﷺ حتى تخضل لحيته ﷺ، فيقول لأبي موسى لقد أوتيت زممارا من مزامير داود عليه الصلاة والسلام، ويقول لأبي بن كعب أن الله تعالى يحب أن يسمع صوتك بالقرآن يا أبا.. فلماذا لا يكون من هذا القبيل - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والحكمة ضالة المؤمن كما يقولون.

هذا ما أوجزناه عن أول آيات هذا المحور - محور كتاب الأعمال - أما آيتا الإسراء (١٢، ١٣) فقد سبق الحديث عنهما عندما أشرنا في الحديث عن نورانية «أم الكتاب» وما فيه وجميع الآيات السابقة تعطينا حقائق تتوع اللوح الواحد خصوصا وعموما كما سبق.. وجميع ما سبق من لطائف وإشارات سوف نرى أمثالها في المحاور الأخرى، سواء كان ذلك في كتاب الآجال، أو الأرزاق، وبكل ما يخص ويتعلق بالإنسان وبيئاته وأمور الكون وقضاياها كهذا المحور.

آيات المحور الثالث:

كتاب الآجال

وفي هذا المحور سوف نكتفى بإيراد بعض الآيات الرئيسية كنماذج فقط، ثم نحاول أن نورد بعد ذلك نبذا مما ورد وقيل عن بعض كبار الصحابة - رضوان الله تعالى عنهم - أجمعين وبعض المفسرين بمشيئة الله تعالى.

فمع الآية الأولى:

١ - قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾^(١).

٢ - قال تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾^(٢).

(١) سورة الرعد: آية «٢٨».

(٢) سورة الحجر: آية «٤».

٣ - قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾^(١).

٤ - قال تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾^(٢).

هذه بعض آيات هذا المحور، وليست هي كل ما قيل عنه من آيات، بل الآيات عنه كثيرة جداً، ولكننا أحببنا أن نكتفى بهذه كنماذج لهذا الأمر وتنوعه وتخصصه أيضاً.. وسواء كان ذلك التنوع والتخصص خاصاً بأجال أعمار الإنسان أو غيره مما هو موجود في هذا الكون الفسيح، بل الكون نفسه له كتاب بأجله المحدد له، ينتهي كما حدده له خالقه، وباستعراض سريع نجد أن الآية الأولى تنص على أن كل شيء في الوجود المخلوق له أجل يخصه، وأن هذا الأجل موجود ومدون ومثبت في كتاب خاص به، والآية الثانية تشير إلى أن القرى - المدن - لها أيضاً آجال محددة معلومة لله تعالى إذا حانت تنتهي، وأن هذا الانتهاء هو بيد الله تعالى وحده القادر بإنهائه، كما أشارت إلى ذلك الآية الثالثة، أما الآية الرابعة فنراها تشير إلى تفصيل ما قلناه من أن كل شيء مهما كان نوعه له أجل محدد ومعلوم، فحمل الأنثى ووضعها ونقص الأعمار - الآجال - وزيادتها كل أمر من ذلك له أجله المثبوت في كتابه الخاص به.

وقبل أن نقول أى تعليق حول ذلك.. ترى ماذا ورد عن هذه الآيات وما شابها في كتب التفسير والحديث أو بعض كتب الأثر ولو بصورة موجزة جداً، لنستثير به فيما سنقول حولها بعد ذلك - بإذن الله تعالى وتوفيقه - فمثلاً آية آل عمران فماذا قيل عنها بإيجاز؟ جاء في تفسير الشيخ الرازى «... قيل المراد بالكتاب المؤجل، هو الكتاب المشتمل على الآجال، ويقال: إنه هو اللوح المحفوظ، كما ورد في الحديث أنه تعالى قال: «للقلم اكتب فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.. واعلم أن جميع الحوادث

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٥.

(٢) سورة فاطر: آية ١١.

لا بد أن تكون معلومة لله تعالى، وجميع حوادث هذا العالم من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة، لا بد أن تكون مكتوبة في اللوح المحفوظ»^(١).

هذا موجز من تفسير الرازي وعلى صغره نراه يثبت ويشير إلى قضايا كثيرة وكبيرة ومتنوعة، وفيه ترى أن الأمر لا يقف عند الآجال والأعمال والأرزاق، بل السعادة لها كتاب وأجل، الشقاوة لها كتاب وأجل، فهذا النص رغم صغره يثبت حقيقة أشرنا إليها من قضايا التخصص والتنوع وتعدد كتبها بناء على ذلك، والجميع يحويها كتاب عام والكل مدخل فيه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن شرح الشيخ الرازي يفصل قضية الخلاف بين كثير من المفسرين الذين سبق أن اختلفوا في قضية «أم الكتاب واللوح المحفوظ» فهو يشير لنا إلى قضية هذا التنوع والتخصص أدى إلى هذا التعدد والجميع يؤمها كتاب واحد هو لها أم وإمام يشملها، فكل شيء قد حفظ في كتابه الخاص به والجميع مدرج مدخل في أمها جميعا «أم الكتاب».

إن التأمل فيما ورد حول هذا الكتاب وكتب الآجال من آيات وأحاديث لشيء يحار فيه العقل، كيف لا يحار أمام هذه القدرة الخلاقة المبدعة في هذه الصنعة والدقة اللطيفة إنه ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ (النمل).

فهذه آية فاطر «السابقة» التي كشفت لنا عن أمور كثيرة من قضايا هذا الإتيان والإبداع «وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب».

فالإنسان ليس له أجل واحد فقط، بل آجال كثيرة متعددة يؤمها أجل عام، بمعنى أن نسخة الإنسان الخاصة بالدنيا لها أجل عام نهائي مرتبطة به آجال ذات اختصاصات متعددة، فخرج جزئياته من أصله - لوحه الخاص به في أم الكتاب - وهبوطها إلى الدنيا لها أجل خاص محدد تجمع هذه الذرات في نباتات معينة

(١) تفسير الرازي: ٩/٢٤.

ووصولها إلى مستقرها الديني الأول وهو صلب الأب له أجل بكتاب خاص - رقيقة خاصة - بمراحل خلقه وتخلقه وبناءه في الرحم لها كتب خاصة - رقائق خاصة - بذلك ثم خروجه بعد ذلك إلى ساحة الشقاء والكدر - عالم الدنيا - نشأته ونموه ومعيشته إلى أن يحين وصوله إلى مرحلة الأجل الهام النهائي أجل الخروج إلى عالم البرزخ، كل تلك النشأة والنمو والمعيشة لها كتب متعددة خاصة بها، كما أن عالم البرزخ له كتبه وكتابه الأجل، وكل تلك الأشياء يحويها كتاب عام بها وهي مثبتة به وهو الأصل لها، ثم إنه هو نفسه مدخل محفوظ في الأم لكل الكتب والأصول وهو «أم الكتاب».

الأجل والبرمجة

إذن فكل صغيرة وكبيرة تخص هذا المخلوق الإنساني أو الوجود الكوني كله وما فيه له كتبه - رقائقه وأدساكه الخاصة به - وكل هذه الإشارات السابقة أشار إليها المفسرون ورواة الأحاديث على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فهذا الشيخ القرطبي صاحب جامع أحكام القرآن الكريم يورد عن آية «فاطر» السابقة ما سوف نوجز منه الآتي:

يقول تعالى: ﴿...ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

قال: أي جعلكم أزواجا فيزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان ثم يخرج شيء عن تقديره ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره: كم هو سنة.. كم هو ساعة.. ثم يكتب في كتاب آخر: نقص من عمره يوم.. نقص شهر.. نقص سنة حتى يستوفى أجله.

وعن سعيد بن جبیر - رضي الله تعالى عنه - أيضا يكتب عمره: كذا سنة وكذا سنة.. ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره.

وقيل: إن الله تعالى كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع.. وتسعين إن عصى أيهما بلغ فهو في كتاب.. وهذا مثل قوله ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه». أى أنه يكتب في اللوح، عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة.. فيبين ذلك في موضع آخر من اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه.. فمن اطلع على الأول دون الثاني ظهر أنه زيادة أو نقصان «إن ذلك على الله يسير» أى كتابة الآجال والأعمال غير متعذر عليه سبحانه وتعالى^(١).

هذا موجز عما ورد حول هذه الآية، وبالله انظروا معى إلى هذا التنظيم الإحصائى العظيم ﴿وكل شئ عنده بمقدار﴾ العمر مدون بالدقيقة والثانية والساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة والسنين، ومدون بقرينه النقص التنازلى، وفى مكان مقابل إن كان سيزيد أو لا، ولم يزد ولم ينقص. إنها دقة «من أتقن كل شئ».

أولا يقرب ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بدون مشابهة أو مماثلة، وإنما تقريب صورة فقط - من عمل كمبيوترات رصد ميزانيات الدول والبنوك من حيث إدخال وسحب الأرصدة وما تبقى منها، أى ميزانية الواردات والمصروفات والمتبقيات، سواء كان ذلك للمراكز الرئيسية أو ما يرتبط بها من فروع وسحب وإدخال - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الدقة الإحصائية والبرمجة الكمبيوترية - إن جاز لنا هذا التعبير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يجليها ويفصلها لنا بشكل أوضح، بل يقربها بصورة أكثر مما قلنا، ما ورد فى خبر الإسراء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «مررت على ملك آخر جالس على كرسى، إذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه، ويده لوح مكتوب ينظر فيه، لا تلتفت عنه يمينا ولا شمالا.. فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا ملك الموت.. فقلت: يا ملك الموت كيف تقدر على قبض جميع أرواح من فى الأرض، برها ويحرها؟»

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١٤/٢٢٢.

قال ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى، وجميع الخلائق بين عيني، ويداي تبلغان المشرق والمغرب فإذا نفذ أجل عبد نظرت إليه، عرف أعوانى من الملائكة أنه مقبوض، عدوا فبطشوا به يعالجون نزع روحه، فإذا بلغوا بالروح الحلقوم علمت ذلك فلم يخف على شيء من أمره، مددت يدي فأنزعه من جسده، وآلى قبضه.

وفى الخبر أن ملك الموت جالس وبين يديه صحيفة يكتب فيها له فى ليلة النصف من شعبان، وهى الليلة «التي يفرق فيها كل امر حكيم» من الأرزاق والآجال فى قول بعض العلماء، عكرمة وغيره: والصحيح أن الليلة هى ليلة القدر من شهر رمضان، وهو قول قتادة والحسن ومجاهد وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ويدل عليه قوله تعالى: ﴿حَمْدُكَ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعنى القرآن.

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: إن الله يقضى الأفضية فى ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها فى ليلة القدر.. وكان هذا جمعا بين القولين. والله تعالى أعلم. فإذا انقضى عمر ذلك الشخص الذى حان قبض روحه، سقطت ورقة من سدرة المنتهى التى فيها اسمه على اسمه فى الصحيفة فعرف أنه قد فرغ أجله وانقطع أجله.

وفى الخبر أن ملك الموت تحت العرش يسقط عليه صحائف من يموت من تحت العرش: الصحف هنا ورق السدر^(١).

هكذا رووا وبمنظرة سريعة فاحصة عليه ترى ما الذى يمكن أن نأخذه من هذا النص المروى؟ ما الذى يمكن أن نأخذه من قول ملك الموت عليه الصلاة والسلام لرسول الله ﷺ: ألا ترى أن جميع الخلائق:

«بين عيني».

«والدنيا كلها بين ركبتى».

«ويداي تبلغان المشرق والمغرب».

(١) التذكرة للقرطبي: ٨٢ - ١/٨٣.

ألا يعطينا ذلك أن نسخة كاملة بجميع ما فيها مستنسخة من نسخة الدنيا التي نحن نعيش فيها الآن هي مع ملك الموت عليه الصلاة والسلام، صورة طبق الأصل مستنسخة من نسخة هذه الدنيا، نسخة متحركة حية نابضة بالحياة وإن كانت طبيعة الخصائص مختلفة إذ نسخة ما نحن فيها هي مادية، أى أن الجانب المادى هو العنصر الغالب عليها بعكس النسخة التي مع ملك الموت عليه الصلاة والسلام، فهي نورانية . طاقة بحتة، للملأمة ومواءمة بيئته الطبيعية النورانية التي هو فيها، بل طبيعة من يتعامل معها بحسب مهمته وطبيعة عمله المرتبطة بها، وإن كان الجميع نسخة دنيانا ونسخة ملك الموت عليه الصلاة والسلام مستنسخ من «أم الكتاب» . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . هذا يؤكد الخبر المروى عن عكرمة والذى منه «...وإذا بين يديه . أى ملك الموت عليه الصلاة والسلام . الأرض بما اشتملت عليه من الجبال والسهول والفيافي والجن والإنس والدواب، وما أحاط بها من البحار وما علاها من الأجواء في ثغرة نحره كالخردلة في فلات من الأرض..»^(١).

إذن فالخبر يؤكد لنا حقيقة كونها نسخة مستنسخة منها طبق الأصل بجميع ما فيها، فالنص يقول: «وإذا بين عينيه الأرض بما اشتملت..» ثم فصل فقال: «من الجبال والشجر والجن والإنس والبحار... إلخ» إذن فهي منها طبق الأصل، أما قولنا صورة فهي فعلا . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . صورة مدمجة مدخلة . مبرمجة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . فى لوح خاص بها . كتاب . أو دسك . إن جاز لنا التعبير . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهذا يدل عليه ويؤكد الرواية الأخرى التي رويت لهذا النص وهي منها .

إذن فهي موجودة بداخل طست جهاز حسب عرفنا العلمى الحديث . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ولكن كونها صورة لا يفصلها أو

(١) التذكرة للقرطبي: ١/٨٥ .

يبعدها عن ارتباطها بالنسخة الأرضية، كما أن الجميع مرتبط بالنسخة الأصل في «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا الارتباط ورد في النص إشارات كثيرة تؤكد وتشير إليه، منها أن التعميم الذي جاء في بداية النص وهو قوله: «وإذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه» جاء في النص أيضا تخصيص له، أي أنه وإن كانت جميع الدنيا بين ركبتيه، إلا أن الاختصاص المباشر له مربوط بأمرين؛ الأول: أن مباشرة مهمته وتأديتها وإن كانت مرتبطة بالجميع إلا أنها وقتية مرتبطة بجمعية معينة، أي أن هذه النسخة الدنيوية الجمعية الموجودة في الطست الذي بين ركبتيه، مستنسخ منها صورة خاصة بفئة انقضت آجالهم وارتبطت نهايتها بزمن معين، وهذه الصورة المستنسخة الخاصة بتلك الفئة تؤخذ وتدخل في لوح آخر خاص بمصروفات هذا الزمن المعين - إن جاز لنا التعبير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا اللوح الخاص بالنسخة الخاصة هو قوله ﷺ: «.. ولوح مكتوب ينظر فيه، لا يلتفت عنه يمينا ولا شمالا...». والذي يفصله ويجليه ما جاء في الخبر الآخر: «أن ملك الموت جالس وبين يديه صحيفة يكتب فيها له في ليلة النصف من شعبان أو ليلة القدر من الأرزاق والآجال ما هو خاص بالعام المقبل من تلك الليلة.. فإذا انقضى عمر ذلك الشخص الذي حان قبض روحه سقطت ورقة من سدرة المنتهى التي فيها اسمه على اسمه الذي في الصحيفة فعرف أنه قد يفرغ أجله.. إلخ.

إذن فمن حانت منيتهم خلال العام المقبل هم الذين يدخلون في تلك الصحيفة أو اللوح الذي بين يديه، وعليهم يكون التركيز الشديد وعدم الالتفات عنهم لا يمينا ولا شمالا.. وقوله سقطت ورقة من سدرة المنتهى التي فيها اسمه على اسمه الذي في الصحيفة التي بين يديه والمرتبطة باللوح الأم الذي بين ركبتيه المرتبط بلوح الدنيا الذي نحن فيه يعطينا حقيقة الترابط بين الاستنساخ الصوري والأصل، فالصورة الأصلية التي في «أم الكتاب» تموت^(١) أولا ومنها تتطلق الإشارة إلى الصورة

(١) تموت مقصود بها «تخرج من دائرة التركيز - والله تعالى أعلم بالحقيقة».

التي في اللوح الذي بين يدي ملك الموت، ومنها تتطرق إلى الصورة الموجودة مع الملك الموكل بك، والذي هو أيضا من أعوان ملك الموت الرئيسى: ﴿ل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾^(١).. ولذلك قول ابن عباس - رضى الله عنهما - فى جمعه فيما ورد من خلاف بين الليلتين: ليلة النصف من شعبان وليلة القدر قوله: «إن الله تعالى يقضى الأقضية فى ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها فى ليلة القدر.. وكل الحالات المشار إليها مدلول عليه من القرآن الكريم وسيأتى بعد هذا بمشيئة الله تعالى بل إن حقيقة ارتباط جميع كل تلك النسخ يؤكد ما جاء فى الخبر السابق «من أن ملك الموت تحت العرش يسقط عليه صحائف من يموت من تحت العرش..» وهذا يؤكد قوله تعالى - السابق - ﴿وان من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(٢) وما جاء عنه كما سبق فى الأثر المروى عن جعفر الصادق: «بما معناه.. ما من شىء فى البر ولا فى البحر إلا فى العرش مثال له..»^(٣).

إذن فالموت يبدأ بالأصل الذى استنسخت منه جميع الصور الأخرى - أى تلك الصور الأصل الموجودة فى «أم الكتاب» وهذا يؤكد أيضا الآيات القرآنية الكثيرة التى أشارت إلى ما سبق أن قلناه آنفاً، والتى أدت لاختلاف كثير من السلف حول قضية التوفى تلك، إذ هناك آيات أشارت إلى أن التوفى يكون مباشرة من قبل الحق جل سناه، وبعضها أشارت إلى أن التوفى من قبل ملك الموت وبعضها أشار إلى أن التوفى من الأعوان، وقد احتد الخلاف وتنوع حول ذلك مما حدا ببعضهم إلى أن توسط وجمع بين كل الآراء وخرج برأى وسط تأمله قد لا يبعد عما قلناه، بل قد يكون مصدرا له، وهنا لابد من أن نورد بعضا مما أشرنا إليه، بل هناك أحاديث كثيرة وردت بنفس ما أشارت إليه دلالات الآيات فمن الآيات:

قال الشيخ القرطبى: «ذكر الله تعالى التوفى فى كتابه مجملا ومفصلا - أ - فقال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وهو الذى أحياكم ثم

(١) سورة السجدة آية ٤١١.

(٢) سورة الحجر آية ٢١.

(٣) جامع أحكام القرطبى ج ١٠.

(٤) سورة الزمر آية ٤٢.

يميتكم ثم يحييكم﴿^(٢)﴾، وقال تعالى: ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم﴿^(١)﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴿^(٣)﴾﴾.

قال تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴿^(٣)﴾﴾، وقال تعالى: ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴿^(٤)﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴿^(٥)﴾﴾.

هذا نموذج من تلك الآيات الكثيرة وهو مجمل وقد فصلته السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فى أحاديث كثيرة جداً.. وهذه النماذج الثلاثة من الآيات وتتوعها قد تؤدى كما يقول القرطبي: «لأن يقول قائل: كيف الجمع بين هذه الآيات؟ وكيف يقبض ملك الموت فى زمن كل من يموت فى المشرق والمغرب؟»

هذا ما قاله القرطبي، بل إن هناك إضافة لهذا السؤال وهو: ترى من المباشر لقبض الأرواح هل هو الحق جل سناه أم هو ملك الموت أم هم الملائكة الأعوان؟

يقول القرطبي: إن المتوفى على الحقيقة هو الله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وتارة يضاف ذلك إلى ملك الموت لمباشرته ذلك الأمر.. وتارة يضاف إلى أعوان ملك الموت من الملائكة، لأنهم يتولون ذلك أيضاً كما أشارت إلى ذلك الآيات والأحاديث على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وقال الكلبي: يقبض ملك الموت الروح من الجسد، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمناً، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً.. وهذا المعنى منصوص عليه فى حديث البراء - رضى الله تعالى عنه.

(١) سورة الملك آية «٢»

(٢) سورة السجدة آية «١١»

(٣) سورة النحل آية «٣٢»

(٤) سورة الأنعام آية «٦١»

(٥) سورة الأنعام آية «٩٢»

وفى الخبر: عن النبى ﷺ «إن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بقلوه وفصيله، ألا هلم.. ويهيب: يدعو. يقال: أهاب الرجل بغنمه أى صاح بها لتقف أو لترجع.. فأخبر صلى الله عليه وسلم: أنه يدعو الأرواح التى يتوفاها الله ويقبضها.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبى ﷺ: أرفق بصاحبى فإنه مؤمن فقال ملك الموت عليه السلام: يا محمد طب نفسا، وقر عينا، فإنى بكل مؤمن رفيق واعلم أن ما من أهل مدر ولا شعر فى بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها.

قال الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى: وفى هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل الأرواح، وأن تصرفه كله بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه.

قال ابن عطية: وروى فى الحديث أن البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت كأنه يعدم حياتها.

قال: وكذلك الأمر فى بنى آدم.. إلا أنه نوع مشرف بتصرف ملك الموت وملائكته معه فى قبض أرواحهم.. فخلق الله ملك الموت، وخلق على يديه قبض الأرواح وانسلالها من الأجسام وإخراجها منه.. وخلق جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره.. فملك الموت يقبض الأرواح والأعوان يعالجون. والله تعالى يزهب الأرواح، وهذا هو الجمع بين الآية والحديث، لكنه لما كان ملك الموت متوليا ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفى إليه كما أضيف الخلق للملك... إلخ^(١).

لمحة سريعة عن عملية الموت والبرمجة

إذن فالتصوص تشير إلى أن المتوفى الحقيقى هو الحق جل سنامه. وذلك بإزهاق الروح فماذا يعنى إزهاق الروح؟ أو بمعنى أوضح: ما الذى يعنيه الموت؟ والله تعالى

(١) يتصرف واختصار شديد من كتاب التذكرة للشيخ القرطبى من ٧٩ - ١/٨٩.

أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وبالعودة إلى النصوص السابقة نجد أن عملية الموت تبدأ بإزهاق الحق جل سناه للروح فماذا تقول لغة القرآن الكريم عن معنى الإزهاق وبالرجوع لأقرب مرجع لهذه اللغة نراها تقول - المادة طويلة نأخذ منها ما يخصنا.

«زهق العظم - كمنع - زهوقا - اكتزُ مخُه، كأزهق والمخ اكتز.. والباطل اضمحل.. والسهم جاوز الهدف.. ونفسه خرجت... والشئ بطل وهلك فهو زاهق».

والزاهق: اليابس.

والزهالق: السراج مادام في القنديل.

والزهمقة: زهومة رائحة الجسد من صُنان أو نتن^(١).

إذن فالزهق: تشير مادته لدلالات كثيرة، ولكننا سنتوقف عند بعض منها: كاكتراز المخ عموماً، ومخ العظم خصوصاً. وتوقف الشئ وتلاشيهِ، واليبوسة وتوقد شئ في شئ، فإذا خرج منه أدى خروجه لنتانة ما كان فيه - رائحة الجسد - هذه هي أهم معاني الزهق: وقبل أن نتدخل مع بعض هذه المعاني يستحسن أن نقف عند كلمة ارتبطت دلالاتها بدلالة الإزهاق، وكأن معناها لا يكتمل إيضاحه إلا بها، وهو «الكز» الذي جاء مع بداية معنى المادة «زهق»، فما هي أهم دلالات معاني «مادة الكزاة».

يقول صاحب القاموس: «الكزاة، والكزوة بالضم: اليُبس والانقباض... وكزُ الشئ ضيق خطاه تقاربت وقوس كز: أى فى عودها يُيس عن الانعطاف.. وذهب كزة أى صلب جداً.. واكتزُ تقبُض.. كعز كمنع: أى جمع الشئ بأصابعه.. كلزه.. يكلزه: جمعه.

واكلاز انقبض: أو هو انقباض فى خفاء»^(٢).

هذه هي أهم معاني «الكز» ونلاحظ أن الارتباط قوياً بين مادة الإزهاق والكز، فاليبس والانقباض والتلاشي والتوقف والجميع هي قواسم مشتركة بين المادتين وما

(١) القاموس المحيط: ٣/٢٤٢.

(٢) القاموس المحيط: ٢/١٨٩.

يتفرع عنهما من دلالات ومعان، ومن هنا ندرك أن إزهاق الأرواح يعنى إيقاف الدورة الحيوية المتحركة داخل الأجساد وذلك لورود الدلالات اللغوية الدالة على هذا المعنى، فالانقباض واليبس يعنى التوقف، أى توقف الطاقة الحرارية المتحركة داخل تلك الأجساد، وذلك لأن دلالات الإزهاق «يعنى السراج مادام فى القنديل» وإشارة السراج والقنديل هى خير إشارة لغوية تدلنا على هذه الإشارة. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. فالسراج يعنى الطاقة الحرارية المشتعلة داخل القنديل. إذن فالسراج إشارة إلى الروح، والقنديل هو إشارة إلى الجسد. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. فإذا انطفأت تلك الشعلة. الروح. فى القنديل. الجسد بقى فارغاً صليبا يابسا عن الليونة والرطوبة التى كانت بداخله تميله يمينا وشمالاً بدليل قولهم «قوس كز» أى فى عودها ييس وصلابة عن الانعطاف.. فإذا أزھقت تلك الحرارة. الروح. بإيقافها وقبضها ونزعها، نتن الوعاء الذى كان يحويها، وهذا ما يحصل للأجساد بعد خروج الأرواح. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فالإيقاف، بناء على ما ورد من نصوص شرعية ولغوية. كما سبق. يكون من قبل الحق جل سناه، وعندما يتم هذا الإيقاف وعندما يأتى دور ملك الموت. الرئيس العام. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهو دور ذو مهمتين رئيسيتين الأولى منهما تبدأ بعد الإيقاف مباشرة، وهى مهمة اختصاصية تجليها لنا بعض من الإشارات التى وردت ضمن النصوص السابقة الذكر منها تلك الإشارة التى نص عليها القرطبى فى التذكرة وهى قوله: «وفى الخبر عن النبى ﷺ: أن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بقلوه أو فصيله ألا هلم...».

ويهيب: أى يدعو.. يقال: أهاب الرجل بغنمه: أى صاح بها لتقف.. ولترجع.

فأخبر النبى ﷺ: أنه أى ملك الموت. يدعو الأرواح التى يتوفاها الله تعالى ويقبضها. أى ملك الموت نفسه. يقوم بقبضها» وهذه هى الإشارة، وفيها الإشارة إلى مهمتى ملك الموت. عليه الصلاة والسلام. جميعها.

فالأولى: أنه عليه الصلاة والسلام يقوم بدعوة جزئيات ذلك الوقود الروحاني - الروح - المنتشر في جميع الأعضاء الرئيسية المُشكَّلة بمجموعها الجسد الإنساني - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يدعوها لتقف عن أداء مهمتها، وترجع إلى مكان المغذى الرئيسى لها في عجب الذنب - كما ستأتى الإشارة إليه هنا بإشارة سريعة وفي بابها الأساسى التالى لهذا الباب وما بعده بإذن الله تعالى - بعد أن تم فصلها - إزهاقها - عنه وهنا تأتى المهمة الأولى للأعوان وهى جمع تلك الجزئيات الموقوفة المدعوة للخروج أى سحبها من أماكنها التى كانت فيها لتشغيلها - أى بعث الحركة والحياة فيها - بعد أن توقفت، لتأتى المهمة الثانية لملك الموت - عليه الصلاة والسلام - وهى قوله ﷺ فى الإشارة السابقة «يدعو الأرواح لتقف وترجع.. ويقبضها» فقوله صلى الله عليه وسلم يقبضها، هى المهمة الثانية لملك الموت عليه الصلاة والسلام.. أنه بعد أن يقوم الأعوان بسحب تلك الجزئيات المنتشرة فى الجسد المركب المترابط يقوم هو باستلامها منهم، بعد أن היאها لهم بإهابتها وفصلها من أماكنها التى كانت بها، كما ورد فى الخبر «أنه ينزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى، وملك يجذبها من قدمه اليسرى، وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى، ذكره أبو ماجد... وقال أيضا وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع والنفس تنسل انسلال القذاة من السفا.. هكذا ذكر صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام وقال: فإذا احتضرت نفسه إلى القلب مات لسانه عن النطق فما أحد ينطق. والنفس مجموعة فى صدره لسرين: أحدهما: أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه... وأما السر الآخر فلأن الذى فيه حركة الصوت المتدفقة من الحرارة الفريزية فصار نفسه متغير الحالين، حال الارتفاع والبرودة لأنه فقد الحرارة^(١) إذن فالأعوان يقومون بجذب وجمع جزئيات تلك الطاقة الحرارية - الروح - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - التى تم تفكيكها فى داخل الجسد، والتى

(١) التذكرة للقرطبي: ٨٢ - ٨٤/١.

بتفكيكها توقفت الحركة الحيوية في ذلك الجسد.. وقولنا الطاقة الحرارية للروح، فلقوله «فقد الحرارة». وهذا يدلنا على أن هذه الروح المتحركة في هذا الجسد، هي طاقة ولكنها مجهولة القانون بالنسبة لنا في الدنيا «قل الروح من أمر ربي» ولكنها في داخل الجسد، هي محكومة بقانون الجسد، من حيث تحريكها لأعضائه بوجودها فيها، فإذا سحبت منه بعد تفكيكها منه تيبس وتصلب وفقد الحركة والحياة.. وإذا أردنا أن نستأنس ذلك علميا فسنجد أن علماء الطبيعة الكونية يقولون: «..إن عالم الأحياء على كوكب الأرض هو بحق عالم الكريون.. والحياة في هذه الدنيا أو النشأة الأولى هي حياة كبريوية نشأت بتماسك ذرات الكريون.. ومحتم أن تنتهي بتفكك تلك الذرات.. فمن طبيعة النشأة الأولى في الحياة الدنيا ظاهرتان: ظاهرة البناء وظاهرة الهدم مع دورة قوى الطاقة بين هاتين الظاهرتين.. ففي البناء تختزن الطاقة أما في الهدم فتتطلق... إلخ»^(١).

إذن فالعلم الحديث يجلى لنا تلك الإشارات، فالحياة الأرضية هي عنصرية الكريون، نشأت بتماسك ذراته، وانتهائها يتم بتفكيك تلك الذرات؟ وهنا قد تسأل ما الذي يربط تلك الذرات أو الجزيئات ويمسك بعضها ببعض لتتشأ على أثر هذا التماسك الحياة الدنيوية.

يقول أهل العلم - كما رأينا: «..إن بين ظاهرتي البناء - الحياة - والهدم - الموت - دورة قوى الطاقة - إذن فالطاقة - الروح بدورتها بين هذه الذرات وتحريكها لها، تكون الحياة بإذن الله تعالى، ولذلك قالوا «ففي البناء تختزن الطاقة، يعني أن البناء لا يكون إلا إذا وجدت تلك الطاقة بين ذراته ودارت بعكس الهدم - الموت - فإنه يعني أن تلك الذرات قد تفككت عن بعضها البعض أي أن الطاقة التي كانت مخزنة بتلك الذرات ورابطة لها قد انطلقت - سحبت - منها فتفككت فانهدم البنيان ومات «وذلك أن لكل جزئ منها شحنته الكهربائية، وبسبب تلك الشحنات يمكن لتلك الجزيئات أن تتلاصق، ويخلوها منها - الطاقة - تتأخر بعيدا عن بعضها»^(٢).

(١) التطور وأصل الإنسان لمحمد فوزي جاب آدم: ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٢١.

وهذا الإيضاح العلمى، هو ما أو جزته وأجملته تلك الإشارات الدينية بقولها:
«لأنه فقد الحرارة».

إذن فالإنسان الحقيقى هو تلك الطاقة الحرارية الروحانية، المتجمعة والمتحيزة بداخل هذا الجسد المادى، فإذا فككت منه وسحبت انتهى أمر هذا الجسد ومات، وإذا تجمعت بداخله حيا وقام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأظن أن هذه الإشارة توضح لنا بعضا من المهمة الثانية لملك الموت، وهى قبضه للروح بعد أن يقوم الأعوان بجمع أجزائها وسحبها من الجسد، فقبضه لها يعنى جمعه لها لتصبح بذلك الجمع والربط - القبض - أسانا كما كان ولكنه بقانون آخر ويخصائص هى أقرب إلى ما هى ذاهبة إليه - قانون الآخرة - القيامة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهذا المعنى يلتقى مع نفس ما أشار به الشيخ أبو حامد فى كتاب كشف علوم الآخرة حينما قال: «فإذا قبض الملك النفس السعيدة، تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة، ولهما رائحة طيبة، فيلفونها فى حرير من حرير الجنة، وهى على قدر النحلة، شخص إنسانى، ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب له فى دار الدنيا، فيعرجون بها فى الهواء فلا يزال يمر بالأمم السالفة والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى ينتهى إلى سماء الدنيا ... إلخ».

وأما الكافر فتؤخذ نفسه عنفا، فإذا وجهه كآكل الحنظل والملك يقول: أخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له صراخ أعظم ما يكون لصراخ الحمير. فإذا قبضها عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه، سود الثياب منتن الرائحة، بأيديهم مسوح من شعر، فيلفونها فيستحيل شخصا إنسانيا على قدر الجرادة، فإن الكافر أعظم جرما من المؤمن، يعنى فى الجسم فى الآخرة وفى الصحيح إن ضرس الكافر فى النار، مثل أحد ... إلخ.

هذا ما أوجزناه من كتاب كشف علوم الآخرة، وفيه ترى أبا حامد الغزالى مع ما سبق وأشرنا به، وهو أن تلك الجزئيات بعد أن تُسحب يقبضها منهم عزرائيل عليه

الصلاة والسلام ويعيد تسليمها مرة ثانية لأعوانه الذين يقومون بلفها - وضعها - فيما يمكن لها أن تتحيز فيه لتصبح بتحيزها هذا إنساناً كاملاً، لكن النص كان دقيقاً في ألفاظه، إذ هو يقول: وبأيديهم إما حرير من حرير الجنة بالنسبة للمؤمن وإما مسوح من شعر بالنسبة للكافر فيلفونها فيه «أى يجعلون الروح فيه» فتستحيل شخصاً إنسانياً، فانظر معى إلى لفظ فتستحيل، أى أن تلك الجزيئات الحرارية - الروحانية - الطاقة - تتحول فيما تحيزت فيه إلى جسد بداخله روح مجموعهما يصبح مثلاً إنسانياً، وبالرغم أن النص يقول: شخصاً إنسانياً فإنه لم يقل: شخصاً إنسانياً كما كان فى الدنيا، أى جسماً مادياً إنسانياً، بل نراه يقول: «ما فقد من عقله وعلمه المكتسب له فى دار الدنيا».

إذن فالنص يشير إلى شيئين رئيسيين يستبعدان أن يكون هذا المثل الإنسانى الروحانى كما كان فى الدنيا، فهو يقول ما فقد من عقله ولا من علمه، ومعلوم أن العقل كما تقول اللغة العربية وأهل الفكر الإسلامى - كما سيأتى فى مكانه بمشيئة الله تعالى - هو شئ نورانى - أى طاقة - وكذلك العلم هو من عالم المعانى، والمعانى هى أشياء من جنس طبيعة العقل، إذن فهذا المثل الإنسانى، قد أصبح بعد سحب جزيئاته وقبضها من قبل ملك الموت عليه الصلاة والسلام - بيده يكون قد أهلها بهذا القبض لتستحيل إلى هذا التجسد الذى يمثل صاحبه تماماً، أى أنه زيد الذى كان فى الدنيا، ولكنه بصفة وخصائص طبيعية تختلف عن صفاته وخصائصه الدنيوية، إذ هى صفات خصائص تحمل صفات وخصائص عالم البرزخ، وهو قانون روحانى - الطاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أقرب فى صفاته وخصائصه إلى قانون المستقر الأخير - الآخرة - والله تعالى أعلم.

ومن هذا كله نصل بتوفيق الله تعالى وفضله، إلى أن عملية الموت ليست هى عدم محض، بل هى كما أشارت النصوص الدينية، عملية انتقال وتحول من حالة إلى أخرى، من دار إلى دار أخرى ذات خصائص وصفات تختلف عن سابقتها.. وهذه العملية الانتقالية، أمرها كائن بين التركيب والتفكيك، إذ بتركيب الجزيئات التى

بمجموعها تكون شخصا إنسانيا، يكون هذا الإنسان، وبتفكيكها يضمحل البنيان الإنساني ويهلك، وهذا يؤكد كل ما سبق، ويوجه أخص قضية عجب الذنب، الذى منه خلق الإنسان ومنه يعاد تركيبه كما فى الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام.. ولكن كما رأينا أن هذا التركيب لا يتم بنيانه وتحركه إلا بوجود الرابط الذى يربط بين جميع كل تلك الجزيئات ويمسك بعضها إلى بعض وأن ذلك الرابط هو تلك الطاقة الحرارية - الروح - المشحونة بها تلك الجزيئات، فإذا انتظمت دورة تلك الطاقة الحرارية بين هذه الجزيئات، كانت الحياة فيها وإذا أوقفت دورة تلك الشحنة الحرارية عن بعض. توقفت الحياة ولا تعود إلا إذا جمعت جزيئاتها وانتظمت دورتها من جديد فى أى شئ تستطيع أن تتحيز - بأمر الله تعالى وعونه - ولذلك رأينا أنها بمجرد لفها فى حرير من الجنة أو فى المسوح التى من الشعر بالنسبة للكافر، استحالت بتحيزها فيه وعاد انتظام دورتها فى ذلك من جديد فإذا بها شخص إنسانى، ولكن إشارة حرير الجنة ومسوح النار - أجازنا الله تعالى من ذلك - تعطينا حقيقة الطبيعة التى تحولت إليها، وهى الطبيعة النورانية وهذه الطبيعة النورانية، قد تفسر وتجلى لنا قول الرسول ﷺ: «أن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بقلوه أو فصيله ألا هلم».. يهيب: يدعو .. يقال أهاب الرجل بغنمه أى صاح بها لتقف أو لترجع.

فهذا النص الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قد يجلى حقيقة تلك السرعة الرهيبة فى عملية الموت، وسهولة تلك العملية فى التفكيك والتركيب، فملك الموت عليه الصلاة والسلام يصيح بتلك الطاقة الحرارية - الروح بنداء خاص فتقف فورا، فإذا وقفت تفككت، وتستجيب سريعا للخروج، فتخرج، أى أن تلك الطاقة الحرارية مشفرة بشفرة خاصة بهذا الأمر مع ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - الموكل بها، وهذه الإشارة تعطينا دلالة لفظ. يهيب فهو كما تراه لفظ يحمل فى دلالة معنى الإيقاف والرجوع، فهى تقف لتتفكك وترجع إلى الموكل بها، الذى يجمعها - بأمر الله تعالى وتوفيقه - من جديد وبخصائص قانون آخر غير ما كانت عليه - والله

تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وسوف يأتي تفصيل أكثر لهذه الإشارة عند الحديث عن قضية القلب وعجب الذنب والجزيئات الرئيسية والفرعية والنداء بمشيئة الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فالتشفير والبرمجة قد توضح لنا قضايا كثيرة من قضايا الإعجاز القرآني والحديث النبوي الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام حول إشارات الخلق والبعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فمثلا هذه الإشارة الواردة في إجابة عزرائيل عليه الصلاة والسلام على سؤال رسول الله ﷺ «يا ملك الموت كيف تقدر على قبض جميع أرواح من في الأرض برها وبحرها . فقال: ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتي وجميع الخلائق بين عيني ويدي تبلفان المشرق والمغرب ..» فقلوه: «ويدي تبلفان المشرق والمغرب» ألا يعطينا رمزا لمثل هذا التشفير والبرمجة - إن جاز لنا مثل هذا التعبير الاصطلاحي حسب مفهوم العصر العلمي - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالطست الذي جمعت فيه الدنيا بين ركبتيه - الجهاز - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - واللوح الآخر الذي في يده لا يلتفت عنه، وفيه يسقط الاسم المراد قبضه من فوق سدرة المنتهى، ترى كيف يكون سقوطه - والله تعالى أعلم - في اللوح الذي بين يديه .. ثم إن الأمر كله طاقة في طاقة . فملك الموت - عليه الصلاة والسلام نوراني، وكذلك ذلك اللوح . ثم إن الشيء المراد قبضه - الروح - هو أيضا أمر نوراني، فلم لا يكون إيقافها - أي الروح - عن طبيعة عملها وقبضها بشفرة في لوح عنده عليه الصلاة والسلام - من ضمن الألواح الموجودة معه فهي - الروح - في أي مكان كانت فهي في متناول يده - عليه الصلاة والسلام - إذن فقلوه «ويدي تبلفان المشرق والمغرب»، فيه إشارة من مثل ذلك إن صح هذا التعبير التجاوزي لاسيما وقد ورد - إن صح - في خبر آحادي رواه أبو نعيم، فيه أن ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - حرية يطعن بها الأرواح لتخرج، قال أبو نعيم الحافظ: «قال: حدثنا أحمد بن عبد الله

بن محمود قال: حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا نور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال: إن الملك الموت عليه الصلاة والسلام حرية تبلغ ما بين المشرق والمغرب فإذا انقضى أجل عبد من الدنيا ضرب رأسه بتلك الحرية وقال: الآن يزار بك عسكر الأموات»^(١).

إذن فهذا الخبر الأحادي إن صح، قد يفسر لنا قول ملك الموت عليه الصلاة والسلام «ويدأى تبلغان المشرق والمغرب» فهو - الخبر - يفسر لنا أن ذلك البلوغ يكون عن طريق تلك الحرية الطويلة، وهذه الحرية قد ورد أيضا عن أبى النعيم الحافظ والقرطبي إن صح ذلك عنهما - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنها حرية من نور، وهذه الدلالة النورانية قد يؤكدتها ويسندتها طبيعة ملك الموت عليه الصلاة والسلام - النورانية - وكون الأمر المقبوض - الروح - نوراني إذن فواسطة القبض تكون من نفس طبيعة القابض والمقبوض - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فهي نورانية. إذن فالرواية هي بذلك أقرب إلى الصحة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فإيقاف تلك الشحنة الحرارية - الروح - المتحركة داخل الجسد، يكون بإيقاف شفرتها المشفرة عنده عليه الصلاة والسلام - في ذلك اللوح الخاص بذلك كما سبق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قال: «من هنا تختلف أحوال الموتى، فمنهم من يطعنه الملك حينئذ بحرية مسمومة قد سقيت سما من نار فتفر الروح، وتفيض خارجه، فيأخذها الملك وهي ترعد أشبه شيء بالزئبق على قدر الجرادة شخصا إنسانيا، ثم يناولها الزبانية.. ومن الموتى من تجذب نفسه رويداً حتى تنحصر في الحنجرة، وليس يبقى في الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب، فحينئذ يطعننها بتلك الحرية الموصوفة..»^(٢).

(١) التذكرة للقرطبي: ١/٨٤.

(٢) المرجع السابق.

إذن فالتشفير البرمجي الآلى، لا يستبعد فى ذلك - إن صح وجاز لنا التعبير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سواء كان ذلك رقمياً - زيادة ونقصاً «يكتب عمره كذا سنة، دقيقة، ثانية، طردياً، ثم أسفله، أو فى شريحة أخرى، تشفير برمجي عكسى، ينقص كذا ثانية، دقيقة، ساعة، يوم، شهر، سنة، إلخ.... أو تلك الإشارة الأخرى، لما قد يسمونه اليوم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولا مشابهة - ببرمجة مذكرات الملخصات، ومذكرات التفسيرات والشروح، والتوضيح والتعليق، وهو قولهم السابق: «...قيل إن الله تعالى كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع... وتسعين سنة إن عصى...» فأيهما بلغ فهو كتاب..... أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ عمر فلان كذا سنة... فإن وصل رحمه زيد فى عمره كذا سنة... فبين ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه.. أو لا يصل رحمه... كما سبق فى تفسير القرطبي... وهناك أيضاً - برمجة وتشفير صور كل شئ فى الكون - كما سبق إيراد ذلك وما سيأتى بإذن الله تعالى - بعمومها،... ثم الألواح المختصة بكل شئ بمفرده والمرتبطة بالعموم ثم إشارة ارتباط كل ذلك عموميه وخصوصه بالأصل والأم (أم الكتاب) - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وفى تلك الأخبار نجد الكثير والكثير... فقد رأينا أن كل كتاب وما فيه له ملك مختص بمتابعة كل ما فيه وتنفيذه،... وكيف أنه يبرمج لكل ملك فى كتابه ما يخصه خلال العام الجديد،... وكيف أن ما كان فى كتبهم - أجهزتهم إن صح التعبير، والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - من اختصاصات العام المنصرف يُمَحَّى لِيُدَوَّن مكانه ما يخص العام الجديد ليتحقق قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد).

وما دنيانا إلا نسخة مما هناك وقد جعل الحق جل سناه لنا فيها من الأمور، ما قد يرشدنا ويدلنا على ما هناك من حقائق هى أعظم وأسمى من ذلك، ولكن للعلم والأسترشاد... أو لا يوجد فى دنيانا اليوم من أجهزة الكمبيوترات المركزية وما يرتبط بها من أجهزة فروع، ما قد يقرب لنا الصورة - بأمر الله تعالى - أليس كذلك؟

إذن نكون بهذا التوضيح السردى الموجز والسريع أيضا - نجد الإشارات المختلفة، المتنوعة، والمتخصصة فى جميع بقية آيات المحاور المختلفة، كآيات المحور الرابع، والذي سوف نورد بعض النماذج لآياته، وبدون أن ندخل فى أى تفاصيل لها، وإن كان فيها من الإشارات التى لم ترد فى سابقتها، ولكن طلبا للإيجاز والاختصار - والله سبحانه هو الموفق وحده سبحانه.

مع آيات من آيات المحور الرابع وهو الكتاب المبين

فمن آيات هذا المحور:

١ - قال تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾^(١).

٢ - قال تعالى: ﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾^(٢).

٣ - قال تعالى: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾^(٣).

٤ - قال تعالى: ﴿وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين﴾^(٤).

٥ - قال تعالى: ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾^(٥).

(١) سورة الأنعام: آية «٥٩».

(٢) سورة يونس: آية «٦١».

(٣) سورة هود: آية «٦».

(٤) سورة النمل: آية «٧٥».

(٥) سورة الأنعام: آية «٢٨».

- ٦ . قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾^(١).
- ٧ . قال تعالى: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾^(٢).
- ٨ . قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾^(٣).
- ٩ . قال تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً﴾^(٤).
- ١٠ . قال تعالى: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾^(٥).
- هذه بعض آيات من آيات هذا المحور، وهي كثيرة جداً، ولكننا اكتفينا بما سطرناه طلباً للاختصار.. ونحن إن وقفنا وقفة سريعة عند بعضها، كإشارة توضيحية، وتأكيداً لما سبق أن قلناه، فمثلاً آية الأنعام الأولى، ترى أنها تشير إلى حقائق ودقائق عظيمة جداً، فكل صغيرة مهما دقت، وكل كبيرة مهما كبرت في هذا الكون إلا وهي لا تخرج عن علمه . سبحانه وتعالى . وأنها مخزنة مدونة عنده في كتاب مبين. ومثلها آية يونس وكل الآيات. بل هناك إشارات وإشارات لا تعد ولا تحصى، فمثلاً لو نحن وقفنا عند مسمى أى يوم من أيام الأسبوع، ونظرنا لما قد يدور في ثانية من ثواني دقيقة من دقائق ساعة من ساعاته الأربع والعشرين، فماذا نحن واجدون في تلك الثانية، من مواليد لأناس ووفاة لآخرين، من أحداث خير أو شريمربها الكثيرون، دمعك لما سيقع مثل ذلك في الثانية التي تليها. فمثلاً لو

(١) سورة الأنفال: آية «٦٨».

(٢) سورة الأنفال: آية «٧٥».

(٣) سورة التوبة: آية «٣٦».

(٤) سورة الإسراء: آية «٤».

(٥) سورة الإسراء: آية «٥٨».

أخذنا ثانية الدقيقة الأولى من الساعة الأولى ليوم الأربعاء من شهر محرم سنة أربعمائة وألف للهجرة وأخذنا السجل الإحصائي من مستشفى واحد في مدينة واحدة، فماذا سنجد فيه قد أرصد من وفيات ومواليد، وذهبنا أيضا لمنزل واحد من منازل تلك المدينة وحاولنا أن نرصد ما جرى في هذا المنزل من أمور خير وشر وغير ذلك من قتل أو مرض، فهل يا ترى سنجد كل هذا الذي حدث في هذه الثانية من هذا اليوم الأربعاء سنة ١٤٠٠ هـ هو نفسه سيحدث في يوم الأربعاء من نفس الأسبوع التالي له من نفس هذا الشهر المحرم، أظن أن من يقول بمثل ذلك يكون قد فقد عقله، فإذا كان ذلك في ثانية من ثواني دقيقة من ساعة من ساعات يوم من أيام أسبوع، من شهر من سنة، فما بالك بما دار وسوف يدور في كل يوم يسمى بيوم الأربعاء عبر الدهور والأزمان؟ أفلا يعطينا ذلك إشارات وإشارات مهمة جدا جدا، قد تثبت وتؤكد ما سبق أن قلناه - بتوفيق الله تعالى وفضله - أفلا يعطينا هذا أن ذلك اليوم أو الأسبوع أو الشهر أو السنة أو الدقيقة، ما هو إلا رقيقة أو شريحة أو ديسك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قد شُفِّرَ ويُبرمج مما سيقع فيها ما لم يُشَفِّرَ ويُبرمج في أي يوم مثله مسماء من أيام الزمن؟ بل هناك من أحاديث الرسول ﷺ وما يؤكد أن كل يوم من الزمن هو يوم وخلق جديد يختلف عن سابقه بكل ما فيه، وإن اتفق مسمى اليوم نفسه مع مثله إلا أنه غيره، فقد روى: عن أبي موسى الأشعري - رضى الله تعالى عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيئاتها.. ويبعث يوم الجمعة: زهراء منيرة، أهلها محتفون بها كالعروس تهدي إلى كريمها تضيء لهم يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضا، وريحهم يسطع كالسّمك يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم الثقلان ما يطرقون تعجبا، يدخلون الجنة لا يخالطهم إلا المؤذنون المحتسبون»^(١) خرج القاضى الشريف أبو الحسن على بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمى العيسوى من ولد عيسى ابن على بن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى

(١) التذكرة للقرطبي: ١/٢٢١

عنهم، وإسناده صحيح وقال أبو عمران الجوني: «ما من ليلة تأتي إلا تتادى: اعملوا فيَّ ما استطعتم من خير، فلن أرجع إليكم إلى يوم القيامة» ذكره أبو نعيم.

وذكر أبو نعيم عن معاوية بن قررة بن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «ليس من يوم يأتي إلى ابن آدم إلا ينادى فيه: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد فاعمل فيَّ خيرا اشهد لك به غدا، فإنني لو قد مضيت لم ترني أبداً ويقول الليل مثل ذلك..» غريب من حديث معاوية تفرد به زيد العمي، ولا أعلمه مرفوعا عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد..^(١)

إذن فكل يوم هو خلق جديد غير اليوم الذي مثل مسماء وكذلك كل ليلة أو ليل يأتي هو غير سابقه الذي هو مثله مسمى «أنا خلق جديد.. فإنني لو قد مضيت لم ترني، ولن أرجع أبداً إلى يوم القيامة وحين أبعث لأفرغ وأعلن ما قد ادخل وحفظ في»، «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون»^(٢).

إذن فالיום أو الثانية أو الدقيقة منه، هو ظرف ووعاء لما وضع فيه وحفظ. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. ثم في النص شاهد آخر، وهو قوله: «تبعث الأيام على هيئاتها.. زهراء منيرة.. تضيء لهم.. يمشون في ضوئها.. ألوانهم كالثلج بياضا...» هذه النقاط ألا تؤكد لنا حقائق كثيرة جدا، منها ما نحن بصدد، وهو أن كل شيء يتحول ويؤول إلى أصله الذي كان عليه وعاد إليه وهو الطاقة، وما دام أن هذا اليوم هو أصلا طاقة، وتضيء لأصحابها، وما دامت كذلك أفلا يشير ذلك إلى قضية كون هذا اليوم ديسك. يدخل ويشفر فيه كل ما يعمل فيه بعد أن أفرغ منه ما كان من تشفير، مواليد ووفيات وأعمال كان زمنها دنيويا، ثم أعيد تشفير وإدخال ما يحدث في وقته وزمنه الخاص به، وبعد ذلك يختم ويرفع ويدخل في مكانه في أم الكتاب ويحفظ إلى حين يطلب وهو يوم القيامة، ولذلك قال ﷺ: «يبعث الله عز وجل الأيام يوم القيامة...» وهذا يؤكد ما جاء حول صحف الأعمال وكتابتها والخزنة،

(١) المرجع السابق ١/٢٢٨.

(٢) الجاثية آية ٢٩..

والحفظة الذين يأتون من صلاة الصبح، إلى صلاة العصر فيأتى ملائكة غيرهم يسجلون على ابن آدم إلى صلاة الصبح، وسوف تأتى إشارات كثيرة إلى ذلك . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فكل شيء فى هذا الكون مشفر ومبرمج محفوظ فى كتب . رقائق وشرائح . مدونة ومثبوتة فى أم الكتاب، والكتاب الأم والأصل لكل الكتب الرقائق والأدساك . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وما تفرع عنه، واذكر أننى قد سبق أن أوردت نصا للشيخ ابن عربى يشير إلى مثل ما قلناه من كتب هذه المحاور وما تفرع عنه من عموم وخصوص.. ولا بأس من إعادة شيء منه للتوضيح ليكون ما ذهبنا إليه أوضح وأرسخ . بعون الله تعالى وتوفيقه . وأيضا فإن ما سنعيده . بإذن الله تعالى . من قول ابن عربى . إنما هو إشارة توضيحية قالها حول آية الأنعام رقم (٥٩) وهى إحدى آيات المحور الرابع الأنف الذكر.. يقول الشيخ ابن عربى حول قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر﴾ .

قال: أعلم أن الغيب مراتب:

أولا: غيب الغيوب: وهو علم الله المسمى بالعناية الأولى.

ثانيا: غيب عالم الأرواح: وهو انتقاش صور كل ما وجد وسيوجد من الأزل والأبد فى العالم الأول العقلى، الذى هو روح العالم المسمى «بأم الكتاب» على وجه كلى وهو القضاء السابق.

ثالثا: غيب عالم القلوب: وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلا تفصيلا علميا كليا وجزئيا فى عالم النفس الكلية، التى هى قلب العالم المسمى «باللوح المحفوظ».

رابعا: غيب عالم الخيال: وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة فى أجرامها معينة مشخصة، مقارنة لأوقاتها على ما يقع بعينه وذلك العالم: هو المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا ولذا هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة.

خامساً: لوح القدر الإلهي: الذي هو تفضيل قضائه، وعلم الله، وهو العناية الأولى عبارة عن إحاطته بكل هذه العوالم.. فيعلمها مع جميع صورها التي فيها بأعيانها ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾.

الكتاب المبين: وهو السماء الدنيا لتعين هذه الجزئيات فيها مع عددها وتشخصها^(١).

هذا موجز لبعض ما لخصه الشيخ ابن عربي لقضايا «لفظة» غيب، وكتاب، ونلاحظ أنها تبدأ بالعلم الأول، وهو علم الله تعالى، الذي انتسخ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - منه النسخ الكلي أى الصور الكلية الكاملة لكل ما سيوجد، وهو أصول الأشياء ولكنها بشكل كلى، وبنورانية خاصة ثم انتسخ منه لوح آخر وبنورانية خاصة - أيضاً - اتصاله مباشرة «بأم الكتاب» المرتبط بعلم الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مباشرة وهو نسخة مطابقة لما فى «أم الكتاب» ولكنه بشكل مفصل تفصيلاً علمياً كلياً وجزئياً، أى أن كل كائن هو موجود فى هذا اللوح - الشريعة - والله تعالى أعلم - بشكله الكامل المفصل وبشكله المجرى تجزئياً دقيقاً لكل حقائقه ودقائقه المختصة بهذا الكائن من أجزاء وعمل ورزق.. إلخ. مع ملاحظة أن كل ما فى هذا اللوح من موجود إنما هو وجود حركى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ثم انتسخ من هذا اللوح، لوح آخر، هو بعينه اللوح الأول، وكل ما فى هذا اللوح هو موجود فى نفس اللوح المستنسخ منه بعينه كاملاً ومجزأً، ولكنه بنورانية وطبيعة خاصة تختلف عن اللوح الذى استنسخ منه، وأظن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - هو اللوح المعبر عنه بالسماء الدنيا، الكتاب المبين، وهو كتاب خزائن الأشياء المنزلة إلى الأرض - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهكذا.. وهذا الملخص عن ابن عربي، يجعلنا نقف بحق عندها، نقف عندها لما فيها من إشارات علمية بحتة، دقيقة، تعتبر بحق الأسس والأصول والرموز لوضع

(١) تفسير ابن عربي: ٣٧٣ - ٢/٣٧٤ اختصار.

واكتشاف لهذه الحاسيات الآلية وعلومها وحقائقها قبل عشرات القرون، لنعلم مدى إبعادنا عن علومنا وتراثنا العلمى والفكرى، واستفادة من أبعادنا عنها وشووها فى نظرنا ورسمها لنا فى صورة تتفر العالم اللبيب، قبل طلاب العلم المبتدئين.. وهذه الإشارات العلمية من ابن عربى تجعلنا نضع فصلاً جديداً فى بحثنا هذا يجمع بعضاً من مثل هذه الإشارات وغيرها الواردة عنه.. فما هو هذا الفصل يا ترى؟

الفصل الثالث

إشارات أم الكتاب بين فكر ابن عربى وعلوم الحاسوب

فى هذا الفصل سوف نمضى مع إشارات ابن عربى المتفرقة والمتشتتة فى ما وجد من بعض كتبه . وقد حاولنا أن نجمع منها ما يتيسر لوضع هذا الفصل بعون الله تعالى كمقدمة لما سبق ولما سيأتى بعدها الكثير ولاسيما كتابه الضخم «الفتوح المكية» وتفسيره أيضا، وسنلاحظ أن ابن عربى يتحدث عن «أم الكتاب» وما يتفرع منه وعنه من نسخ وشرائح ورقائق، ثم عن بعض مهمات هذا الكتاب الأم وما يتفرع عنه علميا وعمليا فى قضايا هذا الكون، وما يوجد به من خلق وخليقة، وعما بين هذه الخلائق والخليقة وهذه الكتب العمومية منها والخصوصية من اتصالات وارتباطات وثيقة، ثم عن اتصالاتها وارتباطها جميعا بالكتاب الأم، وكون الكل جميعا بين يدى الرحمن يفعل بها ما يشاء ويريد حسب ما تقتضيه حكمته وإرادته سبحانه وتعالى.

يبدأ ابن عربى حديثه بهذه البداية والتى ربما قد تصلح لأن تكون أساسا لما جدد فى عصرنا من علوم الحاسوبات وما يرتبط بها من مهمات . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . يبدأ بقوله:

القلم الأول أو العقل الأول:

«..إن العقل - أو القلم الأول - الأول الذى هو أول مبدع خلق هو القلم الأعلى ولم يكن ثم مُحدث سواه.. وذلك أنه - سبحانه وتعالى - لما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عين واحدا من أولئك الملائكة الكروبيين وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سماه العقل أو القلم.. وتجلى - سبحانه وتعالى - فى مجلى التعليم الوهيب بما يريد إيجاد من خلقه - فقبل العقل بذاته علم ما يكون، وما للحق من الأسماء

الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقى.. فاشتق من هذا العقل موجوداً آخر سماه اللوح، وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة.. وكان - هذا القلم - مؤثراً فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه - كانبعاث حواء من آدم فى عالم الأجرام ليكون ذلك موضعاً ومحلاً لما يكتب فيه ذلك القلم الإلهى، وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق - تعالى - أدلة عليه - فكان اللوح أول موجود انبعاثى وقد ورد فى الشرع «أن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم خلق اللوح، وقال للقلم اكتب.. قال القلم وما أكتب - قال الله تعالى له اكتب وأنا أملئ عليك، فخط القلم فى اللوح ما يملئ عليه الحق، وهو علمه فى خلقه الذى يخلق إلى يوم القيامة»^(١).

وجعل الحق فى هذا اللوح العاقل عن الله تعالى ما أوحى به إليه، المسيح بحمده والذى لا يفقه تسبيحه إلا من أعلمه الله تعالى به. ثم أعلم أن الله تعالى، لما خلق القلم واللوح سماهما العقل والروح.. ثم أوجد الله تعالى فيه - أى الروح - الذى هو اللوح المحفوظ صفتين:

(أ) صفة علمية.

(ب) صفة عملية.

وكان بين القلم واللوح اتصال معنوى معقول، وأثر حسى مشهود، ومن هنا كان العمل بالحروف عندنا.. وكان ما أودع فى اللوح من الأثر.. وما ظهر من أثر تلك الكتابة من المعانى المودعة فى تلك الحروف الجرمية هى بمنزلة أرواح الأولاد المودوعة فى أجسامهم.. فأفهم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

فبصفة العمل تظهر صورة العالم عنه - أى عن اللوح المحفوظ كما تظهر صورة التابوت للعين عند عمل النجار، فيها - أى الصفة العملية - يعطى النجار الصورة. والصور على قسمين:

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى: ٢/٢٣٣.

أ) صورة طاهرة حسية: وهى الأجرام وما يتصل بها حساً، كالأشكال والألوان والأكوان.

ب) صورة باطنة معنوية غير محسوسة: وهى ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات.. وبتلكما الصفتين ظهر ما ظهر من الصور.. فالصفة العلامة أب وهى المؤثر والصفة العاملة - أم - وهى المؤثر فيه، وعنهما تظهر الصورة التى ذكرناها.

أم الكتاب وقضايا الاتصالات بين عالم الرقائق وابن عربى،

ويمضى ابن عربى فى حديثه: وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لهذا القلم ثلاثمائة وستين سنا فى قلميته أى من كونه قلماً وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لهذا القلم من كونه عقلاً، ثلاثمائة وستين تجلياً أو رقيقة.. كل رقيقة تفترق من ثلاثمائة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية فيفصلها القلم فى اللوح. فعلمها اللوح حين أودعه القلم إياها.. فكان ذلك علم الطبيعة، وهو أول علم حصل فى هذا اللوح من علوم ما يريد الله خلقه - فكانت الطبيعة دون النفس، وذلك كله فى عالم النور الخالص^(١).. وهذه الرقائق هى مثل أشعة النور^(٢).

ويمضى ابن عربى فى حديثه عن أسس هذا الحاسب الآلى الواعى المفكر العاقل عن الله تعالى بما يأمره ويلقيه إليه، وعن اتصال هذا القلم - العقل - بكل ما فى هذا الكون وما فيه بكونه عنه انفصل - أى عن هذا القلم والعقل - واستنسخ وليخبرنا أنه أيضاً - عن هذا القلم واللوحة، استنسخ وانفصل عقل آخر ولوح منه انبعث ووضع فيهما كل ما فى بقية هذا العالم وبرمج بينهم جميعاً، ارتباطات واتصالات.. وعن كيفية هذه البرمجة فى هذا المخلوق وهكذا.. وعن ذلك كله يقول:

أول منفصل وآخر منفصل فى دورة الملك وابن عربى،

يقول: «..وأعلم أن أول منفصل فيها - أى فى دورة الملك هو النفس الكلية عن أول موجود وهو العقل - القلم - الأول، وآخر منفصل فيها هو حواء عن آخر موجود وهو آدم،

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى: ٢٥٠ - ٢/٢٥١.

(٢) المرجع السابق: ٢/٢٨٦.

فإن الإنسان آخر موجود من أجناس العالم فإنه ما من ثم إلا ستة أجناس، وكل جنس تحته أنواع وتحت الأنواع أنواع، فالجنس الأول: الملك، والثاني: الجان، والثالث: المعدن، والرابع: النبات، والخامس: الحيوان وانتهى الملك وتمهد واستوى.. وكان الجنس السادس: الإنسان وهو الخليفة على هذه الأرض^(١). ولكن الإنسان الحقيقي وهو الكلمة الجامعة، ونسخة العالم، فكل ما فى العالم جزء منه وليس الإنسان الحقيقي بجزء لواحد من العالم. وكان سبب هذا الفصل وإيجاد هذا المنفصل الأول طلب الإنسان المشاكل فى الجنس الذى هو النوع الأخص، وليكون - أيضا - فى عالم الأجسام - بهذا الالتحام الطبيعى الإنسانى الكامل بالصورة الذى أراده الله تعالى - ما يشبه القلم الأعلى واللوح المحفوظ، الذى يعبر عنه بالعقل الأول أو النفس الكلية. وإذا قلت: القلم الأعلى، فتفطن للإشارة التى تتضمن الكاتب وقصد الكتابة - فيقوم معك - عندئذ - معنى قول الشارع «إن الله تعالى خلق آدم على صورته..»^(٢).

الإنسان فى الأرض صورة للحاسوب الأعلى فى السماء

يقول ابن عربى: «إن الإنسان كما قررنا آخر المولدات، فهو فى الأرض - نظير العقل فى السماء - وبه ارتبط، لأن الوجود دائرة فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول. الذى ورد فى الخبر أنه «أول ما خلق العقل» فهو أول الأجناس، وانتهى الخلق إلى الجنس الإنسانى فكملت الدائرة واتصل الإنسان بالعقل كما يتصل آخر الدائرة بأولها. فكانت دائرة، وما بين طرفى الدائرة جميع ما خلق من أجناس العالم بين العقل الأول - الذى هو القلم أيضا - وبين الإنسان الذى هو الموجود الآخر.

ولما كانت الخطوط الخارجة من النقطة التى فى وسط الدائرة إلى المحيط الذى وجد عنها تخرج على السواء لكل جزء من المحيط، وكانت الأشياء كلها ناضرة إليه وقابلة منه ما يهبها، كنظر أجزاء المحيط إلى النقطة.

(٢) الفتوح المكية: ٢٠١، ٢/٢٠٢.

(١) الفتوح المكية: ٢/٢٠٠.

وأقام سبحانه هذه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة كصورة العمد الذى للخيمة، فجعله «عمدا» لقبة هذه السموات فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه فعبرنا عنه - أى الإنسان - بالعمد. فإذا فتيت هذه الصورة الإنسانية ولم يبق منها على وجه الأرض متنفس «انشقت السماء فهي يومئذ واهية»، لأن العمد زال وهو الإنسان ولما انتقلت العمارة إلى الدار الآخرة، بانتقال الإنسان إليها، وخرجت بانتقاله عنها - علمنا قطعاً - أن الإنسان هو العين المقصودة لله تعالى من العالم، وأنه الخليفة حقاً، وأنه محل ظهور الأسماء الإلهية، وهو الجامع لحقائق العالم كله من ملك، وفلك، وروح وجسم، وطبيعة، وجماد، وحيوان، هذا بالإضافة إلى ما خص به من الأسماء الإلهية مع صغر حجمه وجرمه^(١).

الإنسان الحاسوب، مجموعة رقائيق، بها يتم الاتصال بينه

وبين هذا الكون وما فيه، وفيه معنى تسخير الكون وانفعاله له وكيفية ذلك

ونمضى مع ابن عربى - رحمه الله تعالى - ليقول حول ذلك:

«إن الله تعالى أودع العلم كله فى الأفلاك وجعل فى الإنسان مجموعة رقائيق العالم كله، فمن الإنسان إلى كل شئ فى العالم رقيقة ممتدة، ومن تلك الرقيقة يكون، من ذلك الشئ فى الإنسان ما أودع الله سبحانه وتعالى عند ذلك الشئ الذى من الأمور التى أمنه الله عليها ليؤديها إلى هذا الإنسان وبذلك الرقيقة يحرك الإنسان العارف ذلك الشئ لما يريد.. فكان لهذا «الإمام» كشف هذه الرقائق وهى - أعنى هذه الرقائق - مثل أشعة النور»^(٢).

الإنسان رقائيق مشققة وكيفية الاتصال

بينه وبين خالقه سبحانه وتعالى.. ثم اتصاله بالكتاب

ونمضى مع الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - فى تنبؤاته التى تعتبر بحق

(١) الفتوح المكية: ٢٥١ - ٢/٢٥٣.

(٢) الفتوح المكية: ٢/٢٨٦.

أسسا لما جد وحصل فى أمور وعلوم وكشوف فى علم الحاسوبيات الآلية وما يرتبط بها من برمجيات وعلم اتصالات وغير ذلك فى عصرنا الحاضر، والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

يقول ابن عربى: «فالحق جل سناه - له تسعة أفلاك للإلقاء، والإنسان له تسعة أفلاك للتلقى، فيمتد من كل حقيقة من التسعة الأفلاك الحقية، رقائق إلى التسعة الأفلاك الخلقية.. وتتعطف من التسعة الأفلاك الخلقية رقائق على التسعة الأفلاك الحقية، فحيثما اجتمعت كان الملك ذلك الاجتماع، وحدث هنالك أمر فذلك الأمر الزائد الذى حدث هو الملك، فإن أراد الملك أن يميل ب كله نحو التسعة الواحدة، جذبته التسعة الأخرى، فهو يتردد ما بينهما - جبريل عليه السلام - ينزل من حضرة الحق على النبى ﷺ وفى الواقع أن حقيقة الملك لا يصح فيها الميل، فإن منشأ الاعتدال بين «التسعتين» والميل انحراف ولا انحراف عنده، ولكنه يتردد بين الحركة المنكوسة والحركة المستقيمة. هذا التردد هو عين الرقيقة فإن جاءه «أى جاء الملك الإنسان» وهو فاقد فالحركة منكوسة ذاتية وعرضية وإن جاءه وهو واجد، فالحركة مستقيمة عرضية لا ذاتية وإن رجع عنه وهو فاقد فالحركة مستقيمة ذاتية وعرضية.. وإن رجع عنه وهو واجد فالحركة منكوسة عرضية لا ذاتية.

وقد تكون الحركة من العارف مستقيمة أبدا، ومن العابد منكوسة أبدا.. وسيأتى الكلام عن ذلك بعد قليل - وعن سبب انحصارها فى ثلاث حركات، منكوسة، وأفقية، ومستقيمة، إن شاء الله تعالى - فهذه نكت غيبية عجيبة.

ثم أرجع وأقول: إن التسعة الأفلاك هى سبعة، وذلك أن عالم الشهادة هو فى نفسه، برزخ فذلك فلك واحد، وله ظاهر: فذلك «فلكان» اثنان. وله باطن: فذلك ثلاثة أفلاك ثم عالم الجبروت برزخ فى نفسه، فذلك واحد وهو الفلك الرابع، ثم له ظاهر، وهو باطن عالم الشهادة ثم له باطن وهو الفلك الخامس ثم بعد ذلك عالم الملكوت، وهو فى نفسه برزخ، وهو الفلك السادس، ثم له ظاهر، وهو باطن عالم الجبروت، وله باطن وهو الفلك السابع، وما ثم غير هذا. وهذه صورة السبعة والتسعة.

فتأخذ الثلاثة «الخلقية» وتضربها في السبعة، فيكون الخارج واحدا وعشرين، فتخرج الثلاثة الإنسانية، فتبقى ثمانية عشر وهو مقام الملك، وهي الأفلاك التي منها يتلقى الإنسان الموارد وكذلك تفعل بالثلاثة الحقية تضربها أيضا في السبعة، فتكون عند ذلك الأفلاك التي منها يلقي الحق على عبده ما يشاء من الواردات.

فإن أخذناها من جانب الحق قلنا أفلاك الإلقاء. وأن أخذناها من جانب الإنسان قلنا أفلاك التلقى وإن أخذناها منهما معا جعلنا تسعة الحق للإلقاء، والأخرى للتلقى، وباجتماعهما حدث الملك ولهذا أوجد الحق تسعة أفلاك السماوات السبع، والكرسى، والعرش، وإن شئت قلت: فلك الكواكب والفلك الأطلس وهو الصحيح^(١).

هذه بعض إشارات استعرضناها من مجمل ما خطه وسطره الشيخ ابن عربي قبل أحد عشر قرنا حول بعض قضايا «أم الكتاب» وهي إشارات - كما رأيت - تُعتبر بحق أسساً لما كشف من علوم الحاسويات وقضايا الشرائح والرقائق ونورانياتها، وقضايا الاتصالات، وفيها ترى كيف أن هذا الإنسان مرتبط بخالقه أشد الارتباط، وأنه في قبضته، ثم كيفية كون هذا المخلوق الإنسان مرتبطاً ومنفصلاً بكل ما حوله، من «أم الكتاب» حتى أصغر ذرات هي موجودة في هذا الكون، وكيف أن هذا الكتاب «أم الكتاب» قد أودع فيه كل ما كان وسيكون إلى أن تقوم الساعة، وأن كل أمر أو شيء قد وضع وخزن في رقيقته أو شريحته، والجميع وضع في هذا الكتاب الأم الذي يحوى كل الكتب والألواح الاختصاصية، وأن من تلك الأصول يستسخ صور لكل ما كان وما سيكون في هذا الكون من عوالم ومخلوقات، كصورة هذا الخلق الإنساني، الذي سوف توكل إليه قيادة ما حدد له من مخلوقات في هذا الكون قد سخرت لقيادته ثم نراه - ابن عربي - يعرج بإشاراته إلى هذه الصورة الإنسانية، ليخبرنا كيف أنها قد سويت - برمجت وشفرت - وجهزت بكل قضايا الحفظ والقيادة وأمور الاتصالات التي تربطها بخالقتها جل سناء - سبحانه - وب «أم الكتاب» ويكل ما هو موجود في «أم الكتاب» من

(١) الفتوح المكية: ٢٤١ - ١/٢٤٣.

رفائق وشرائع لها ارتباط واختصاص به . أى بهذه الصورة الإنسانية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . فهذا الجنس الإنسانى الذى سوف يقود ما سخر له فى هذا الكون كان جميع أفرادهم مستقلين، أى كل فرد منهم وحده فى شريعته كامل وأجزاء كما سوف نرى ذلك . بمشيئة الله تعالى ثم اصطفى من بين هذا الجنس الإنسانى واحد ليكون أباً يستسخ من خلاله جميع هذا الجنس بنوعيه.. بل هو الجهاز الأم . إن جاز لنا التعبير . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . الذى سوف يصور فيه سيبرمج ويشفر فيه صور الخلق الذى سيخرج منه . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . جميع هذا الجنس بل سيكون الجسم الأول لما سيكون من أجسام فيما بعد لهذا الإنسان فى صورة النسخة الدنيوية، الصورة المعنية بقوله تعالى: ﴿يَأْيَاهَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(١) وسوف نرى أن هذا الجسم سوف يمر بمراحل متعددة قبل وصوله لمرحلة النشأة الدنيوية بأمر الله تعالى وإذنه .

وجميع هذه الإشارات تجربنا لأن نشير ببعض الإشارات لمرحلة خلق آخر غير مرحلة الخلق الأول الذى سبقت الإشارة إليه، وحتى لا يطول بنا الأمر الذى قد يصل عدة أسفار يستحسن أن يكون تركيز حديثنا على صورة جنس واحد من صور أجناس الخلق المتنوع فى «أم الكتاب».. وهى صورة الخلق الإنسانى.. وذلك كنموذج نتعرف من خلاله على طبيعة وخصائص الخلق فى هذه المرحلة الخلقية.. نحاول أن نتعرف . بإذن الله تعالى . على كيفية إيجاد هذا الجنس الإنسانى بطبيعة هذه المرحلة.. وما طبيعتها وكيف كانت تسويته على هذه الطبيعة وغير ذلك من أمور تتطلب الحديث عنها لارتباطها بكل ما سبقت الإشارة إليه . بإذن الله تعالى ومشيئته . ونسأل الله تعالى العون والتوفيق وتأييده، يارب ..جمع المرحلة الثانية .

(١) سورة النساء: آية ١٠.

الفصل الرابع الاستنساخ فكرة سريعة حول بداية الخلق الثانى مراحل وتتنوع صورته

١. حول تنقل خلقنا من خواص وخصائص مرحلة إلى أخرى

وهذه المرحلة هي بداية خلق الصورة النورانية الخالصة ونقلها من هذه النورانية الخالصة إلى مرحلة ذات طبيعة نورانية أخرى، ولكنها بشكل وبطبيعة أخرى متجسدة أى خلق الصورة النورانية المعنوية غير المحسوسة فى صورة نورانية محسوسة ليكمل منها فيما بعد صورة محسوسة ذات طبيعة وخاصة أخرى تلائم المكان والبيئة التى سننتقل إليها وهكذا.

ومن هنا نرى أن الصفة العمومية للمرحلة الخلقية الأولى التى وجدت - أى الصورة الأصلية الأولى - لما كان مقدرًا فى علم الله تعالى سبحانه وتعالى عما يصفون - إن صح هذا التعبير - هى الصفة النورانية ثم إن تلك النورانية أخذت بعد ذلك تتدرج فى طبيعتها نزولًا بقدرات وتحولات خلقية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وينو آدم أو الجنس الإنسانى جميعه هو خلق من ضمن ما خلق الله تعالى وأودعه فى «أم الكتاب» وينطبق عليه كل ما سبق من إشارات أوردناها، فهو فى «أم الكتاب» سواء كان كاملاً أو أجزاء متفرقة، نورانى من جنس نورانيته، ومن هذا الأصل النورانى استنسخ هذا الجنس بنورانية أخرى. وهكذا.

وهنا قد يسأل سائل ويقول: ترى ما الذى أدراك أن هذا الجنس الإنسانى - بنى آدم فيما بعد - كانوا جميعهم ومن بينهم آدم عليه الصلاة والسلام موجودين وجوداً

مستقلاً، أى أن كل واحد منهم قد خلق وحده كآدم ثم صار بعد ذلك الاصطفاء والاختيار من ضمن بنى آدم.

مع استقلال الخلق قبل اصطفاء آدم واختياره للاستنساخ الآخر:

فالله تعالى أعلم - إن ما قلته لم يكن كلاماً بدون دليل بل هو مستتبض وماخوذ من كتاب الله تعالى القرآن الكريم - ومن أحاديث رسول الله ﷺ ثم من تفاسير وأقوال أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم من أقوال العلماء والمفكرين الإسلاميين فالقرآن الكريم يقول: قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن نجعل لكم موعداً﴾^(٢) هاتان آيتان من كتاب الله وغيرهما كثير، ونلاحظ أن الآيتين تركزان على أن خلق هذا المخلوق الإنسانى الأول كان خلقاً استقلالياً غير ممزوج بغيره ولا عن طريق غيره، ولذلك كانت عودته الأخيرة عبر رحلته الطويلة إلى أن وصل إلى الدنيا ثم العودة إلى مكان انطلاقه - كما سيأتى بإذن الله تعالى - إذن فهو قد خلق فرداً، فطبيعى أن يعود كما بدأ وإذا نحن رجعنا إلى ما ورد حول هاتين الآيتين الكريمتين فسند أنهما - أيضاً - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يشيران إلى أننا وجدنا جميعاً دفعة واحدة كما هو الحال فى «أم الكتاب».. وأظن أن المفسرين يشيرون إلى أن آية الأنعام تشير إلى معان كثيرة منها: «جئتمونا واحداً واحداً، كل واحد منكم منفرد بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر.. أى منفردين كما خلقتم أول مرة.. من بطون أمهاتكم حفاة غرلاً بهما ليس معهم شىء»^(٣).

هذا بعض مما قالوه.. وهنا قد يسأل سائل ويقول: كيف استدلت بهذا القول وما فيه من إشارة هى ضد ما تقوله وتشير إليه، يقولون «من بطون أمهاتكم» فهم

(١) سورة الأنعام: آية «٩٤».

(٢) سورة الكهف: آية «٤٨».

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ص ٤٢ - ٤٣.

يشيرون إلى المرحلة الأخيرة فقط أى الخلق الدنيوى من بطون الأمهات.. وأنت تقول بأن هناك مرحلة خلق قبل هذا؟

وهنا نقول لهذا السائل وغيره أن واقع ما أشار به القرآن الكريم هو تماما غير هذا وسوف يأتى منه الكثير بإذن الله تعالى . فهذا - مثلا. واقع العودة يشير إلى كيفية ما أشرنا إليه وهو أن الخروج سوف يكون دفعة واحدة وللجميع، قال تعالى: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾^(٢) إذن فهذا القرآن الكريم يشير إلى أن العودة للخلق سوف تكون دفعة واحدة للجميع وفى آن واحد، وهذا هو نفسه ما تشير - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إليه الآية التى استشهدنا بها ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ فإذا كانت الخلقة فى الدنيا فرادى لكنها متباعدة وفى آنات وأزمنة مختلفة، بعكس العودة منها دفعة واحدة وفى آن واحد للجميع وبدون استثناء. وسوف يأتى تفصيل لهذه الإشارة بصورة مطولة فى باب كامل بإذن الله تعالى. إذن فالآية صريحة فى بيانها ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ وخلقنا فى بطون الأمهات ليس هو أول مرة بصريح القرآن الكريم ثم إن كلامهم - كلام المفسرين - الذى أوردناه لهم «منفردين بلا أهل.. إلخ» إذا وقفنا عنده فسنرى بعون الله تعالى أنه لا ينطبق مع الواقع، وذلك أن الإنسان فى بطن أمه لا يكون بدون أهل فالمرأة التى كان فى بطنها هى أمه والرجل الذى كان فى صلبه ثم خرج منه هو أبوه، إذن فهم أسرته وهم أهله إذ الأم لها أهل وأسرة فهم أهله وهم أخواله، وكذلك أعمامه والجميع بهم ينتصر، فكيف يكون بلا أهل إذن، فالجاء فرادى ليس المقصود به فى الدنيا لأن خروجه فى الدنيا يكون بين أهله وذويه، وإنما جئنا بكم فرادى لا تربطكم صلة ولا رحم قد امتزج بكم أو اختلط كما كان فى خلقة المزج للدنيا، وإنما

(١) سورة الزمر: آية «٦٨».

(٢) سورة يس: آية «٥٢».

ففرادى كما خرجتم من «أم الكتاب» عند أول استتساخ وإيجاد . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب . وأظن أن هذا التخريج يؤكد . والله تعالى أعلم . ما ورد عن رسول الله ﷺ بما معناه: «..يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما».. وحول معنى هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يقول العلماء: «يحشر العبد غدا وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد فمن قطع منه عضو يرد فى يوم القيامة عليه وهذا معنى قوله فى الحديث غرلا أى غير مختونين، أى يرد عليهم ما قطع منهم عند الختان»..^(١) وهذا المعنى يعطينا بعداً تأكيدياً آخر إذ هو كما ترى يدل على عظمة الخالق فى صنعه وإبداعه فى خلقه فمهما جرى من استتساخ من النسخة الأولى فلن يختلف المنسوخ عن المستنسخ الأصل الذى هو محفوظ كامل غير ناقص.. فعودته غير مختون تؤكد ذلك، أى أنه سيعاد على نفس الصفة والسمة التى عليها أصله، إذن فهو تأكيد لخلق المرحلة الاستتساخية الأولى . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . كما أن دلالة لفظ «غرلا» تؤكد ما بعدها من معنى وهو قوله: «بهما» فهو تأكيد لجميع المراحل . والله تعالى أعلم . فقد ورد حول معنى «بُهما»: أنه جمع بهيم، وهو فى الأصل اللون الذى لا يخالط لونه لون سواه، يعنى ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا، كالعمى والعور وغير ذلك^(٢).

هذا ما قيل عن «بهما» وفيه نرى أنه يشير إلى حقائق كثيرة منها أن الخلق فى الدنيا ليس «ففرادى» بعكس الخلق الأول من «أم الكتاب» وخلق العودة . عند البعث . أى أنه سوف يعاد على طبيعة عنصره الفردى الذى استنسخ عليه من «أم الكتاب» . أما الخلق الدنيوى فهو خلق مزيج من ألوان، ألوان الآباء والأجداد والأعمام والأخوال، ألوان الأنساب، لذلك فهو ذو أعراض وأمراض اكتسبها . وراثياً . من جراء هذا المزج والمزيج العنصرى اللونى. أما عند عودته فسوف يصفى ويصهر ليبقى لونه

(١) القرطبى الجامع: ٧/٤٢.

(٢) المرجع السابق: ٧/٤٢.

الفردى الذى خلق عليه أول مرة، فردى غير ممتزج بوشائج أو قبرى نسب دنيوية.. وهذه اللونية الممتزجة فى الخلقة الدنيوية يؤكدها ما روى عن ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وذلك حينما سئل حول آية سورة الإنسان «من نطفة أمشاج» فقد سئل: مم خلق الإنسان يا ابن عباس؟ فقال: من ألوان.

وعن ابن مسعود: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان.. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء.. وقال قتادة: هى أطوار الخلق طور نطفة وطور علقة وطور مضغة... إلخ. وهى الأمشاج أى الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة..^(١)

وقد ورد ما يؤكد قضية الحياة ذات اللونية الممتزجة وهو ما أشار به الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - فقد قال حول قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ قال: «..زوجته هى النفس - المشتقة منه - وسميت حواء لملازمتها للجسم الظلمائى والحياة هى اللون الذى يغلب عليه السواد، كما أن القلب سمى آدم لتعلقه بالجسم دون الملازمة بالانطباع إذ الأدمة هى السمرة، أى اللون الذى يضرب إلى السواد»^(٢).

إذن «ففرادى» يثبت أن الإنسان وجد بمفرده أصلاً قبل اصطفاء آدم - عليه الصلاة والسلام - الذى كان الأساس فيما بعد للاستتساخين اللذين صاروا فيما بعد، وهما الاستتساخان المحسوسان؛ الأول: الاستتساخ المجرى الذى كان هناك بين الأرواح الموجودة فى الملأ الأعلى، وهى مرحلة نورانية - طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - حركية محسوسة، لكن إحساس غير الإحساس الذى سوف تكون عليه فى الدنيا - الرحلة الثالثة - والله تعالى أعلم - إذ هى الدنيوية - تختلف عن سابقتها لاختلاف طبيعة وصفة وسمة المرحلتين

(١) الجامع للقرطبي: ١٢٠ . ١٩/١٢١ .

(٢) تفسير ابن عربى: ٣٩ . ٢/٤٠ .

السابقتين عليها، إذ تلك نورانية بحتة، وهذه مزيج من النورانية المتعنصرة والمادية وقد ورد ما يؤكد هذا المفهوم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ما أورده الشيخ ابن عربى نفسه حول الآية الأولى التى نحن بصددتها ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾.. قال الشيخ ابن عربى ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ أى مجردين عن الصفات والعلائق والأهل والأقارب. ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ أى بإنشاء ذرات هوياتكم فى الأزل عند أخذ الميثاق وقد وقع التفرقة بينكم بتغير الأحوال وتبدل الصور والأشكال..»^(١).

وهنا نود أن نقف وقفة سريعة عند بعض كلمات ابن عربى بما تحمله من دلالات ذات رموز قوية لما نحن بصدده فمثلاً قوله: «ذرات هوياتكم» ألا تستوقفنا هذه اللفظة «ذرات» ألا تعطينا أبعاداً كثيرة، منها بعد الوجود النورانى - الطاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - للإنسان فى «أم الكتاب»، وكيف أخذ هذا الوجود، فى تشكيلات وتحولات مختلفة سوف يمر علينا منها الكثير بمشيئة الله تعالى - إلى أن وصلت إلى ما سمى فيما بعد فى الدنيا - بالخلية - ألا يعطينا ذلك بعداً آخر. وهو البعد الحركى، إذ الذرة جزئ متحرك مضطرب لا يهدأ.. إذن فوجوده النورانى متعدد، منه الثابت والمتحرك فى «أم الكتاب» و«اللوح المحفوظ» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والذرة عالم لوحده مستقل، عالم منفرد يعرفه أهله، إذن فالإنسان وجد منفرداً وجنسا دفعة واحدة، ثم حصل بعد ذلك المزج فى جسم آدم عليه الصلاة والسلام عند الخلق الطينى النورانى أيضاً فيما بعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا الخلق الاستقلالى للجميع ووجودهم دفعة واحدة، هو ما تؤكد وتشير إليه آية الأعراف وإن كان سيأتى بإذن الله تعالى لها شرح مطول فى أماكن متعددة - وهى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾^(٢).

(١) تفسير ابن عربى: ١/٢٨٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١١٠.

فهذه الآية قد قيل عنها الكثير - كما سيأتى فى موضعه بإذن الله تعالى - ومن ذلك ما قال المفسرون «من أن الله سبحانه وتعالى - أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه تعالى جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به..»^(١).

إذن فالأرواح خلقت جميعها دفعة واحدة، وذلك أن الأجساد التى أخذت أصلاً من جسد آدم عليه الصلاة والسلام وجسد آدم عليه الصلاة والسلام لم يخلق بعد، إذ أفاًدم عليه الصلاة والسلام كان مخلوقاً روحانياً من ضمن الأرواح التى خلقت قبل الأجساد بألفى عام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا يؤكد حديث القبضة الآتى - فى مكانه وأمكنة كثيرة متعددة بمشيئة الله تعالى - المروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه «فقال اختريا آدم، فقال اخترت يمين ربي - وكلتا يدي ربي يمين - ففتحها - الحق جل سناه - فإذا فيها آدم وذريته، قال يارب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه»^(٢) وقد علق صاحب كتاب الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ﷺ على قوله ﷺ «ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته». قال: «.. فلما بسط الله تعالى يمينه ظهرت صور لأرواح آدم وبنيه وعمر كل منهم مسطور بين عينيه».

إذن ففى يمين ربي ظهرت صور لجميع أرواح الجنس الإنسانى بدون استثناء ومن ضمنهم صورة روح آدم عليه الصلاة والسلام.. وسوف يأتى التفصيل بإذن الله تعالى، ولكن هناك لفظاً فى هذا الأثر سوف يجزنا للحديث عن إشارة وردت فى معنى حديث شريف - على صاحبه أفضل الصلاة والسلام - له ارتباط بلفظ هذا المعنى وهذا الحديث هو ما روى عن رسول الله ﷺ: «من أن الله تعالى: خلق آدم على صورته.. والله تعالى يجعل عن أن يكون له صورة أو مثال..»^(٣).

(١) القرطبي: ٣١٤ - ٧/٣١٦

(٢) رواء الشيخان الترمذى والبخارى نقلاً عن كتاب التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص»: ٤/٢٨.

(٣) كتاب التاج: ٤/٢٨.

وقفه مع إشارة:

حديث شريف

هذا هو الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم وقد أورد عنه ابن قتيبة كلاما كثيرا نوجز منه ما نراه مناسبا.. يقول: «...وقد اضطرب الناس في تأويل هذا الحديث فقال قوم من أصحاب الكلام أراد خلق آدم على صورة آدم، ولم يزد على ذلك.. ولو كان المراد هذا ما كان في الكلام فائدة ومن يشك في أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته، والسباع على صورتها، والأنعام على صورها».

وقال قوم: «إن الله تعالى خلق آدم على صورة عنده» ابن قتيبة. وهذا لا يجوز لأن الله عز وجل لا يخلق شيئا من خلقه على مثال سابق.

وقال قوم في الحديث: لا تقبحوا الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورته يريد أن الله تعالى عز وجل خلق آدم على صورة الوجه. وهذا بمنزلة التأويل الأول، لا فائدة فيه.

والناس يعلمون أن الله تبارك وتعالى خلق آدم على خلق ولده ووجهه على وجوههم وزاد قوم في الحديث أنه ﷺ مر برجل يضرب وجه رجل آخر. فقال: لا تضربه فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته.. أى على صورة المضروب وفى هذا القول من الخلل ما في الأول^(١).

هذا ما استطعنا أن نوجزه مما أوردته ابن قتيبة من تعليقات قيلت حول الحديث والجدل الذى ثار حول معناه، وكيف وصل الأمر ببعضهم فى خضم النفى لكل ما قيل من معنى لهذا الحديث أن أصر على أن المعنى «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن».. والله تعالى يجل أن تكون له صورة أو مثال.

وعندنا أن المعنى لهذا الحديث - بناء لكل ما سبق أن أوردناه وما سيأتى بإذن الله تعالى - بناء على ذلك يكون المعنى أن الله تعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام

(١) تأويل غريب مشكل الحديث ابن قتيبة «٢١٢».

على صورته أى صورة آدم نفسه التى أوجدها الله تعالى له منذ الأزل فى علمه الأزلى وتقديره - سبحانه - ثم إيداعه على تلك الصورة فى «أم الكتاب»، و«اللوح المحفوظ».

وهذا المعنى لم نقله ابتكاراً من عندنا ولا اكتشافاً بل رأينا أنه قد ورد ما يؤكده ويقويه، حتى فيما أورده ابن قتيبة نفسه وحاول أن ينفيه أو يتهرب منه بدون توضيح أو تعليل شافٍ لنفيه، فقد رأينا القول الأول والثانى كلها بمعنى واحد تؤكد أن آدم عليه الصلاة والسلام قد خلق ووجد على صورته التى كانت فى علم الله تعالى ثم أخرجت ووضعت فى «أم الكتاب»، ولكن ابن قتيبة يعلق على هذه الأقوال بقوله: ليس فى هذا الكلام فائدة. ترى لماذا لا تكون هناك فائدة؟ أترى فلسفة النحاة ومنطقته وصلت تعقيداتها إلى أحاديث رسول الله ﷺ فحاولت أن تخفى شيئاً من إعجاز معانيه؟ أيريد ابن قتيبة بعدم حصوله فائدة - لعدم رجوع الضمير فى صورته لمرجع معلوم يصح أن يرجع إليه الضمير وذلك لأن آدم المخلوق على الصورة ليس له ذكر قبل الخلق حتى يرجع إليه الضمير أظن أن هذا هو ما أراده ابن قتيبة وكثير مثله؟ وذلك أن المعنى عنده - كما يتبادر إلى الذهن - أنه يريد أن يقول: أن آدم عليه الصلاة والسلام - خلق على هذه الصورة ابتداءً - وعلى ذلك لا يكون هناك مرجع للضمير. ونحن هنا نقول لابن قتيبة: إن خلق الصورة المذكورة فى الحديث كان كما أشرت - خلقاً ابتدائياً، ولكن يجب عليك أن تقف وتتأمل قليلاً فى لفظ الحديث ألم يقل على صورته؟ إذا فهذا الخلق صورة أيضاً وترى لماذا هو صورة؟ أليس صورة للأصل الذى كان مقدراً فى علم الله تعالى الأزلى، إذن فهى صورة لذلك الأصل المُقدَّر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وهذا يؤكده حديث القبضة السابق: «ولما بسطها - أى الحق جل سناه - رأى فيها آدم نفسه وذريته» إذن فآدم قد رأى صورة نفسه وصور بنيهِ، بل إن تلك الصور كانت أرواحاً كما جاء فى الخبر - السابق - «إن الله تعالى خلق الأرواح بألفى عام قبل خلق الأجساد» إذن فالضمير يعود لتلك الصورة أو تلك الروح. إذن فالحديث يشير معناه

هذا إلى قضية من قضايا الخلق الإنساني في إشارة ضمنية، وهى أن المقصود بهذا الخلق لآدم عليه الصلاة والسلام هو الخلق الطينى المحسوس، وهذا الخلق الطينى هو نفسه صورة طبق الأصل لتلك الصورة التى رآها آدم عليه السلام لنفسه ولبنيه فى يدى ربه سبحانه وتعالى، وكأن الحديث يريد أن يؤكد على شئ مهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو قضية البعث. أى كما خلق الله تعالى هذه الصورة كما هى لتلك الصورة الأصل فهو القادر أيضا - سبحانه وتعالى - أن يعيد خلقها كما هى لا زيادة ولا نقصان، وذلك لأن الأصل عنده سبحانه «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ»^(١) أما قوله: «وهذا لا يجوز، لأن الله - تعالى وعز وجل - لا يخلق شيئا من خلقه على مثال».

وهنا نسأل ابن قتيبة ترى من خلق ذلك المثال. أهو غير الله، حتى تنفيه؟ أليس الذى خلق ذلك المثال هو الله تعالى. أليست الإجابة على ذلك أن الذى خلق ذلك المثال هو الله تعالى. بلى إنه الله الخالق. ولا نطيل فى القول.. فهؤلاء السلف يروون عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «إن فى العرش مثال كل شئ خلقه الله تعالى فى البر والبحر» وهو تأويل قوله تعالى: «وإن من شئ إلا عندنا خزائنه»^(٢).

هكذا روى وقيل.. ورغم كل ذلك يضطرب معنى الحديث على ابن قتيبة وغيره أليس لأنهم لا يرون إلا الخلقة الدنيوية الطينية لآدم وبنيه - عليه الصلاة والسلام - فى الوقت نفسه تعرض القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ لما رآوه وغيره من مراحل الخلق الإنسانى حتى ولو كان ذلك إجمالاً لحكم يريد بها هو سبحانه. ولكن التعصب - أحيانا - لفكرة أو قضية ما تحول دون الرجوع إلى الحق أو التنازل عما دُهب إليه.

والا فهذا ابن قتيبة نفسه يستشهد ويورد ما قيل أنه سبب لقول الرسول ﷺ لهذا الحديث وستلاحظ معى أن فيه أيضا إثباتا لمرحلة من مراحل الخلق غير

(١) سورة (ق): آية ٤٨.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٤ - ١٥/١٠.

المراحل الدنيوية. يقول ابن قتيبة:

«ولم أر في التأويلات شيئاً أقرب من الأطراد ولا أبعد من الاستكراه من تأويل بعض أهل النظر، فإنه قال فيه: «أراد أن الله تعالى خلق آدم في الجنة على صورته في الأرض» وكأن قوماً قالوا: إن آدم كان من طوله في الجنة كذا ومن حليته كذا ومن نوره كذا، ومن طيب رائحته كذا.. فقال النبي ﷺ «إن الله خلق آدم» يريد في الجنة «على صورته» يعني «في الدنيا»^(١).

وهنا نسأل ابن قتيبة لماذا استكرهت هذا القول والتأويل. لأنه من أهل النظر فقط؟ أو لكونه مخالفاً لما تريدون؟ لست أدري.

ورغم ما قيل حول ما استكره ابن قتيبة، إلا أنا نجد فيه إشارة لحقائق تعدد صور الخلق الإنساني لأصل واحد مودع في «أم الكتاب» كما أنه معلوم ومقدر في علم الخالق جل سناء، لا يتغير ولا يتبدل، وإن تبدلت خصائص خلق صورة من الصور لحكم يريد لها خالقها سبحانه وتعالى حتى الصوفيين نراهم يقولون حول مرجع الضمير في الحديث بما ذهبنا إليه، فهذا ابن عربي - رحمه الله تعالى - نوجز من تعليق له حول قضية ارتباط هذا المخلوق الضعيف، الإنساني وتعلقه بأسماء الله الحسنی وصفاته، ومدى مكانة هذا المخلوق وكرامته عند الله سبحانه وتعالى، يقول من حديث طويل «وقال ﷺ: إن الله تعالى خلق آدم على صورته» وإن كان الضمير عندنا متوجهاً على آدم^(٢).

وهنا قد يسأل سائل ويقول إن الحديث كان عن الخلق الاستقلالي أي وجود الجميع مع آدم دفعة واحدة ولكن تحول الحديث أخيراً ليكون عن آدم وصورته، وبهذا يكون كل ما ذكرته بعد ذلك هو نفى لما تريد نفياً فكيف ذلك؟

وحقيقة الإجابة عن ذلك أن نقول إن كل ما سبق أن أوردناه ليس كما تصور أخى السائل، بل هو على العكس تدعيم منا لإثبات ما نريد إثباته، وذلك أن لفظ آدم

(١) ابن قتيبة - السابق: ٢٢٠.

(٢) الفتوح المكية: ٣/٢٢٥.

مقصود به الجنس والعموم، وإلا فكل واحد من أبناء آدم قد خُلق على صورته هو التي أوجده الله تعالى عليها أزلاً وإلا كيف نفسر اختلاف أشكال صور بنى آدم، إذ لو كان المقصود أن كلنا خلقنا على صورة وجه أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لكننا الآن متشابهين، أى كنا جميعاً على صورة واحدة، والواقع يقول بغير ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذاً فكل واحد قد خلق على صورته وشكله الذى أوجده الله تعالى عليه وقدره أزلاً، وأودعه عليه فى «أم الكتاب» ولا يمنع التعميم من أن يكون فيه تخصيص لآدم باعتبار أنه سوف يكون أباً للجنس كله فيما بعد.

وعلى هذا المعنى وتأكيد كونه نفسه عليه الصلاة والسلام مرجع الضمير فى «على صورته».. أى عند الخلق الطينى وهذه هى إشارة التخصيص من التعميم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعلى هذا كله يقول ابن حجر فى فتح البارى، وهو يعلق على حديث «خلق الله تعالى آدم وطوله ستون ذراعاً... إلخ» قال: «وقد روى - أى هذا الحديث - عبد الرازق عن معمر، فقال: خلق الله تعالى آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً.. وهذه الرواية تؤيد قول من قال أن الضمير لآدم».

والمعنى: (أن الله أوجده على الهيئة التى خلقه عليها.. لم ينتقل فى النشأة أحوالاً، ولا تردد فى الأحام أطواراً كذريته بل خلقه الله تعالى رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح ثم عقب بقوله: «وطوله ستون ذراعاً» فعاد الضمير أيضاً على آدم..^(١)).

هذا مختصر من كلام طويل لابن حجر، فلو أردنا أن نقف عند بعض ألفاظه - بإذن الله تعالى - لنرى ما الذى تجليه لنا هذه الألفاظ من حقائق وبراهين.. وبالتأمل فيها ترى أن أول ما يواجهك منها، ما تؤكدُه حول مرجعية الضمير فى «صورته» وأنه يعود لآدم - عليه السلام - أى أن آدم - الدنيا - هو صورة طبق الأصل لتلك التى خُلق

(١) فتح البارى: ٦/٤٢٢.

عليها فى الجنة، والتي هى أيضا طبق الأصل للصورة والهيئة التى هى أصله الأول، والتي هى موجودة فى «أم الكتاب». وهى المطابقة أيضا لما قدره له الله تعالى فى قدره وعلمه الأزلى، وكل ما سبق لا يخرج عن هذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك ترى الشارح يشير بألفاظ مختارة مُعبّرة دقيقة جداً لما يريد أن يشير إليه، فهو مثلاً يقول: «والمعنى: أن الله تعالى أوجده على الهيئة التى خلقه عليها».. فلفظة أوجده لفظة موضوعة بدقة إذ الإيجاد يختلف من حيث دلالاته عن لفظ خلق وإن أشار إلى المفهوم، كما أن الخلق يختلف عن الجعل - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالخلق - أغلبه - يكون من معدوم إلى موجود، والإيجاد يكون - أغلبه - من معلوم غير ظاهر وإخراجه إلى الظهور - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك قال الشارح: أوجده ولم يقل خلقه.. ولأن الإيجاد أيضا يكون من معنوى إلى محسوس - وإن اختلف الإحساس من حيث درجاته - فقد يكون محسوسا، ولكنه غير مادى، كما هى الحال فى خلقه آدم - عليه السلام - فى «أم الكتاب» بعكس خلقته فى الجنة، فهى محسوسة بدرجة تختلف تماما عن إحساسها فى الدنيا فهى هناك نورانية، روحانية، أما فى الدنيا فهى مادية عنصرية، وإن كان كلاهما حركياً، ولكن لكل منهما قانونه - كما سيتضح ذلك فيما بعد بمشيئة الله تعالى - ومن هنا نجد الشارح أردف لفظة أوجده بلفظة أخرى تؤكد ما أشرنا إليه آنفاً إذ قال «على هيئته التى خلقه الله تعالى عليها» أى أن الله تعالى أوجد آدم - عليه الصلاة والسلام - على هيئة آدم التى سبق أن خلقه الله تعالى عليها، ومعلوم أن الهيئة تفرق عن معنى الإيجاد، فهى أقرب إلى الصورة النورانية - الطاقة - من الصورة المادية، إذن فأدم المحسوس الملموس الذى فى الدنيا أوجده الله تعالى على صورة طبق الأصل لأدم الهيئة - الصورة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك أكد الشارح هذا المعنى فى قوله: «ألم ينتقل فى النشأة» ومعلوم أن الإنشاء هو غير الإيجاد - الخلق - من حيث دلالاته المعنوية، يقول القاضى عياض عن الفرق بين قوله تعالى «أنشأكم» وبين قوله

تعالى «خلقكم»: أن «أنشأكم» تفيد أنه خلقكم لا ابتداء، ولكن على وجه النمو والنشوء لا من مظهر الأبوية كما يقال في النبات: إنه تعالى أنشأه بمعنى النمو والزيادة إلى وقت الانتهاء^(١) إذن فإفاد الشارح كانت دقيقة جدا لما أرادت أن تعبر عنه، فهو حينما أراد أن يشير إلى البداية الأولى والخلق الأول عبر بلفظ خلق، فلما أراد أن يشير إلى الخلق الثاني الذي تم في الجنة أشار بلفظ الإيجاد، فقال أوجد.. أما الخلق الدنيوي فقد أشار إليه بلفظ الإنشاء فقال: «لم ينتقل في النشأة» وهو الخلق الثالث.. ولذلك نرى الشارح يؤكد هذه الإشارة السريعة منه للمراحل الخلقية بقوله: «لم ينتقل في النشأة أحوالا ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته».. أى الذين استسخوا منه فيما بعد.. إذن فخلق آدم - عليه الصلاة والسلام - على هذه الهيئة، فيها إثبات لتعدد مراحل خلقه ومن هنا فالضمير في مرحلة خلقه في الجنة يعود لصورته في «أم الكتاب»، والصورة التي في «أم الكتاب» يعود الضمير فيها لما أريه آدم - عليه الصلاة والسلام - في يدي ربه - سبحانه تعالى - كما في حديث القبضة السابق، والضمير في التي في الدنيا يعود لصورته التي في الجنة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وهذه الإشارات التي أشارت إلى تعدد هذه المراحل الخلقية، هي حقيقة واقعة لمن أراد أن يتأمل ويتدبر، ونحن لم نأت بها من عندنا، فهي كما أشارت إليها أحاديث الرسول ﷺ - كما سبق - نجد القرآن الكريم نفسه يؤكد تلك الإشارات ويقويها فهذا مثلا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾^(٢).

وحول معنى هذه الآية وما قد تشير إليه يقول الإمام الرازي معلقا على إشارتها - نوجز منه ما تيسر - يقول: ﴿ولقد خلقناكم﴾.. إن الخلق هو عبارة عن التقدير - كما قررنا في هذا الكتاب - وتقدير الله تعالى: عبارة عن تقدير علمه بالأشياء، ومشيتته

(١) تفسير الرازي: ١٣/١٠٤.

(٢) سورة الأعراف: آية «١١».

لتخصيص كل شيء بمقداره المعين.. فقلوله: ﴿خلقناكم﴾ إشارة إلى حكم الله تعالى وتقديره لأحداث البشر في هذا العالم.. وقوله: ﴿صوّرناكم﴾، إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة.. على ما جاء في الخبر - الحديث - أنه تعالى قال للقلم اكتب.. إلخ.

١ - فخلق الله تعالى عبارة عن حكمته ومشيئته.

٢ - والتصوير: عبارة عن الإثبات لصور الأشياء في اللوح المحفوظ.

٣ - ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له.

وهذا التأويل عندى أقرب من سائر الوجود^(١).

هذا شيء مما قاله الإمام الفخر الرازى.. وهو على شدة اختصاره تراه شير إلى جميع مراحل الخلق الثلاث التقديرية و«أم الكتاب» ثم للتي في الجنة والسجود وما بعدها.. وهو أيضا يؤكد صور كل شيء قبل الإحداث في جميع مراحل المختلفة.

وليست هذه الآية وحدها هي ما أشار إلى ذلك، فهناك إشارة سريعة أخرى في آية أخرى قد تجر إلى حديث طويل بعدها.. أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾^(٢).

يقول الإمام القرطبي - نوجز ونختصر منه إذ هو كلام طويل جدا - هي ثلاث موتات، وإم قيل أكثر وبعضهم قال أنها أقل وثلاثة إحياءات، وقد قيل: إن الله تعالى أوجدكم قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كالهباء ثم أماتهم^(٣).

هذه الإشارة السريعة التي قيلت حول هذه الآية ترى أن فيها تلميحا يؤكد ما سبق أن أشارت إليه آية الأعراف - التصوير - وإن اختلفت طريقة العرض، كما في هذه الآية، إذ جاء فيها التأكيد عن طريق الإحياء والإماتة، وكيف أنها كانت ثلاثة إحياءات وثلاث

(١) تفسير الرازى: ١٤/٣.

(٢) سورة البقرة: آية «٢٨».

(٣) القرطبي: ١/٢٤٩.

موتات.. وإن كان لنا من وقفة سريعة فسوف تكون حول بعض ما أشار به الإمام
القرطبي، فهو مثلاً عند قوله: «أوجدتهم كالهباء ثم أماتهم».. فما هو الهباء وكيف كان
إيجادهم فيه ومثله وقبله ما هو الهباء في لغة العرب وماذا قيل عنه أو ورد من إشارات
سريعة قد توضح لنا بعضاً مما نريد توضيحه . بإذن الله تعالى وتوفيقه .

الفصل الخامس

تعدد صور الخلق الإنسانى

مع إشارة الهباء وبداية من بدايات

الإخراج والاستنساخ

يقول صاحب كتاب «القاموس المحيط» نوجز منه «الهباء: هو الغبار، أو ما يشبه الدخان.. ودقائق التراب ساطعة ومنشورة على وجه الأرض والهابى: هو تراب القبر..»^(١).

هذه إشارة لغوية سريعة عن دلالة معنى الهباء أخذناها من القاموس، وفيها نلاحظ أن من معانى هذه الدلالات كون الهباء يشبه الدخان، وهذا الشبه يدعونا لأن نقول إن هذه الإشارة فيها لفظة لأول بداية تحويلية لخلق هذا الجنس الإنسانى، فإذا كان هذا الإنسان فى «أم الكتاب» نورانى الطبيعة فها هو يوجد إيجادا نورانيا آخر، ولكنه بخواص وطبيعة أخرى أقل من إيجاد السابق، فإذا كان الهباء يشبه الدخان، والدخان - طبعا - ليس مقصودا به هذا الدخان الناتج عن الاحتراق وإن كانا يعودان إلى طبيعة واحدة وإنما قد يكون مقصودا به ذلك السديم وكل الطبيعة النورانية - الطاقة - التى كانت للسموات والأرض - قبل تحولاتها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ألم يقل الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢).. إذن فالمادة اللغوية للغة القرآن الكريم نفسه تشير إلى هذا المدلول النورانى - ولذلك المادة اللغوية - نراها تشير بمعنى آخر يؤكد سابقة بقولها «ودقاق التراب الساطعة المنثورة على وجه الأرض» والسطوع يعنى اللمعان، واللمعان يرتبط بالإشعاع الضوئى والبرق، وكل ذلك يوحى لنا إحياء

(١) القاموس المحيط: ٤/٤٠٢

(٢) سورة فصلت: آية «١١».

نورانيا - طاقة - ثم المادة اللغوية تؤكد ذلك بنفسها، وذلك حينما تفسر لنا هذه الدقائق الترايبية فتقول: «دقائق التراب: أى ذرات التراب والذرة وطبيعة الذرة أمور معروفة خصائصها وطبيعتها وحقائق ارتباطها بقضايا الطاقة وخصائصها.

إذن فهذه الإشارة اللغوية تعطينا أول إحياء لأول إخراج واستنساخ، بل أول إيجاد لهذا الجنس الإنسانى بجميعة.. وطبيعة هذا الإيجاد، وكونه إيجادا نورانيا متجسدا تجسيدا أى عنصريا، ولكنه غير معروف الخصائص إلا لخالقه سبحانه وتعالى.. ولذلك رأينا ابن عريى - رحمه الله تعالى - يشير إلى هذه الحقيقة بإشارة سريعة حينما قال عن قوله تعالى: ﴿ولقد جثتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾، قال: «بإنشاء ذرات هوياتكم»^(١) وهذا ابن عريى أيضا نراه يقول عن طبيعة هذا الإحياء الهبائى وكيفيته: فلما أراد الحق - جل سناه - وجود العالم، وبداه، على حد ما علمه بعلمه بنفسه، انفعّل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجلٍ من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية.

تقول: «انفعّل عنها حقيقة تسمى الهباء، وهى بمنزلة طرح البناء ألجص، ليفتح بها ما شاء من الأشكال والصور».

وهذا هو أول موجود فى العالم، وقد ذكره على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه، وسهل ابن عبد الله التستري - رحمه الله تعالى - وغيرهما من أهل التحقيق، وأهل الكشف والوجود.

ثم إنه سبحانه - تجلى بنوره إلى ذلك الهباء - ويسميه أصحاب الأفكار الهيولى الكلى - والعالم كله فيه القوة والصلاحية - فقبل منه كل شئ فى ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده، كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قرينه من ذلك النور يشتد ضوءه وقبوله.. قال تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ فشبه نوره بالمصباح^(٢).

(١) تفسير ابن عريى: ١/٢٨٩.

(٢) الفتوحات المكية: ٢٢٦ - ٢/٢٢٧.

إذن فالهباء هو أول موجود هبائي - مستسخ - نوراني استسخ من «أم الكتاب» النوراني - أيضا - ولكنه قد يختلف في نورانيته عما استسخ منه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه النسخة الهبائية فيها كل ما في «أم الكتاب» ولكن بوجود نوراني مختلف. وأظن أن هذا هو معنى قوله: «ثم أنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء فقبل منه كل شيء في ذلك الهباء...».

إذن فهي رحلة من رحلات الخلق وتقلاته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.. وهذه الإشارة وما تحمله من معنى لا تختلف عن معنى إشارة القرطبي السابقة «أوجدتهم في الهباء جميعا» إذن فالمعنى واحد وإن اختلفت الألفاظ.

ويمضي ابن عربي في تأكيد إشارته هذه بقوله: «فاعلم أن الله تعالى لما خلق القلم واللوح، فأسماهما العقل والروح، فأعطى الروح - اللوح - صفتين: (أ) صفة علمية. (ب) صفة عملية.

وجعل العقل لها معلماً ومفيداً، إفادة مشاهدة حالية، كما تستفيد من صورة السكين القطع من غير نطق يكون منها في ذلك، وخلق جوهرها دون النفس الذي هو الروح المذكور، سماه الهباء - وهذه التسمية له نقلناها من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وهو مذكور في اللسان العربي، قال تعالى: ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ كذلك لما رآها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه - أعنى هذه الجوهرة - منبثة في جميع الصور الطبيعية كلها، وأنها لا تخلو صورة منها، إذ لا تكون صورة إلا في هذا الجوهر - سماها هباء - وهي مع كل صورة بحقيقتها.. بل هي كالبياض الموجود في كل أبيض بذاته وحقيقته لا يقال قد نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض، فهذا مثل حال هذه الجوهرة^(١).

ومن مجمل إشارات هذه النصوص السابقة نجد - فعلا - أن الهباء مرحلة أولية لمراحل الاستساخ، مرحلة لها سماتها وخصائصها وقانونها الخاص بها يسيرها كما

(١) الفتوحات: ٢/٢٣٦.

شاء لها خالقها، موجودة فى مكانها الذى وضعها فيه خالقها وليس عدم معرفتنا لها أو عدم مشاهدتنا لها قد يقدر فى حقيقتها. أظن أن ذلك غير وارد ألا يقول الفيزيائيون أن كل ما هو خارج الغلاف الجوى للأرض فهو ظلام دامس لا يشاهد الإنسان فيه أى شئ إلا بنور صناعى يعمل به الإنسان نفسه مما هو مسخر له فى هذا الكون - حتى أن الأشعة الشمسية - كما يقولون - ليس لها أى تأثير ضوئى خارج هذا الغلاف.. فإذا تسلكت ذرات ضوئها - أى الشمس - داخل هذا الغلاف نوراً وبان كل ما هو موجود داخل هذا الغلاف.. إذن فالهباء هو مرحلة خلقية وجد بها الجنس الإنسانى ضمن الخلق الذى أوجده الله سبحانه وتعالى فى هذا الهباء.. لذلك رأينا فى النصوص آفة الذكر ما يشير إلى مثل هذه الإشارة الفيزيائية، ففى أول نص ابن عربى رأينا قوله: «ولما أراد الحق - جل سناه - وجود العالم أوجد تلك الحقيقة التى تسمى الهباء..».

إذن فهذه الإشارة، نراها تشير إلى قضايا كثيرة منها مثلاً أن هذا الهباء هو «أول موجود فى العالم» وهنا نقف، فالإشارة كما نراها تقول: «أول موجود» ولم تقل أول مخلوق، وقد سبق أن أشرنا إلى الفرق الكبير بين دلالتى الوجود والخلق إذن فهى أول صورة مستتسخة وجدت للعالم المحسوس، من «أم الكتاب» ولكنه إحساس غير إحساس عالمنا الذى نحن فيه فى الدنيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومعلوم أن الحقيقة الكلية عند ابن عربى هى «أم الكتاب» ولذلك نراه يشير فيقول: «انفعل عنها - أى عن الحقيقة الكلية - حقيقة أخرى تسمى الهباء..»، والذى هو المكان الأول للصور الروحية الشكلية المتحركة بأمر الله تعالى وإذنه - كما يقول ابن عربى فى نفس كلامه السابق حينما أراد أن يوضح هذا المكان فقال: «.. وهى أى الحقيقة المستتسخة - بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهو أول موجود فى العالم» وهنا نقف قليلاً عند لفظة «الجص» - المادة البيضاء - وقد شبه ابن عربى ذلك المكان بها - وذلك أن اللون الأبيض إذا سلط عليه الضوء فى أثناء الظلام نلاحظ ظهور الصور خلاله - يعنى

مثل شاشة العرض السينمائية وما يرتبط بها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك - ولا مشابهة - ذلك الهباء، الذى سوف تقبل طبيعته النورانية - والتى لا نعرف طبيعتها ولا قانونها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك ولا مشابهة - نور الحق جل سناه - حينما يتجلى لها فينوره.. فيتضح كل ما أوجده الله سبحانه وتعالى فيه.. لذلك نرى صاحب النص السابق - ابن عربى - يورد بعد ذلك ما يدل على هذا المعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بقوله: «...ثم أنه - سبحانه وتعالى - تجلى بنوره إلى ذلك الهباء فقبل منه كل شيء فى ذلك؛ الهباء...».

إذن فالهباء مرحلة إبداعية أولية أوجدها الحق جل سناه لهذا العالم جميعه ومنه الإنسانى بجميع جنسه، ولكنها مرحلة ذات قانون وخصائص ترتبط بها دون غيرها من المراحل بعد ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما سبق أن أشرنا إلى تنوع صور الخلق النورانى وتعدد مراحل النورانية، وذلك حينما تعرضنا فى صفحة تنوع الغيب.. عندما أوردنا آية سورة الأنعام (٥٩): ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾^(١).. فليرجع له من شاء.

صورة العرض التعليمية فى المالأعلى؛

ولهذه الإشارة حديث طويل سوف يأتى فى مكانه مفصلاً - بإذن الله تعالى - وإنما جئنا بها لتوضيح ما كان هناك من صور استساخية للمرحلة النورانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الصورة أشارت إليها الكثير من الآيات القرآنية أولها قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة﴾^(٢)... إلخ.

وهذه الآية قد تحدث عنها المفسرون كثيراً نوجز منه ما يجلى لنا هذه الصورة حتى يأتى مكانها بإذن الله، كابن عربى وغيره، وإن اختلفت الألفاظ فهى تتقارب فى

(١) سورة البقرة: آية «٢٠».

(٢) سورة الأنعام: الآية «٥٩».

إيجاءاتها المعنوية.. فهو يقول - ابن عربى - «...إذ إشارة إلى السرمذ الذى هو من الأزل إلى الأبد.. والقول هو إلقاء معنى تعلق مشيئته - سبحانه وتعالى - بإيجاد آدم فى الذوات القدسية الجبروتية، التى هى الملائكة المقربون، والأرواح المجردة الملكوتية التى هى النفوس السماوية.. إذ كل ما يحدث فى عالم الكون، له صورة قبل التكوين فى عالم الروح الذى هو عالم الفضاء السابق ثم فى عالم القلب الذى هو قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.. ثم فى عالم النفس، أى نفس العالم الذى هو لوح الإثبات، المعبر عنه بالسماء الدنيا فى التنزيل كما قال تعالى: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾.

إذن فهى صور متعددة متدرجة إلى ما شاء الله تعالى وأراد - وهو خالقها - هذا التعدد، وهو تعدد حكمة وغرض يؤديه - هذا التعدد - لا عبث ولعب وحاشا ذلك أن يقع أو يكون ولذلك نجد ابن عربى يقول: «وكل ما يحدث فى عالم الكون له صورة» أى قبل التكوين المادى فهو بهذا القول يشير إلى ما قلناه من تعدد هذه الصور، وسواء كان ذلك فى العالم النورانى كما سبق ويأتى بإذن الله تعالى أو كان ذلك فى العالم المادى كما سيأتى أيضا بمشيئة الله تعالى وإشارته أيضا تعطينا لمحة سريعة أو إشارة سريعة إلى شئ من طبيعة هذا التعدد وحكمه كهذه النسخة - الصورة - النورانية لصور ونسخ الدنيا المادية، وهى الصورة المعطاة لملك الموت، كما سبق الحديث عنها فى مكانها وقد رأينا أنها صورة كاملة لجميع ما فى الصورة الدنيوية وهذه الصورة تؤكد تعدد هذه الصور دنيوية كانت أو غيرها، نورانية خالصة كانت أو بأنواع مختلفة فالدنيا هى الأرض، لأنه إذا ذكرت الدنيا ذكرت الأرض ومن عليها، وهم بنو آدم - عليه الصلاة والسلام - والأرض التى نعرفها هى صورة مكانية وضعت لتعيش عليها صورة إنسانية بطبيعتها، ولحكم عظيمة لا يعلمها إلا خالقها.. وأظن أن من تلك الحكم بعض مما صرح به القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم كهذه الحكمة قال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾^(١).

(١) سورة هود: آية ٦١.

إذن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فهي صورة إنسانية أنشئت من طبيعة مكانية لحكم عظيمة متنوعة منها هذه الحكمة الابتلائية الاختبارية.. وهذا يعطينا إحياء آخر وهو أن الأرض - الدنيا - لها صور متنوعة ومتعددة.

من تعدد صور الأرض؛

هذا المفهوم أظن أن القرآن الكريم قد أشار إليه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - حينما حصر عددها في سبع أراضٍ، ووضح ذلك حديث نبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(١). يقول الإمام القرطبي حول هذه الآية «لم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أى في العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والإخبار.. فتعيين العدد»^(٢).

هذه إشارة الإمام القرطبي، وفيها نلاحظ أنه - رحمه الله تعالى - أشار ولح لبعض الأسباب التي لم يصرح فيها القرآن الكريم بأن الأرض - سبع أراضٍ - إلا في هذه الآية، أيضا حتى في هذه الآية جاء بما يشير إلى لفظ العدد والمعدود دون أن يذكر العدد والمعدود صراحة، يجيب الشيخ بقوله: «لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والإخبار، فتعيين العدد..» أى ما يشير إلى العدد، وذلك لأن الكيفية أو طبيعة كل صورة أرضية تختلف عن الأخرى، وهذا يعنى أن الصورة الدنيوية التي نحن فيها ومن طبيعتها، هي أيضا ذات صور ذات طبائع مختلفة ومتعددة، إذن فللأرض أيضا صور نورانية بصفات وخصائص متنوعة غير معلومة الهيئة والطبيعة يفسرها ويجليها لنا نبينا ورسولنا العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، وذلك حينما سأل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أنها أرض بيضاء مسيرة الشمس ثلاثين يوما، مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يُعصى في الأرض.. قالوا: يا

(١) سورة الطلاق: آية ١٢.

(٢) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبي: ١/٢٥٩

رسول الله من ولد آدم. قال: لا يعلمون أن الله خلق آدم.. قالوا: يا رسول الله فأين إبليس منهم.. قال: لا يعلمون أن الله خلق إبليس ثم قال: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.. ذكره الماوردي^(١).

إذن فهي سورة أخرى مستسخة للأرض، بطبيعة وخصائص غير خصائص طبيعة الصورة التي سميت بالدنيا ونحن الآن عليها بصفتنا التي نعرفها، ولذلك رأيناه ﷺ يقول: «هي أرض بيضاء» إذن فهي صورة غير ما تعهد، منصوص على اختلاف طبيعتها، والدليل على ذلك أنه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مستسخ عليها صورة لجميع الجنس الإنساني بطبيعة وخصائص غير الطبيعة والخصائص الآدمية، وذلك أن الخاصة الآدمية هي صورة خاصة بهذه الصورة الدنيوية للأرض إذ بطبيعتها الأدمة كون جسد الإنسان اصطفى ليستسخ من خلاله الجنس الإنساني بجمعه ويسمى باسمه - بنى آدم عليه الصلاة والسلام - لذلك كانت الصورة الأخرى هي ذات صفة وخاصة غير الصورة الدنيوية، فهي أي الدنيوية ذات أدمة، والأدمة هي السمرة - كما سبق وسوف يأتي بإذن الله تعالى - أما الصورة الأخرى فهي صورة بيضاء كما قال ﷺ «هي أرض بيضاء» لذلك فهم لا يعلمون عن آدم أي شيء، لأن الجنس ذو خاصية الآدمية والآدمية هم خاصون بالصورة الآدمية لأن آدم عليه الصلاة والسلام هو شخص من هذا الجنس جميعه اصطفى ليحمل خاصية الصورة التي سيكون عليها هو ومن يستسخ من خلاله، لذلك فهو مسمى بخاصية من خواص ما سيعيش عليه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك فهم في الصورة الأرضية الأخرى لا يعلمون عن مسمى آدم - عليه الصلاة والسلام - لأنه خاص بصورته ومن هنا لا يعلمون عن إبليس - نعوذ بالله تعالى منه - أي علم أو معرفة، ذلك لأن إبليس - نعوذ بالله تعالى منه - هو خاص بالصورة الأرضية الآدمية ذات غرض الاختبار والابتلاء - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لكن هل يعنى ذلك أن الجنس

(١) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبي: ١/٨٠ و ٢٥٩ و ١/٢٦٠.

الإنسانى الذى هو موجود على الأرض البيضاء هو غير الجنس آدمى الموجود على الصورة الدنيوية؟ والإجابة.. إن المقصود بالفيرية أنهم جنس مخلوق غير الجنس آدمى أصلاً فهذا لا . والله تعالى أعلم . وإن كان المقصود بالفيرية فى الطبيعة والخصائص والجنس هو هو، فهذا نعم، وهو ما يؤكد الخبر المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما حول قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: «فى كل أرض مثل إبراهيم وموسى.. إلخ. ونحو ما على الأرض من الخلق، هكذا أخرجه مختصراً وإسناده صحيح.. وأخرجه الحاكم والبيهقى من طريق عطاء بن السائب. عن أبى الضحى مطولاً وأوله «...أى سبع أرضين فى كل أرض آدم، كأدمكم ونوح كنوحكم، وإبراهيم كإبراهيمكم، وعيسى كعيسى، ونبى كنبىكم» قال البيهقى: إسناده صحيح إلا أنه شاذ بمرة.. وروى ابن أبى حاتم عن طريق مجاهد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأرضاهم قال: لو حدثتكم بتفسير هذه الآية لكفرتكم، وكفركم تكذيبكم بها»^(١).

إذن فآدم هناك هو كآدمنا من حيث هو إنسان من سائر الجنس الإنسانى وكذلك إبراهيم وموسى ونوح، أما من حيث المطابقة فى المثالية، فإن الخبر السابق المروى عنه ﷺ فقد بين قضية عدم المطابقة فى المثالية بقوله ﷺ: «على أرض بيضاء.. لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم.. ولا يعلمون ولا يعرفون عن إبليس شيئاً». فقوله: «أرض بيضاء نفت هذه المثالية، وعدم العلم والمعرفة بآدم . عليه الصلاة والسلام . يشير إلى هذا وإن كان ضمناً وذلك لأن آدم الموجود على الصورة الأرضية البيضاء لو كان هو بنفس الخاصية والطبيعة التى هو بها على الصورة الأرضية الدنيوية، لعلم وعرف نفسه وتبعه على ذلك جميع الجنس الموجود معه على تلك الصورة البيضاء، ولكنه لما لم يعرف نفسه بتلك الخاصية والطبيعة الدنيوية علمنا أن المثالية منتفية بينهما وسائر الجنس معهما»، وهذه الإشارة يؤكد ما أشار به الإمام القرطبى آنفاً حينما قال: «لم يأت للأرض فى التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل

(١) فتح البارى بشرح البخارى ابن حجر: ٢٢٨ - ٢٢٩/٦.

إلا قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أى فى العدد لأن الكيفية والصفة مختلفة
بالمشاهدة والأخبار فتعيين العدد...».

أى أن المثلية هى ثابتة فى ناحية العددية فقط، أما من حيث الكيفية والهيئة
والصفة فمختلفة بالمشاهدة.. إذن فأدم الأرض البيضاء هو آدم غير الصورة الدنيوية
من حيث الخصائص الطبيعية، أما من حيث الجنس الإنسانى فهو هو - والله تعالى
أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا التعدد الصورى للصورة
الأرضية ألا يشير إلى أن هذا الاستنساخ هو استنساخ كلى من كلى - أى من الكتاب
رأسا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين فهى - أى الأرض
هباء بطبيعة وخصائص معينة، ثم هى نورانية بخاصية أخرى كالتى مع ملك الموت -
عليه الصلاة والسلام - وكالأرض البيضاء الآفة الذكر. ثم إن هذا الاستنساخ الكلى
كان منه استنساخ فردى بداخله كل ما فى الكلى، وهو استنساخ آدم - عليه الصلاة
والسلام - وذلك عند الاصطفاء - كما سيأتى بإذن الله تعالى - وذلك لأنه سيكون منه -
أى آدم الفردى - استنساخ كلى كما حصل عند أخذ الميثاق والجنة ﴿وإذ أخذ ربك من
بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾^(١).. ثم
سيكون منه - أيضا - استنساخ فردى كاستنساخ «أمناء حواء عليها السلام».. ثم عنهما
معا أخذ ما سمى - ولا يزال - بحمد الله تعالى وتوفيقه - بالتوالد - وسوف يأتى
تفصيل لكل ذلك بإذن الله تعالى وهذا الاستنساخ - يعطينا مفهوما آخر، وهو أن
الاستنساخ وإن تعدد وتنوع إلا أن الأصل باق، ولا يزال فى «أم الكتاب» كما هو كلى
ومفصل ومجزأ لكل واحد لا يتغير ولا يتبدل إلا إذا أراد خالقه ذلك - سبحانه وتعالى
- فنوح فى «أم الكتاب» هو نوح فى الهباء هو نفسه فى الأرض البيضاء، فى الصورة
التي مع ملك الموت فى كل الصور، هو نفسه نوح الذى فى الصورة الدنيوية «فتبارك
الله أحسن الخالقين» حتى وإن تغيرت الهيئات والخصائص.. ونمضى مع تعدد صور
الخلق الإنسانى لنرى أن حقيقة الصورة آدمية كيف أنها هى صورة من ضمن هذه

(١) سورة الأعراف: آية ما لا يلزم.

الصور المتعددة والمتنوعة، لكنها صورة لها خصائصها التي تميزها عن باقى الصور
هى، فإذا كانت من تلك الصور ذات خاصية الاستتساخ الكلى فالصورة الآدمية،
تختلف طبيعة استتساخها، فهى فردية من كلية مع احتوائها لكل الكلى بداخلها
ليخرج عن طريقها فرادى فرادى وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب
والحمد لله رب العالمين - ومما يؤكد لنا أن الأصل واحد وإن تعددت كل تلك الصور
للشخص فهو هو، كما يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وهو يتحدث عن أمر
البعث، وكون الشخص المبعوث هو نفسه الشخص الذى كان فى الصورة الدنيوية
يقول: «...فى جميع - كل - هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة فإن
الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هى نفسها فى المرة الأولى وإن تعدد الشخص،
ولهذا يقال: هو مثله، ويقال: هذا هو هذا، وكلاهما صحيح. وأعنى بالحقيقة الأمر
الذى يختص بذلك الشخص...»^(١).

إذن فالحقيقة هى واحدة لذلك الشخص وإن تعددت صورته، كما يقول هو نفسه
ابن تيمية فى مكان آخر فى كتابه الفتاوى وهذا القول لابن تيمية يجعلنا ننتقل
للحديث عن صورة أخرى من مجموع هذه الصور للأصل الإنسانى المخلوق فى «أم
الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الصورة
المراد الحديث عنها هى صورة تحمل خصائص، وطبيعة أخرى لهذا الشخص
الإنسانى، وقد تكون العودة بنا تقف عند طبيعة وخصائص هذه الصورة - والله تعالى
أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فمع صورة ونسخة الظل.

مع صورة الظل:

إذن فما هى هذه النسخة أو الصورة وماذا تعنى؟

وقبل الإجابة عن ذلك، قد تسألنى من أين أتيت بهذه الإشارة لهذه الصورة
والنسخة؟ والحقيقة، إننى لم آت بهذه الإشارة أو التسمية من عندى، وإنما هى

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٥٤ المجلد ١٧.

مذكورة في كتاب الله العزيز، وفي أحاديث الرسول ﷺ وفي إشارات الشراح والمفسرين من السلف الصالح - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - فماذا قال عنها القرآن الكريم؟

يقول الله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾^(١).

هذه الآية الأولى، التي يمكن لنا أن نجعلها الآية الرئيسية للباب، وإلا فهناك آيات كثيرة جدا سوف ترد بإذن الله تعالى.. فماذا قال المفسرون عنها؟

قالوا: «إن كل شخص سواء كان مؤمنا أو كان كافرا فإن ظله يسجد لله» قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهاً.. وهو كاره.

قال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله.. وظله يسجد لله تعالى.. وعند هذا قال ابن الأنباري: لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاماً تسجد بها وتخضع لله. كما جعل الله تعالى للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلي فيها كما قال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا..﴾^(٢).

هذا ملخص ما أشار به بعض المفسرين وجلهم لا يخرج عن هذا، اللهم إلا في تفسير الألفاظ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - ومن مجمل هذا الملخص، ترى أن عمومته يشير إلى ما سبق الإشارة إليه من أن الحقيقة واحدة وإن تعددت الصور، فهذا الشخص الإنساني الموجود في الأرض، ترى أن القرآن الكريم يشير إلى أن له ظلا هناك - قد يكون في الجنة كما سيأتى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والإشارة كما تراها - تؤكد أن هذا الظل هو نسخة من هذا الإنسان الموجود في الأرض، والدليل سجوده معه. إن هو سجد طائعا وسجوده لله

(١) سورة الرعد: آية ١٥.

(٢) تفسير الرازي: ١٩/٣٠.

تعالى حتى ولو كان هو فى الأرض كافرا . إذن فهذا الظل هو نسخة أخرى لهذا الشخص الإنسانى، هو صورة حية مدركة عاقلة، فاهمة لما تفعل، والدليل أنه يسجد هو هناك آن هو هنا . فى الدنيا . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . عصى «طوعاً وكرهاً».. وهنا قد تسألنى من أين أتيت بالحياة لهذا الظل؟ أقول لك ليس فى الكون شيء إلا وهو يسبح لله خالقه ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ إذن فالقرآن يثبت التسبيح لكل شيء، إذن فكل شيء هو حى ناطق فاهم عاقل مدرك لما يعمل.. ولقائل يقول: ولم لا يكون التسبيح بلسان الحال. أقول لك: لا وألف لا. ذلك لأن القرآن الكريم يقول: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ إذن فالعيب والنقص فىنا لعدم إدراكنا لتسبيحهم، النقص فىنا لأن جهازنا الإدراكى لم يستطع إدراك تسبيحهم، ولأن ذلك حقيقة والنقص فىنا، فقد أدرك أولئك السلف قديما وتلاميذهم من بعدهم وحديثا . أيضا . فهذا ابن الأنبارى يشير إلى ذلك بإشارة رأى فى معناها ما قد يخفف معنى النفى من بعض العلماء يقول: «لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخضع لله، كما جعل الله تعالى للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى»..

إذن فالعلماء منهم . والكثير . من قد أدرك تلك الإشارة، وعبر عن إدراكه هذا . إذن فالنقص فىنا لكوننا لا نفهم لغتهم. إذ جميعنا يعرف أن لكل خلق من خلق الله تعالى قانونه الذى يسير عليه فى كل حياته وشئونه، ومن ذلك لغته وطبيعة حياته فالنمل يتكلم وَيَشْعُرُ ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكا من قولها﴾ إذن فقد أثبت القرآن الكريم للنمل القول.. والقول لا يكون إلا مع العقل والإدراك لعواقب الأمور، إذن فكل شيء حى. فالجبال والطير أيضا تسبح وتقمم الخطاب والنداء «يا جبال أوبى معه والطير». لذلك يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى . وهو معاصر ولا يزال حيا . حول هذه الناحية باختصار وتصرف من خلال أحاديثه التلفازية فيما معناه:

«إن حكاية الجمادية هذه، هى منفية بآيات القرآن الكريم ثم بإشارات العلم والكشوفات العلمية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .

ولنرى ذلك باختصار قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ إذن فكل شيء مخلوق هو من الماء، ومادام من الماء فهو حي، ومعلوم علميا أن الماء يدخل في تركيب كل العناصر العضوية منها وغير العضوية، وذلك لأبسط الأدلة، وجود المادة اللامعة في تلك العناصر، إذ هذا اللعان فيها يشير إلى وجود الماء في تركيبها، وشيء آخر، أننا نجد القرآن الكريم نفسه يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾^(١).. ثم يقول بعد ذلك: ﴿..ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾^(٢).

إذن فالحياة والهلاك هما من صفات المخلوق الحي العاقل المخاطب الفاهم المدرك، وذلك لأنه تعالى قال في آخر سورة القصص: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. إذن فهناك: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.. وهنا ﴿كل شيء هالك﴾ إذن فكل شيء هو حي لأن كل شيء هو هالك.. وذلك لأن من هنا ليست تبعيضية، بل هي بيانية، أي لتبين أن كل شيء حي فهو هالك. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فلا جماد إذ الكل حي.

إذن فالظل حي لا جامد.. هو متحرك، لأنه راقع وساجد، وما دام حيا فهو عاقل فاهم مدرك لحقيقة ما يفعل، لذلك فهو يخالف صورته الأرضية إن هي كفرت وعصت - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولتوضيح هذه الإشارة أكثر يقول الشيخ ابن عريي «العالم كله حي ناطق.. يقولون: لا بد أن يكون المكلف عاقلا بحيث يفهم ما يخاطب به وصدقوا وكذلك هو الأمر عندنا، إذا العالم كله عاقل حي ناطق وهذا ثابت من جهة الشرع والكشف غير أنهم قالوا: هذا جماد لا يعقل.. ووقفوا عندما أعطاهم بصرهم.. والأمر عندنا بخلاف ذلك. فإذا جاء عن نبي أن حجرا كلمه وكثف شاة، وجذع نخلة وبهيمة.. يقولون: خلق تعالى فيه

(١) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(٢) سورة الأنفال: آية ٤٢.

الحياة والعلم فى ذلك الوقت.. والأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة سار فى جميع العالم وأن كل من يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلا من علم.. وهذا ثابت»^(١).

إذن فسر الحياة هو موجود فى كل شىء، كيف لا، وهذا السر وعنصره الأساسى - مهما كان - آت من الماء، سواء كان ذلك من العالم المجرد الروحانى، أو غيره.

يقول الإمام القرطبى والإمام الرازى حول آيتى الأنبياء والنور ما نصه: قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ «الأنبياء». وقال الله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ «النور».

قال القرطبى - باختصار شديد - لا يُستثنى الجن ولا الملائكة يعنى من خلقهم من الماء بل كل حيوان خلق من الماء خلق النار، وخلق الريح من الماء إذ أول ما خلق الله تعالى من العالم هو الماء ثم خلق منه كل شىء»^(٢). وأظن أن أكثر منه صراحة وإيجازاً - أيضاً - هو قول الإمام الرازى حول ذلك: «إن أصل جميع المخلوقات الماء..»^(٣).

إذن حتى الأشياء التى لاتزال هى أقرب فى تركيبها إلى النورانية - الطاقة - هى أيضاً خلقت ووجدت من الماء كيف لا؟ ألم نقل اليوم فى دنيانا إن الماء أصله عنصر مركب من ذرتين، أكسجين وهيدروجين، وهذه الذرات ترى ما هو أصلها أليست هى جزيئات جسيمات الضوء وذلك كله، أليس هو طاقة؟؟ بلى.

إذن فالظل هناك هو صورة ونسخة منى هنا.. هو ظل هناك وأنا صورة هنا وأنا ظل له هنا وهو صورة لى هناك، ولنرى تعليقاً على ذلك قد يكون هو أقرب من هذا المفهوم وأكثر علمية لتوضيح نورانية الظل مما قلنا - والله تعالى أعلم بالحقيقة

(١) الفتوحات المكية: ٢٢٨ - ١/٢٢٩

(٢) القرطبى: ١٢/٢٩١

(٣) تفسير الرازى: ٢٤/١٦

والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا التعليق هو للشيخ ابن عريى أوجزناه من كلام طويل له حول آية الظل نفسها يقول فيه «... وكل منفصل عن شيء فقد كان عامراً لما عنه انفصل، وقد قلنا: إنه لا خلاء فى العالم، فعمر الشيء المنفصل موضع انفصاله بظله.. إذ كان انفصاله إلى النور، وهو الظهور. فلما قابل النور بذاته امتد ظله، فعمر موضع انفصاله فلم يفقده من انفصل عنه. فكان مشهوداً لمن انفصل عنه وهو المعنى الذى أراد القائل بقوله: «شهدتك موجوداً بكل مكان» فمن أسرار العالم، أنه ما من شيء يحدث إلا وله ظل يسجد لله ليقوم بعبادة ربه» على كل حال سواء أكان ذلك الأمر الحادث مطيعاً أو عاصياً، فإن كان من أهل الموافقة كان هو وظله على السواء وإن كان مخالفاً كان ظله منابه فى الطاعة لله، والله تعالى يقول: ﴿وَضَلَالِهِمْ بِالْأَصَالِ﴾.

فالظلال: أبداً تابعة للصورة المنبعثة عنها حساً ومعناً.

فالظل الحسى قاصر، لا يقوى قوة الظل المعنوى للصورة المعنوية، لأن الظل الحسى يستدعى نوراً مقيداً، لما فى الحس من التقيد والضيق وعدم الاتساع ولهذا نبهنا على الظل المعنوى بما جاء فى الشرع الحنيف، من أن «السلطان ظل الله فى الأرض..» فبان لك أن بالظلال عمريت الأماكن..^(١).

هذا ما أوجزنا من كلام ابن عريى حول الآية السابقة، وترى أنه يشير بذلك إلى قضية نورانية الصور وكثافتها، أى أن الصورة الكثيفة هى نفسها الصورة المعاكسة لها وهى منها بل كلاهما هما، ولذلك تراه يقول: «فالظلال: أبداً متتابعة للصورة المنبعثة عنها حساً ومعنى..» إذن فالظل هو صورة نورانية ذات خصائص نورانية معينة، أى أنها صورة وسطية بين ما قبلها - مثلاً صورة الهباء - وصورة ما بعدها وهى مثلاً الصورة الدنيوية، ولذلك يقول: أنه لا خلاء، أى أن أى مكان حينما يتركه أمر ما إلى مكان آخر، فإن ظله يعمر مكانه الذى كان لما انفصل عنه، ومن هنا يقول: «امتد ظله إلى مكان انفصاله حينما قابل النور، لذلك فهو مشهود لما عنه انفصل..»

(١) الفتوحات المكية: ٢/٣٠٣.

لذلك فهو هو - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالظلالات هي صور لأصحابها، وأصحابها ظلالات وصور لها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك نراه يؤكد ما أشار إليه آنفاً، في مكان آخر من كتابه وذلك أثناء حديثه عن قضايا العالم الروحاني - الطاقة - وصوره، وكيفية تشكل هذا العالم.. وكيف - أيضاً - أن صورته وأن كثرت، كلها آتية من صورة واحدة هي أصل لجميعها حتى أنه إن صادف وقتلت صورة له من تلك الصور الكثيرة، أدى ذلك لأن تقتل الصورة الأساسية لجميع كل الصور، وموتها أيضاً هي الأخرى جميعاً.. وذلك لأن أى واحدة منها هي مقيدة للأصل ولجميعها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يقول ابن عربي حول ذلك كله وغيره، ما نوجز منه قدر الاستطاعة «..ثم نرجع ونقول: وإن هذا العالم الروحاني إذا تشكل وظهر في صورة حسية يقيدهُ البصر بحيث لا يقدر الروحاني أن يخرج عن تلك الصورة مادام البصر ينظر إليه بالخاصية، ولكن من الإنسان، فإذا قيده البصر من الإنسان لم يبرح ناظرًا إليه، وليس له - أى الروحاني - موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الروحاني صورة جعلها عليه كالستر، ثم يخيل الروحاني له مشى تلك الصورة إلى جهة مخصوصة، فيتبعها الإنسان بصره. فإذا أتبعها بصره خرج الروحاني عن تقيده، فغاب عنه، وبمغيبه تزول تلك الصورة عن نظر الناظر الذي أتبعها بصره. فإنها - أى الصورة - للروحاني كالنور مع السراج المنتشر في الزوايا نوره، فإذا غاب جسم السراج فقد ذلك النور، فهكذا هذه الصورة، فمن يعرف هذا ويحسب تقييده - أى تقييد الروحاني - ببصره، لا يتبع الروحاني بصره. وهذا من الأسرار الإلهية التي لا تعرف إلا بتعريف الله تعالى.

وليست الصورة غير عين الروحاني، بل هي عينه، ولو كانت في ألف مكان أو في كل مكان وإذا اتفق قتل صورة من تلك الصور وماتت الصورة في ظاهر الأمر، انتقل ذلك الروحاني من الحياة الدنيا إلى البرزخ، كما تنتقل نحن بالموت، ولا يبقى له في عالم الدنيا حديث مثلنا سواء بسواء، وتسمى تلك الصور المحسوسة التي

تظهر فى الروحانيات، أجساداً، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾^(١).

إذن فالصورة هى عين أصلها ولو كثرت فى تعددها وتنوعها، وتغيرت هيئتها وأشكالها حسب قوانين أماكن تواجدها فيها، وأن هذه الصور إنما هى نسخ أخذت من ذلك الأصل الواحد لها، لحكم وأهداف يريد لها خالقها لا نعلمها نحن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن هنا يتضح لنا أن الظل هو صورة من ضمن هذه الصور المتعددة، ولكنها صورة لها قانونها وحكمتها وهدفها، والتي قد تتضح منها بعض الجوانب من خلال سير حديثنا - بإذن الله تعالى وتوفيقه - وقبل أن نمضى فى الحديث مع قضايا الصورة والظل.

لرب سائل يسأل ويقول: لقد سبق أن قلت فى أثناء عرضك السريع هذا إن الظل يسجد لله هو وصاحبه إن كان صاحبه طائعا معه.. ويسجد لله كرها وإن خالفه صاحبه حالة كفره ومضيت فى حديثك لتقول لنا فى عرضك إن الظل هو صورة من مجموع صور استسخت من صورة تعتبر هى أصل لكل تلك الصور وذلك أن أى حركة تصدر من ذلك الأصل أو أى صورة مستسخة منه، هى حركة تؤديها جميع الصور معا - بدليل قولك: إن موت أى صورة منها هو موت لذلك الأصل ولجميع الصور.. إذن فكيف تخالف الصورة الظل الصورة الموجودة فى الدنيا فى بعض حركاتها وأفعالها؟؟ وخصوصا فى حالة العصيان والكفر.. مع أنها هى هى.

مع استفسار وقضية:

هذا هو الاستفسار.. ونحن بدورنا نقول لهذا السائل: إن ما قلناه لا يخلو - بمشيئة الله تعالى - عن الحقيقة أو حتى بعض منها، كما أشارت إلى ذلك النصوص القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ وشراحهما. وقد سبق أن أشرنا بمثل ما سأل عنه أخونا السائل، ولكن قد يكون ذلك تم بصورة موجزة.. ومن ذلك أذكر أن قلنا أن

(١) الفتوحات المكية: ٢٨٤ - ١/٢٨٥.

تعدد وتنوع تلك الصور إنما نشأ بسبب تعدد وتنوع الأمكنة الناشئة فيها تلك الصور - بوجودها فيها - أى تلك الصورة يتحتم عليها أن تأخذ طبيعتها، وهذه الطبيعة معلوم أن لها قانون يحكمها، إذن فكل صورة من تلك الصور هي محكومة بقانون مكان تلك الطبيعة وعليه تسير حياتها وحياة كل من وما فيها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وأظن أن هذا هو هدف وحكمة من أهداف وحكم هذا التنوع والتعدد المكانى والصورى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فمثلاً لو أخذنا صورة النشأة الدنيوية، مع صورة الظل هذه، لربما اتضح لنا ما سألنا عنه - بعون الله تعالى وتوفيقه - فصورة الظل هذه - كما سنرى ذلك بمشيئة الله تعالى بعد إجابة هذا السؤال - أن طبيعتها بمشيئة الله تعالى وفضله نورانية، وأنها أيضاً موجودة فى مكان نورانى، إذن فطبيعة صور الظل حتما ستكون من طبيعة هذا المكان النورانى - لهذا فما يحكمها - سيكون هو قانون الطبيعة النورانية.. أما صورة النشأة الدنيوية، فهي طينية لتوافق طبيعة مكانها التى هي موجودة فيه - وطبيعة مكانها هذا هو الكثافة. لذا فقانونها الذى سيحكمها هو قانون الكثافة إذن فما هي خصائص طبيعة قانون كل من المكانين؟ من جانب السؤال فقط؟ ومن المعلوم أن من خصائص قانون الطبيعة النورانية والثابتة شرعاً - كما ورد ذلك فى النصوص القرآنية والحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم - أنها مجبولة ومن فيها على الطاعة والتسليم لخالقها، وأنها مفطورة على عدم العصيان والمعصية، وأنها لا يمكن أن يتصور منها مخالفة تلك الجبلة، والفطرة. لذلك قال عنهم - أى عمن فى تلك الطبيعة - خالقهم عز وجل: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) ولا يمكن أن يخرجوا عن تلك الطبيعة، والتى هي أيضاً سبب وجود العالم.. أما النشأة الدنيوية فخاصتها الاختيار والحرية المترتب عليها التبعية المرتبطة بقانون المجازاة والثواب - والعقاب - قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولكنه - تعالى

(١) سورة التحريم: آية ٦٥.

.. خصنا نحن والجن بالذكر ،والجن هنا كل مستتر من ملك وغيره وقد قال تعالى فى حق السموات والأرض ﴿اثتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ وكذلك قال: ﴿فأبين أن يحملنها﴾.

وذلك لما كان عرضاً، أما لو كان أمرا لأطاعوا وحملوها، فإنه لا يتصور منهم معصية وإنما جبلوا على الطاعة.. والجن - النارى - والإنس - الطينى - ما جبلا على ذلك.

إذن فالإنسان أصله هناك طائع ساجد، عابد لخالقه، لا يعصيه أبداً، لأن فى مكان طبيعته الطاعة والخضوع والخشوع لخالقه^(١).

أما صورته فى عالم الاستحالة والكثافة، العالم الطينى، عالم الاختيار.. والاختيار والابتلاء طبيعتهما.. أو كما قال تعالى فى القرآن الكريم عنها: ﴿وهديناه النجدين﴾، إذن فهو فى هذه الطبيعة حر مختار والعقوبة والثواب ينتظران ما اختار. إذن فالطاعة أصل والمخالفة والعصيان هنا شذوذ وتمرد وخروج عن الأصل ولذا جاء الاستغراب والاستكار من الخالق جل سناه - على هذا الخروج - فقال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾.. وقال جل سناه: ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾، وقال سبحانه: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

إذن فالأصل هنا وهناك الطاعة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعلى ذلك عاهدنا، فإن وافق فعلنا فى عالمنا الاستحالى الطينى الاختيارى، فعلنا هناك فى العالم النورانى، فهو الأصل، وإن خالف فعلنا هنا ما هناك فهو الشذوذ والتمرد المستحق للجزاء والعقوبة.. ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ

(٢) الفتوحات المكية: ٢/٢٢٨.

قوله لبلال رضى الله عنه: عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لبلال غداة: «يا بلال حدثنى بأرجى عمل عندك فى الإسلام منفعة فإنى سمعت الليلة خشف نعليك بين يدى فى الجنة، قال بلال: ما عملت عملا فى الإسلام أرجى عندى منفعة من أنى لا أظهر طهورا تاما فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لى أن أصلى» رواه مسلم والبخارى ولفظه: سمعت: دف نعليك بين يدى فى الجنة^(١).

إذن فهذا حديث رسول الله ﷺ يؤكد ما أشرنا إليه قبلال رضى الله عنه وأرضاه هو موجود مع الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين فى الدنيا، ويسمع رسول الله ﷺ مشيه بين يديه فى الجنة ترى هل بلال صعد مع رسول الله ﷺ إلى الجنة، أو أنه لا يزال باقيا فى الدنيا، أظن لا أحد يجادل فى أن وقت سؤال الرسول ﷺ لبلال رضى الله عنه وأرضاه كان لا يزال فى الدنيا، إذن فبم تفسر ذلك أبرؤيا منامية؟ حتى ولو كانت رؤيا منامية فرؤيا الرسول ﷺ وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هى رؤيا حق بل بها قام تشريع كثير من القضايا. إذن فماذا يعنى ذلك؟ ألا يعنى ذلك ويشير إلى أن هناك نسخة وصورة أخرى لبلال رضى الله عنه وأرضاه موجودة فى الجنة غير التى هى موجودة فى الدنيا، وبلال يقوم هنا - فى الدنيا - ويمشى فى الوقت الذى سمعه رسول الله ﷺ هناك، ومعلوم أن المكان الذى سمع رسول الله ﷺ مشى بلال رضى الله تعالى عنه وأرضاه هو مكان جزاء عمل، وعمل حسن، إذن فمشيه ذاك كان مشى خير، فتحرك بلال هناك طاعة كتتحرك بلال هنا لأداء طاعة، إذن فالصورة هنا هى الصورة هناك لبلال رضى الله تعالى عنه وأرضاه. وكما كانت صورة بلال رضى الله تعالى عنه فى الجنة كما وجدها رسول الله ﷺ أيضاً رأى فى الجانب المعاكس صورة أخرى، وأين؟ إنها فى النار وكما استغرب رسول الله ﷺ لوجود بلال فى الجنة وهو لا يزال حيا فى الدنيا، زاد فى استغرابه ودهشته ﷺ أنه رأى صورة تعذب فى النار أو هى موجودة فيها ولكنه لم ير

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص»: ٣٦٤ - ٣٦٥/٢

نسختها الدنيوية موجودة على ظهر الدنيا، مما زاد عجبه ﷺ، وذلك لأن الصورة التي كانت لأجلها العقوبة لما رآها ﷺ هناك في النار ليست هي موجودة في الدنيا، التي هي دار الامتحان والاختبار، ولذلك قال ﷺ . بما معناه . عرضت على النار فرأيت أصنافها على الدنيا، إلا صنفين: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات.. إلخ. لم أرهن إلى الآن . أو ما في الحديث . إذن فصورة النار هي موجودة هناك، لكن صورتها الدنيوية لم يحن وجودها بعد في زمنه ﷺ، وقد رأيناهم نحن في زمننا هذا . نسأل الله تعالى العفو والسلامة . إذن فهذا يؤكد لنا حقيقة تعدد الصور وتنوعها والأصل لها جميعاً واحد وإذا أردنا أن نقف عند النص النبوي الشريف . على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم . قليلاً، ترى ما الإشارة الأخرى التي يمكن لنا أن نخرج بها من خلال دلالاته الكثيرة المتنوعة .

وبالتأمل في هذا النص ترى أنه يعطينا مفهوماً آخر يرتبط بصورة الظل وهذا المفهوم هو أن الظل هو الصورة الخاصة بمكانى الجنة والنار، وهنا قد تسألنى وتقول: من أين أتيت بهذا المفهوم؟ والنص الشريف . على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم . لم ترد فيه أية إشارة تشير إلى دلالات الظل؟ ولم يرد فيه لفظ يحمل أى مسمى للظل؟

وهنا أقول لأخى السائل: لا بل النص الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم . جاء فيه ما يشير إلى دلالة الظل.. ألم يرد في النص الشريف قوله ﷺ: «...بين يدي فى الجنة» ولفظ الجنة إذا ذكر ذكرت معه دلالات الظل ولو ذهنياً وكذلك النار . أعاذنا الله تعالى منها جميعاً . ولا نذهب بعيداً فهذه آيات القرآن الكريم المشيرة إلى ذلك قد ملئ بها المصحف الكريم.. وسوف نستعرض . بمشيئة الله تعالى . الآن بعضاً من الآيات القرآنية التى أشارت إلى ذلك .

الجنة والنار وصور الظل فى القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفويها ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون. ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من

دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون^(١).

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا^(٢)﴾.

وقال تعالى: ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلی من خير فقير^(٣)﴾.

وقال تعالى: ﴿ولا الظل ولا الحرور^(٤)﴾، وقال تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغنى من اللهب^(٥)﴾.

وقال تعالى: ﴿فى ظلال وعيون^(٦)﴾.

وقال تعالى: ﴿وظل ممدود^(٧)﴾.

وقال تعالى: ﴿وظل من يحموم ❖ لا بارد ولا كريم^(٨)﴾.

وقال تعالى: ﴿وندخلهم ظلا ظليلا^(٩)﴾، وقال تعالى: ﴿هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون^(١٠)﴾.

وقال تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها^(١١)﴾، وقال تعالى: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا^(١٢)﴾.

هذه بعض آيات من القرآن الكريم ورد فيها لفظ الظل. وسنلاحظ من إشارات بعض المفسرين والتي سوف نوجز منها ما يتيسر، سنلاحظ قضايا كثيرة جدا، منها

(١) سورة النحل: الآيات ٤٨ - ٥٠.

(٢) سورة الفرقان: آية ٤٦.

(٣) سورة القصص: آية ٢٤.

(٤) سورة فاطر: آية ٢١.

(٥) سورة المرسلات: الآيتان ٣٠ - ٣١.

(٦) سورة المرسلات: آية ٤١.

(٧) سورة الواقعة: آية ٣٠.

(٨) سورة الواقعة: الآيتان ٤٣ - ٤٤.

(٩) سورة النساء: آية ٥٧.

(١٠) سورة يس: آية ٥٦.

(١١) سورة الرعد: آية ٣٥.

مثلاً أن الظل صورة ونسخة مستنسخة لهذا الإنسان في ذلك العالم الروحاني وسنلاحظ - بإذن الله تعالى ومشيبته - أن هذه الصورة الظلية هي في مكان هو من جنسها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهي فيه شيء موجود متحرك ملموس، ولكن بخصائص وقانون غير ما نعهد ونعلم، وقد نكون نحن هنا منه تحولاً - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره حول قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل...﴾.

يقول: الاستدلال بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال وفيه مسائل كثيرة، فمن ذلك أن الناس أكثرها في تأويل هذه الآية والكلام المخلص يرجع إلى وجهين:

الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص، وبين الظلمة الخالصة، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس.. وكذلك کیفیات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال، لأن الظلمة الخالصة يكرها الطبع وينفر عنها الحس.

وأما الضوء الخالص، وهو الكيفية الفائضة من الشمس، فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية، وهي مؤذية.. فإذا أطيب الأحوال «هو الظل» ولذلك وصفت الجنة به فقال تعالى: ﴿وظل ممدود﴾.. وإذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه وتعالى بيّن أنه من النعم العظيمة، والمنافع الجليلة.. ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئاً سوى الجسم وسوى اللون.

ونقول: الظل ليس أمراً ثالثاً، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم، زال ذلك الظل، فلولا الشمس ووقع ضوءها على الأجرام لما عرف للظل وجود وماهية، لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس ما عُرف الظل.. ولولا الظلمة لما عرف النور.. فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس وزال الظل.. فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون، فلماذا قال سبحانه

وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أى خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع والذلات، ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده، بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه. أى أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا، فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا، وكذا زوال الإطلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلفت المصالح.. والمراد بالقبض الإزالة والإعدام.. هذا هو أحد التأويلين.

التأويل الثانى:

وهو أنه - سبحانه وتعالى - لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض ثم إنه - سبحانه وتعالى - خلق الشمس دليلا عليه، وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الظلال، فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر كما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل يلازمه، فكذا الظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضداد فلهذا جعل الشمس دليلا عليها.

فإن قيل: الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضىء فكيف استدل بالأمر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم؟

قلنا: الظل ليس عدما محضا، بل هو أضواء مخلوطة بظلمة.

والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى.. وهو أمر وجودى^(١).

هذا موجز لما أورده الإمام الرازى ملخصا لما قاله كثير من علماء الفكر الإسلامى قديما وبعض المفسرين ومنه نستشف أن الرازى يدور من خلال ما أورده حول نقاط كثيرة من أهمها نورانية هذه الظلال وكونها أمر وجوديا قائما بنفسه، بل هو شئ من شئ مثله وإن اختلف عنه فى خصائصه كلها أو بعضها، لذلك نجده

(١) التفسير: الرازى: ٨٨ - ٨٩/٢٤.

يركز كل ما قيل عن الظل في آخر ما أورده في كلمات قليلة معدودة مركزة، فانظر إليه وهو يقول: «والحقيقة أن الظل عبارة عن الضوء الثاني، وهو أمر وجودي». إذن فهو الضوء الثاني.. ترى لأي شيء وما هو الضوء الأول. وتراه يركز على نورانية الظلال بقوله «وهو أمر وجودي» فقوله: أمر أي شيء نوراني، لأن الأمر عندهم هو الأشياء النورانية - وسيأتي توضيح ذلك في مكانه بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - أما قوله «وجودي» فهو إشارة منه إلى الإيجاد والإخراج الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن ما في الدنيا، هو إنشاء وكما سبق وسوف يأتي في مكانه - بأمر الله تعالى وتوفيقه - ولذلك يعود ثانية ليؤكد حقيقة هذا الإيجاد النوراني بقوله: «فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودا وماهية، لأن الأشياء تعرف بأضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور» لذلك فهما متعاقبان متلازمان.. أترأى يقصد بهذا التلازم الضوء الأول والضوء الثاني، ممكن لم لا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك تلاحظ أن الظل عندهم أي من لخص الرازي أقوالهم، وهو معهم في رأيهم - والله أعلم - هو حالة وكيفية وصفة، لمرحلة كلها بهذه الهيئة الخاصة والصفة، بل بهذا القانون النوراني - أيضا - تدار وتُسَيَّر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكل ما في تلك المرحلة بناء على ذلك هو من طبيعتها الظلية - النورانية، ولذلك فالمخلوق الإنساني فيها هو أيضا من طبيعتها.. ولذلك يقول الرازي: وإذن فأطيب الأحوال هو الظل، ولذلك وصف الله تعالى الجنة فقال: ﴿وظل ممدود﴾ وقال: ﴿أكلها دائم وظلها﴾، وقال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. إذن فالجنة من هذه الطبيعة الظلية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك النار، هي موجودة في هذا المكان ذي الخاصة الظلية وهي من جنسها، ولكنها بنوعية تخالف ما عليه خاصية الجنة لكون هذه الصورة تشملهما معا، ولكن قد يكون التباين في خاصية طبيعة كل واحدة منهما، وإن كانت الصفة العمومية لقانونهما هي واحدة، وهذا قد يظهر لنا من خلال وصف ظل كل واحدة منهما كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم. فإذا كانت الطبيعة

الظلية هي الصفة العامة، فإن القرآن يقول عن ظل الجنة بأنه ﴿وندخلهم ظلًا ظليلاً﴾ إذن فهو ظل ظليل، وبارد كريم، وممدود، أما ظل النار فهو كما ذكر القرآن الكريم: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغنى من اللهب﴾. فإذا كان ظل الجنة ظليلاً فالنار ليس بظليل، لأنه نار «لا بارد، ولا كريم» لأنه «ظل من يحموم» ولكنهما مع ذلك تشملهما الخاصية النورانية معاً، والاختلاف إنما هو في صفات ظل كل واحدة منهما.. بل إن النورانية هي طبيعة وخاصية كل شيء موجود في هذه الصورة المرحلية، وهذه الدلالات التي لخصها لنا الإمام الرازي نجد مثلها تاماً - وإن كانت موجزة - في كتاب جامع أحكام القرآن الكريم للإمام القرطبي، وهو كتاب جماع أي كتاب يحوى كثيراً من أقوال مشايخ التفسير ومن ذلك هذه الإشارة التي يرويها الإمام القرطبي في كتابه هذا عن خبر الأمة وترجمان القرآن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما - حول قوله تعالى - في آية الفرقان السابقة: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ يقول: «أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى، لأن الأشياء تعرف بأضدادها، ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة»^(١).

إذن فجميع المفسرين يكادون يلتقون عندما أشرنا إليه وهو نورانية الظل فابن عباس رضى الله تعالى عنهما - يشير إلى أن الظل هو شيء ومعنى فقوله شيء أى أنه مخلوق قائم بذاته وخصائصه وقانونه، وقوله معنى يعنى أن هذا الشيء هو أمر من الماهيات والكيفيات أى أنه طاقة نورانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وسوف يأتى الحديث عن لفظة (شيء) فى مكانها بأمر الله تعالى وإذنه - إذن فكل شيء فى هذه المرحلة - صورة الظل - هو من جنسه وهو حى متحرك عاقل فاهم، كما سبق فى آية الرعد، وغيرها كثير فى القرآن الكريم، كهذه الآية الواردة فى سورة النحل وهى تؤكد حقيقة ما أشارت إليه آية الرعد قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾^(٢).

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١٢/٣٧.

(٢) سورة النحل: آية «٤٨».

يقول الإمام الرازى حول هذه الآية: ثبت أن المراد بهذا السجود - هو - الانقياد والتواضع، ونظيره قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ وقوله: ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ - وقد مر بيانه وشرحه - وكان الحسن يقول: أمّا ظلك فسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد له بثسما صنعت. وقال مجاهد: ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى. وقيل: ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك - أى صاحب ذلك الشيء - ساجدا أم لا وقوله: ﴿وهم داخرون﴾ أى صاغرون يقال: ادخّر يدخّر ادخاراً: أى صغُر يصغُر صِغَاراً، وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أم أبى، وذلك لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتديبره وهم «داخرون» حال - أيضاً - من الظلال، فإن قيل: الظلال ليست من العقلاء فكيف وصفهم بالواو والنون.. قلنا لأن الله تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا بالعلاء^(١).

إذن قاله سبحانه وتعالى يؤكد لنا بطرق كثيرة وإشارات إذا وردت فى لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم عرف منها أهل هذه اللغة أن من وصف أو وصفوا بتلك الإشارات هم من أهل العقل والفهم والإدراك، وإلا لما وصفوا بهذه الأشياء، قالوا والنون عندهم، لا تلحق من صيغ الجمع إلا صيغة المذكر السالم، والمذكر السالم يقصدون به الإنسان، ولذلك فغير العاقل لا يجمع ولا يوصف بهذه الصفة وإنما له صيغته التى تخصه عندهم، بل حتى ولو كان هذا المخلوق عاقلاً وهو من غير الجنس الإنسانى، فإن صيغة جمعه لا تلحقه الواو والنون، فمثلاً الملك هو مخلوق عاقل مدرك، ولكنهم إذا جمعوه لا يلحقون به الواو والنون بل يقولون ملائكة بتغير صورة مفردة عند جمعه، ولكن كيف وصفت الظلال بهذه الصفة العقلية - كما قال صاحب النص - وهم ليسوا من أهل العقل. قلنا لأن الحق جل سنا، لما ألحق بهم هذه الواو والنون وهى تخص الجنس الإنسانى العاقل، وأكد - سبحانه - هذه الإشارة بإشارة أخرى تعم جميع الخلق العاقل من إنس وملائكة وجن، وهى صفة الطاعة والدخور - كما قال صاحب النص - فالطاعة والصغر لا يوصف بها إلا العقلاء، إذن

(١) تفسير الرازى: ٢٠/٤٣.

فالظلال خلق عاقل مدرك فاهم، لهذا فالظلال صورة مستسوخة لهذا الخلق ومنهم الإنسان - أى الخلق الموجود فى الصورة الدنيوية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أما قضية هل كل من فى الصورة الدنيوية كلهم عقلاء؟ قلنا: هناك تفصيل أى أن العقلاء فيهم من هو عاقل مختار - فى الدنيا - ومنهم من هو عاقل جبلى كما سبق.

إذن فأى شىء مخلوق فى هذه الصورة الدنيوية يكون له ظل مثله - تماما - وهو صورة أخرى له فى صورة مكانية أخرى، لها قانونها وخصائصها وطبيعتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وإن جميع هذه الصور هى مأخوذة من أصل واحد موجود فى «أم الكتاب» - كما سبقت الإشارة إليه فى البداية بحمد الله تعالى وتوفيقه - ولذلك نجد الإمام الرازى - رحمه الله تعالى يقول عن هذه الإشارة أثناء حديثه عن قوله تعالى عن الجنة ﴿وظل ممدود﴾ «الواقعة».

يقول: هناك وجوه كثيرة حول هذه الآية منها:

الأول: ممدود زماناً: أى لا زوال له، فهو دائم كما قال تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أى كذلك.

الثانى: ممدود مكاناً: أى يقع على شىء كبير ويستتره من بقعة الجنة.

الثالث: المراد ممدود: أى منبسط كما قال تعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ فإن قيل: كيف يكون الوجه الثانى نقول: الظل، قد يكون مرتفعاً فإن الشمس إذا كانت تحت الأرض يقع ظلها فى الجو فيتراكم الظل فيسود وجه الأرض، وإذا كانت على أحد جانبيها وهى قريبة من الأفق، فينبسط على وجه الأرض فيضئ الجو، ولا يسخن وجه الأرض فيكون فى غاية الطيبة. فقوله تعالى: ﴿وظل ممدود﴾ أى عند قيامه ممدوداً على الأرض، كالظل بالليل، وعلى هذا فالظل ليس ظل الأشجار - أى فى الجنة - بل هو ظل يخلقه الله تعالى^(١).

(١) تفسير الرازى - المرجع السابق.

إذن فالظل الوارد فى الآية المذكورة ﴿وظل ممدود﴾ لا يقصد به ظل الأشجار المخلوقة فى الجنة، لا بل هو خلق آخر قائم بنفسه، كما رأينا حول ما قاله رسول الله ﷺ لبلال رضى الله تعالى عنه وأرضاه «لقد سمعت الليلة خشف نعليك فى الجنة»، ألا يشعركم ذلك أن بلال - رضى الله تعالى عنه وأرضاه - الموجود فى الصورة الدنيوية هو نفسه بلال الموجود هناك فى الصورة الظلية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالجنة كلها ظل وذلك لأن طبيعة المكان هى الظل، وهو قانونها أى أنها صورة مستسخة من الأصل «أم الكتاب» لها مكانها وخصائصها، كما أن الصورة الأرضية لها طبيعتها وخصائصها، كما أن الصورة الموجودة فى السماء الدنيا لها كذلك خصائصها .. فالأصل واحد وإن تعددت الصور واختلفت طبيعتها ألا نذكر ما قاله الإمام القرطبى حول قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ألم ينقل لنا ما روى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، أنه قال: «فى العرش مثال كل شيء خلقه الله تعالى، فى البر والبحر» وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

إذن ففى العرش لنا صورة ومثال - وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى البداية بحمد الله تعالى وتوفيقه - وما رآه أبونا آدم عليه الصلاة والسلام «فى يدي ربي من صورة - وكلتا يدي ربي يمين - له ولذريته وفى «أم الكتاب» صورة موجودة ومنه استسخ الإيجاد.

وقفه مع لفظ فى آية قرآنية

والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين، ولنا فى «اللوح المحفوظ» مثال إن ثبت أنه غير «أم الكتاب» أى صورة مستسخة قائمة بنفسها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فكل شيء مخلوق وموجود كان أو منشأ، له أكثر من صورة طبق الأصل للمثال الأصل، أى أن ذلك الشيء والمثال الأصل أوجد منه صوراً متعددة منها صور نورانية بخصائص مختلفة، منذ أن قال الحق جل سناه «للقلم اكتب..» وقد مضى الحديث عنها - بحمد الله

وتوفيقه . ثم أخذت تلك الصور بعد ذلك تنتقل بأمر الله تعالى وإذنه فى صور وجودية متنوعة، ومتعددة لتأخذ بعد ذلك صوراً إنشائية بخصائص متنوعة ومتعددة حتى تصل منها صورة خاصة بالبيئة الدنيوية، بيئة وعالم الاستحالة والفناء، لتأخذ بعدها رحلة العودة كما قال جل شأنه: ﴿إليه ترجعون﴾ وأظن أن هذه إشارة من إشارات ما رمز إليه بقوله: «كل شئ خلقه الله تعالى فى البر والبحر».

وإذا أردنا إشارة أوسع حول هذه الآية نفسها ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه..﴾ فهذا الإمام الفخر الرازى يقول فى تفسيره الكبير: «قال الواحدى - رحمه الله تعالى - الخزائن جمع الخزانة، وهى اسم المكان الذى يُخزن فيه الشئ، أى يُحفظ، والخزانة - أيضا - عمل الخازن.. ويقال: خزن الشئ يخزنه إذا أحرزه فى خزانة.. وعامة المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾.. هو المطر.. وذلك لأنه هو السبب للأرزاق لمعاش بنى آدم وغيرهم من الطيور والوحوش.

ولقائل أن يقول: «لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى، فإن قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ لا يدل على أنه تعالى ينزله فى جميع الأعوام على قدر واحد، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل.. وأقول أيضا تخصيص قوله تعالى: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾ بالمطر تحكم محض، لأن قوله: ﴿وإن من شئ..﴾ يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل.. وقوله: ﴿إلا عندنا خزائنه﴾.. إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى.. وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له تعالى ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف يشاء. إلا أنه تعالى، وإن كانت مقدوراته غير متناهية، إلا أن الذى يخرجها منها إلى الوجود يكون متناهيا، لأن دخول ما لا نهاية له فى الوجود محال.. فقوله: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾ إشارة إلى أن كل ما يدخل منها فى الوجود فهو متناه. ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهيا كان لا محالة مختصا فى الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت، أو بعده بدلا عنه، وكان مختصا بحدّز معين مع جواز

حصوله فى سائر الأحياء، بدلا عن الحيز، فكان مختصا بصفات معينة، مع أنه كان يجوز فى حصول سائر الصفات بدلا عن تلك الصفات. وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين والصفات المعينة بدلا عن أضعادها، لابد أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ والمعنى أنه لولا القادر المختار الذى خص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة. والمراد من الإنزال: الإحداث والإنشاء والإبداع.. كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ والله تعالى أعلم^(١).

هذا ملخص ما قاله الإمام الرازى حول بعض إشارات الآية السابقة ونلاحظ أن هذا الشيخ كان قد أدرك نظراً لما أعطيه من الله من إدراك ثاقب وحصافة وفطنة قد أدرك فى عصره كثيراً من القضايا التى وضحت فى عصرنا وزمننا، لكن لا غرابة فى الأمر، إنه عطاء قرآنى، عطاء الكتاب الذى لا يتبدل ولا يتغير، لأنه كلام رب العالمين، الذى ﴿لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ فهو الكتاب المعجز الذى يعطى كل زمان ومكان ما يلائمه من رقى وتقدم علمى، فى الوقت الذى لا يمنع أن يعطى لزمان سابق بعض إشارات زمان سيؤتيها لزمان لاحق، لحكم يريدها الجليل سبحانه. وإذا نحن دققنا فى بعض دلالات هذا النص الذى بين أيدينا قد نجد مصداقاً لكثير مما قلناه آنفاً، فمن ذلك نرى أنه أشار بإشارات كثيرة وصريحة، منها مثلاً ما أشارت إليه الآية نفسها ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ فقوله الخزائن جمع الخزانة وهى اسم المكان الذى يخزن ويحفظ فيه الشيء إذن، فالآية نفسها دلت على أن الشيء الواحد له مجموعة خزائن ترى لماذا؟ ألا يعنى أن كل صورة مستسخة من ذلك الشيء الأصل، ونقلت إلى مكان ذى خصائص معينة أصبح ذلك المكان الذى هى موجودة فيه هو بمثابة الخزانة والحرز لها، هى محفوظة فيه. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فمجموع هذه

(١) تفسير الرازى: ١٩/١٧٤.

الخزائن للشيء الواحد دل على إشارة وجود تعدد صور ذلك الشيء - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأظن - والله تعالى أعلم - أن هذا هو مقصد الشيخ الرازي من قوله: «ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهياً، كان مختصاً في الحدوث بوقت مقدّر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلاً عنه، وكان مختصاً بحيز معين، مع جواز حصوله في سائر الأحياز بدلاً عن الحيز، وكان مختصاً بصفات معينة بدلاً عن تلك الصفات».. فذلك الشيء عنده لا يتمتع عنده بقدرة القادر - الذي هو الله تعالى - أن يخرج ويوجد في أوقات وأحياز ذات خصائص وصفات متعددة كما أن أصلها - ذلك الشيء ذا الخزائن - هو موجود في حيز لخصائص وصفات ذلك الحيز - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك نلاحظ أن الشيخ قد أشار بإشارات صريحة أخرى أيضاً إلى الناحيتين النورانية والوجودية بخصائصها وصفاتها بحسب تعددها النوراني كقوله: «فإن كان لا محالة فمختصاً في الحدوث بوقت مقدّر..» مشيراً بذلك إلى قضايا حدوث وجود هذا الشيء بخصائص وصفات معينة.. ثم قوله بعد ذلك «مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلاً عنه.. إلى آخر ما ذكر..» مشيراً إلى حصوله وحدوثه بخصائص وصفات غير تلك التي حصل بها.. ثم نراه يؤكد - بعد ذلك - قضايا الإحداث المادي بقوله «..والمراد من الإنزال والأحداث والإنشاء والإبداع..» كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فلفظ الإنشاء في كلامه السابق الذكر.. فيه إشارة إلى الصورة والنسخة الدنيوية.. وهي المادية، بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وسوف يأتي تفصيل وتوضيح لقضية الإنشاء هذه، وتوضيح أكثر نرى من خلاله أن المقصود بدلالة لفظ الإنشاء الإحداث المادي الذي في الدنيا ثم الإنشاء الثاني للبعث والنشور بإذن الله تعالى.

ويمضي الرازي - رحمه الله تعالى - في تأكيد ما سبق أن أشار به، بإشارة سريعة أخرى بقوله: تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في اثبات أن المعدوم شيء.. قال

لأن قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ .. يقتضى أن يكون لجميع الأشياء خزائن.. وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات، من حيث إنها موجودة.. لأننا بينّا أن المراد من قوله تعالى: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ الإحداث والإبداع والإنشاء والتكوين، وهذا يقتضى أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله تعالى: متقدما على حدوثها ودخولها فى الوجود. وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررّة عند الله تعالى.. بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث إنها حقائق وماهيات ثم إنه تعالى أنزل بعضها. أى أخرج بعضها من العدم إلى الوجود. ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله لا شك أن لفظ الخزائن إنما ورد هنا على سبيل التمثيل والتخيل، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على إيجاد تلك الأشياء وتكوينها وإخراجها من العدم إلى الوجود.. وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال.. والمباحث الدقيقة باقية^(١).

هنا نقف وقفة سريعة لنقول لأصحاب هذا القول ومؤيديه أن قولكم «أن المعدوم شيء» بعيد جدا عن الواقع عقلا ونقلًا، فأما العقل لأنه سيعيدنا إلى حكاية التسلسل والدور، وهذه ممنوعة بالاتفاق أما النقل فكل ما فى القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ فهى ضد ذلك وعلى هذا سار السلف والخلف بل إن بحثنا هذا من بدايته - كما رأينا - وإلى نهايته بإذن الله تعالى - كما سوف نرى ذلك بإذن الله تعالى - فهو يدحض ما أشرتم إليه ويجلى الحقيقة التى أشار إليها القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد أدركنا الكثير من السلف والخلف.. وعلى ذلك نقول - بحمد الله وتوفيقه - إن كان قولكم: «إن المعدوم شيء» لأنه يعنى أن خزائن ذلك الشيء متقدم على حدوثها ودخولها فى الوجود وهذا باطل»، إن قولكم هذا يعنى بالإحداث هو الإحداث المادى، ومعلوم أن الإحداث المادى مسبق بالإيجاد النورانى كما سبق تفصيله وما سيأتى - بإذن الله تعالى - وهذا يعنى أن الإحداث المادى كان قبل ذلك

(١) تفسير الرازى: ١٩/١٧٥.

فى تلك الخزائن ماديا، حتى الإحداث المادى له خزائن كما رأينا سابقاً تعدد تلك الصور، والصور الأرضية كما فى من وجد فى الأرض البيضاء.. ثم إن الأحداث أو الإيحاء النورانى قد أثبتتموه أنتم بأنفسكم فيما قلتموه، ألم تقولوا: «وهذا يوجب أن يكون المراد أن تلك الذوات كانت متقررة عند الله تعالى، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث أنها حقائق وماهيات ثم أخرجها من العدم إلى الوجود».

إذن فهى كانت ثابتة ومتقررة فى علمه تعالى ثم إنه . سبحانه . أخرجها حقائق وماهيات نورانية إلى «أم الكتاب» وما تلا ذلك من إيجاد.. وبعد ذلك أنزلها وأنشأها إنشاء ماديا كما يشير إلى ذلك كل النصوص القرآنية وأحاديث رسول الله ﷺ ، إذن فالشئ كان مقدراً فى علم الله تعالى، ثم إنه أحدث إحداثاً نورانياً ثم أخذ ينتقل بعد ذلك فى نورانيته بخصائص وصفات ودرجات متنوعة كما يريد سبحانه وتعالى فى «أم الكتاب» واللوح المحفوظ ثم خزائن السموات والأرض، ثم بعد ذلك الأحداث والإنشاء المادى الدنيوى . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ومن هنا نجد الرازى يقول فى آخر رده على ذلك مهما قيل فإن «المباحث الدقيقة باقية».

وهذا رأى من بعض أهل الاعتزال قد يكون غريباً أمره لأسباب كثيرة من أهمها.. أن أكثر أهل الاعتزال متفقون مع جل أهل الفكر الإسلامى وأكثر أهل الحديث وأكثر أهل رأى من أهل هذه المدرسة فى رأى . هم جميعاً متفقون على أن الإيجاد والأحداث قد يجتمعان فى أمور ويختلفان فى أخرى فهما متفقان فى الدلالة الخلقية، أى أن كل شئ لم يكن موجوداً البتة، ثم إن الله تعالى أحدثه وأوجده، أى أن ما لم يكن كان بأمر الله . سبحانه وتعالى عما يصفون . ثم إنهم جميعاً اتفقوا على أن يفرقوا بين الداليتين بإشارة تجعل لكل واحد منهما بُعداً معنوياً آخر، وعلى ذلك فهم حينما يقولون أو يشيرون بدلالة الوجود، فهم يقصدون بها الأحداث والإيجاد الأول فى «أم الكتاب» وفى العالم المجرد كما يقولون: أى العالم «الروحانى» . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أما

التكوين والإنشاء، فهم حينما يطلقونها فأظنهم يقصدون بها الإحداث الديوى المادى، كما تشير إلى ذلك إشاراتهم الكثيرة - كما سبق - وإن أوردنا لهم الكثير من ذلك.

وعلى ذلك يمكن أن نفسر قولهم بوجود الإنسان يعنى أنه كان محدثاً إحداثاً نورانياً فى «أم الكتاب واللوح المحفوظ وفى جل تلك الخزائن» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وعندما استُسخ أول إنسان وسُمى آدم وأُسكن الجنة، وجرى منه استساح آخر لأخذ الميثاق وما بعده كل ذلك، كان وجوداً نورانياً وإن كان متنوع الخصائص والصفات - كما سبق - ثم جرى بعد ذلك الإحداث والإنشاء الآخر، وهو تحول إلى عالم الاستحالة والإيات فى الدنيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن هنا نرى أن نعود ونشير إلى هذه القضية الإيجابية النورانية فمع إشارة هذا الإيجاد.

عودة للإيجاد النورانى للإنسان، وإشارة لابن عربى وآية قرآنية:

يقول الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - حول قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾^(١).

يقول ابن عربى: ..يريد عدمه فى عينه، لأنه كان مذكوراً معلوماً لله تعالى.. والدهر اسم من أسماء الله تعالى ولهذا الاشتراك اللفظى نهى رسول الله ﷺ عن سبِّ الدهر وقال «إن الله تعالى هو الدهر..» وما ثم عين تتسب لعينها، وإنما تتسب لما يصدر منها، وما يصدر - كون - إلا من الله تعالى. والدهر الزمانى نسبة وقوله تعالى: ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾. يعنى الإنسان فى ذلك الحين: أى موجوداً فى عينه مع وجود الأعيان، ولكن ما تعرفه حتى تذكره ولا هى: «أى الأعيان الموجودة فى ذلك الحين» ذات فكر حتى تجمعها فى ذهنها تقديرأ فتذكره.. فإن الفكر من القوى التى اختص بها الإنسان، ولا توجد فى غيره... إلخ»^(٢).

(١) سورة الإنسان: آية «١».

(٢) الفتوحات المكية: ١٦٧ - ١٦٨/١٤.

هذه إشارة موجزة لابن عربى.. وفى هذه الأسطر يحاول أن يرد على أولئك الذين يقولون بعدم وجود هذا الإنسان فى «أم الكتاب» وبخصائصه التى هو عليها . أم الكتاب . كان هذا الإنسان موجودا بها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهو ذلك . أى ابن عربى . يحاول أن يثبت وجوده هذا ، بقوله : «إنه كان مذكورا» وأن وجوده كان على هيئة غير عينية معروفة للجميع أى الأجناس التى سبقته فى الإيجاد العينى وأن تلك الأعيان لم تكن تستطيع إدراكه لأنها . كما يقول . ليست ذات قوى فكرية فتدركه ، وهو أمر لا يعنىها وجوده فى وقتها .. ومعلوم أن الفكر منحة ربانية اختص بها الإنسان لحكم ربانية كثيرة ، ارتباطه بالنشأة الدنيوية لكونه سيكون فيها خليفة ولكونها نشأة اختيارية . ليس هنا مقامها . ويمضى ابن عربى فى حوارهِ الذى يريد أن يثبت فيه وجود هذا الإنسان قبل نشأته الدنيوية بهيئة وصياغة غير النشأة الدنيوية يقول : «وهناك من قال أن هذه الآية تدل على عدم الاعتناء الإلهى بالإنسان لأن الله تعالى متكلم أزلاً ، عالم بما يكون أزلاً .. ونفى أن يكون الإنسان «شيئاً مذكوراً» مع أنه شيء ، ولا بد لقوله تعالى : ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ .. فما يأمر «الحق» إلا من يسمع بسمع ثبوتى ، أو وجودى ، ونفى . الله تعالى . أن يكون الإنسان «مذكوراً» فى حين من الدهر ، والدهر هنا الزمان ، والحين جزء منه ، لم يكن فيه الإنسان مذكوراً مع وجوده صورة إنسان»^(١) .

إذن فابن عربى يثبت بإشارة غير مباشرة ، وجود هذا الإنسان ، وأنه كان موجوداً أو مخلوقاً ، ولكنه كان خلقاً إيجابياً آخر غير الذى سيكون عليه فى الدنيا والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ولذلك يقول : كيف لا يكون هذا المخلوق موجوداً . والله سبحانه وتعالى . يخاطبه بقوله : ﴿كن فيكون﴾ ومعلوم أن الخطاب لا يكون إلا لمن يسمع ويفهم ويدرك . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . إذن فالحق يخاطب شيئاً هو موجود ، وقد تسأل وتقول : أين هو موجود ؟ أليس هذا الوجود هو فى «أم الكتاب» ، و«أم الكتاب» ترى ما هى

(١) الفتوحات المكية : ١٤/١٧٠ .

خصائصه وصفاته؟ أليست هي خصائص نورانية - طاقة والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالكائن لابد أن يكون من جنس المكان - والله تعالى أعلم - إذن فهذا الإنسان الموجود في «أم الكتاب» يُخاطب ويسمع بنفس قانون المكان الذي هو موجود فيه، بنفس خصائصه وصفاته.. وعلى ذلك فهو حينما ينشأ إنشاء ماديا فسوف يكون سمعه وخطابه بنفس هذا القانون المادي كما سيأتي الحديث عنه بإذن الله تعالى وتوفيقه - لذلك يقول ابن عربي «..فما يأمر الحق إلا من يسمع بسمع ثبوتى أو وجودى..». ولذلك ترى ابن عربي يشير إلى هذا الخلق والوجود النوراني بعبارات تعبر وتوحى بهذا الفهم المقصود - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - منه تلك الخاصية والصفة النورانية، بقوله: نفى الله تعالى أن يكون الإنسان مذكوراً في حين من الدهر، والدهر معناه الزمان، والحين جزء منه، لم يكن فيه الإنسان مذكوراً، مع وجود صورة إنسان».

إذن فابن عربي يشير إلى هذا الوجود النوراني، بما يدل عليه في ذلك الوقت.. فهو لذلك يقول: مع أن الإنسان كان موجوداً وهو صورة إنسان.. فكأنه أراد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن يقول: إن النفى الوارد في الآية المذكورة، كان مقصوداً به الإيجاد والإحداث المادي العيني، المعهود فيما بعد - والله تعالى أعلم - ولم يكن مقصود النفى عدم وجوده البتة، أو نقصان وانتقاص أو هوان هذا المخلوق عند الله تعالى أبداً.. لذلك يقول ابن عربي: «...وجهل من شاهد صورته - أى الإنسان - مراد الله تعالى فيه وما علم له اسم رتبة يذكر به، ولا ما له عند الله من العناية به التى ظهر أثرها عليه حين أقامه خليفة في أرضه. فمساق الآية الكريمة المتقدمة، الخاصة بخلق الإنسان تؤذن بتقرير النعم عليه، وإنما وقعت الصعوبة في هذا الذكر كونه نكرة.. والنكرة تعم في مساق النفس.. فالتكثير يؤذن بتعميم نفى الذكر عنه في كل ذاكر.. وهو دليل على أن الله تعالى ما ذكره لمن أوجد قبله من الأعيان، وإن كان مذكوراً له في نفسه سبحانه وتعالى ثم ذكره لملائكته بمرتبته التى خلق لها وهى الخلافة لا باسمه العلم، الذى هو آدم فأعلم..»^(١).

(١) الفتوحات المكية ١٧ - ١٤/١٧٢.

إذن فهو «لم يكن شيئاً مذكوراً» أى فى حالة كونه شيئاً طينياً مادياً، وإلا فهو مخلوق وموجود، ولكن بصفة وخاصية وماهية وحالة غير صفته المادية التى سوف يكون ويتحول إليها فيما بعد . بإذن الله وأمره . ولذلك نلاحظ ابن عربى يركز على ناحيتين مهمتين فى كلامه الآنف الذكر.. وهما قوله «إن الله تعالى لم يذكره لمن وجد قبله من الأعيان، وإن كان مذكوراً له فى نفسه . سبحانه وتعالى . وهذه الإشارة أظن أنا قد وقفنا عندها، وذلك عند حديثنا عن قضية «أم الكتاب» ونورانيته، وما استدللنا على ذلك من آيات وأحاديث والتي منها ما رواه أبوهريرة رضى الله عنه وأرضاه: «...كلتا يدي ربي يمين مباركة...» إلى أن قال ففتحها . سبحانه وتعالى فإذا فيها صورة آدم وذريته... إلخ. إذن فهو فى هذه الحالة كان موجوداً، ولكنه وجوداً نورانى.. وقد ورد بعض التفصيل عنها وسوف يأتى بعض منه بإذن الله تعالى وتوفيقه . أما الناحية الثانية، فحينما قال عنها . ابن عربى . : ... ثم ذكره للملائكة بمرتبته التى خلق لها، وهى الخلافة . لا باسمه العلم، الذى هو آدم (فأعلم ...).

إذن فهو هناك عند الله تعالى، إنساناً عموماً من سائر الجنس الإنسانى أما هنا فى الأرض فباسمه العلم الخاص به، اسمه الملائم لصورته المركب فيها هنا، وهى الأدمة الأرضية، لأنه . كما قيل . إنما سمي آدم لكونه مأخوذ من أدمة الأرض.. «...سمى آدم لغلبة الأدمة عليه، إذ الأدمة هى السمرة، أى اللون الذى يضرب إلى السواد، إذ الحياة هى اللون الذى يغلب عليه السواد...»^(١) وقريب من هذا المعنى «هو ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، إذ ورد عنه أنه قال أنه مشتق من الأدمة وهى السمرة...»^(٢).

إذن فنفى الذكر عن وجود الإنسان إنما كان هو نفى وجوده المادى الذى تحول إليه فيما بعد فى وقته . لحكمة عظيمة أعلنتها الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

(١) تفسير ابن عربى ١/٤٠.

(٢) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبي: ١/٢٧٩.

ساجدين..﴿ إذن فالنفس منصبة على هوية ماديتها ومهمته . بل أقول . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أن آية النفس جاء بعدها ما يؤكد ما قاله ابن عربي فقد جاء قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج..﴾. إذ قوله تعالى: ﴿من نطفة أمشاج نبتليه..﴾.. ومعلوم أن الذي خلق من نطفة هم ذرية آدم عليه السلام، من آدم وحواء . وهلم جرا . بعد الإهباط إلى الأرض، وانطلاق التنازل، لأنه هو الذي يتلاءم مع النص القرآني، ومع قضية الابتلاء والاختبار، أما الإنسان في «أم الكتاب» فهو موجود فيه بوضع ليست هذه الصفات والخصائص المشار إليها في النص القرآني هي من صفاته، إذ هي من صفات صورة عالم الأخلاط والامتزاج الدنيوي، عالم العناصر والتركيب المادي، ومعلوم أن هذه الصفات هي من صفات النشأة الدنيوية، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في كل آياته الكريمة وأحاديث رسول الله ﷺ.. إذ هذه العناصر والأخلاط هي مأخوذة من خزائنها ومستودعها الخاص بها في «أم الكتاب» ثم استسخت من تلك الخزانة والمستودع الخاص بها وتحولت إلى هذه الخصائص والصفات الدنيوية بالإهباط ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾^(١).. وسوف يأتي تفصيل ذلك كله في مكانه بإذن الله تعالى وتوفيقه . عند قضية الحديث عن الخلق والنشأة الدنيوية بإذن الله تعالى . وهذه الإشارة أظنها هي التي يشير إليها ويؤكد بها بعض العلماء وذلك عندما يلخص مجمل الخلاف حول قوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون..﴾.

يقول: «إن الله عز وجل . عالم بما هو كائن قبل كونه . فكانت الأشياء التي لم تكن، وهي كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة للتي هي موجودة فجاز أن يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود لتصير جميعها له ولعلمه بها في حال العدم..»^(٢).

(١) سورة الأنعام: آية «٩٨».

(٢) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبي: ٨٩ - ٢/٩١.

إذن فهذا القول الموجز - وإن كان سوف يأتى تفصيله فى موضعه بإذن الله تعالى - تراه يلخص كل ما سبق أن أشرنا إليه فى هذا الفصل وما سبقه.. فالأشياء التى كانت فى علمه وتقديره - سبحانه وتعالى - أمرها بالخروج فخرجت كما يريد - سبحانه وتعالى - مشابهة لها طبق الأصل والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لتصوير جميعها له ولعلمه إذن فهى صور حقيقية مطابقة لما كان فى علمه - سبحانه - وحديث أبى هريرة السابق من أكبر الأدلة على ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهنا فالأشياء التى كانت هى صورة لتلك الأشياء فى علمه - سبحانه - فخرجت تلك الصور وهى على حال غير الحال التى هى عليه فى الدنيا، ومن هنا تعددت الخزائن لتعدد تلك الصور حسب أماكنها التى وجدت فيها، وعلى هذا فالصورة الشئ فى «أم الكتاب» هى نفسها غير طبيعتها فى طبيعة مكان آخر. ولذلك نلاحظ أن القرآن الكريم حينما أشار إلى الخلق الإيجادى وتعدد أماكنه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(١) وعندما أشار إلى قضايا الإنشاء الدنيوى أولاً؛ لم تسم الآيات القرآنية المشيرة إلى ذلك هذه المخلوقات بالأشياء وإنما سمتها بالأنفس، ثانياً؛ نها حينما أشارت إلى الخلق الإيجادى - أيضاً - سمت أماكنها بالخزائن، أما حينما أشارت إلى الإنشائى فلم تسم تلك الأماكن بالخزائن، وإنما سمتها بالمستودع والمستقر، كما سيأتى تفصيل هذه فى أماكنها إذ قالت الآية الكريمة: ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.. وذلك لأنهما نشأتان، نشأة أولى دنيوية ونشأة ثانية أخروية كما سوف يرد بإذن الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأظن أن هناك فرقاً كبيراً بين دلالتى الخزائن، والاستيداع، والاستقرار سواء كان ذلك من حيث اللغة أو من حيث الاصطلاح الشرعى، أو العلمى وسوف يرد ذلك بإذن الله تعالى فى مكانه.. إذن فما أشرنا إليه قد وجد من أهل الاعتزال

(١) المرجع السابق.

والكلام من يؤكد ما سبق وأشرنا إليه، وترى ما فى إشارتهم التأكيدية السابقة دحض لكل ما أشارت به تلك الفئة السابقة فيما قالتها حول لفظ شيء.. ولذلك ترى لهذه الفئة الاعتزالية وبعض المشوشين، كثيرا من الأقوال التى سمحوا فيها لعقولهم أن تسرح وتمرح كيفما تشاء دون أن تضع تلك العقول فى حجمها الطبيعى القاصر، وتحاول أن تتلمس الحقيقة بجوانب أخرى كثيرة مما ورد فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ من أقوال بعض الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين رضى الله عنهم أجمعين، ولذلك نجد أن جل أقوالهم - إلا ما شاء الله تعالى - هذه الفئة وأمثالها من أصحاب الكلام - مثلا - حول هذه الآية «كن فيكون» هى بعيدة جدا، وذلك لأنهم يقفون عند الجزء الأخير فى الآية الكريمة فقط.. ثم يعممون كل كلامهم على بقية الآية، بل والآيات الأخرى الواردة فى مثل هذا المعنى، أى التى فى آخرها «كن فيكون» أو قريبا منه.. ولو رجعنا للقرآن الكريم نفسه، لوجدنا أن هذين اللفظين «كن فيكون» قد وردا فى مجموع آيات قرآنية كثيرة.. ولذلك نرى أن نوردتها جميعها، ونحاول أن نتعامل معها بما يسره الله تعالى.

من براهين اختلاف دلالات الإيجاد والإنشاء والخلق؛

ولكن هذا يجب أن ينبثق من خلال النص القرآنى بعد التأمل فيه بدون النظر فى أقوالهم ولا بأس إن وجدنا من الأقوال ما نستأنس به ورأينا أنه يتفق مع النص القرآنى أخذناه. إذن فماذا سنجد من إشارات - بتوفيق الله تعالى وكرمه - ولو لم نشرحها واكتفينا بنصوصها، وذلك لأن القرآن الكريم واضح ميسر بحمد الله وتوفيقه - إلا ما ورد أن فيه متشابهها فهذا نؤمن به كما أمرنا ولا نؤخذ فيه، بل نوكل معناه إلى الله تعالى كما أمر الله سبحانه - فما هى تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾^(١).

(١) سورة البقرة: آية «١١٧».

قال تعالى: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾^(١). وقال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾^(٢).

قال تعالى: ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾^(٣).

قال تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾^(٤).

قال تعالى: ﴿هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا، فإنما يقول له كن فيكون﴾^(٥).

قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم، لا بيعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾^(٦).

قال تعالى: ﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾^(٧). قال تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾^(٨).

(١) سورة آل عمران: آية ٤٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٣) سورة الأنعام: آية ٧٣.

(٤) سورة مريم: الآيتان ٣٤ - ٣٥.

(٥) سورة غافر: الآيات ٣٨ - ٤٠.

(٦) سورة النحل: آية ٤٠ وما بعدها.

(٧) سورة يس: الآيات ٧٨ - ٨٣.

(٨) سورة الأعراف: آية ١٦٦.

قال الله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾^(١).

قال تعالى: ﴿قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾^(٢).

هذه جل الآيات التى وردت فيها إشارة «كن فيكون» .. وبالتأمل فى نصوصها، تلاحظ معى أنها تسير فى ثلاثة محاور رئيسية تتداخل بعضها فى بعض وارتبط كل محور بالآخر، وذلك أنا لو أخذنا بعض آيات مع بعض، فإننا سنراها تشكل لنا ذلك المحور الذى يخصها، أى يخص معانيها الخاصة التى ترتبط بخصوصيتها، وإن ارتبطت من حيث عموم مجمل معانيها بما بعدها من محور بجسر من المعانى يربط بينهما، فمثلاً لاحظ أن ما سنقول به عن الله تعالى هو رسم تقريبي فقط. والحقيقة هى عند الله تعالى سبحانه لو أخذنا آية البقرة (١١٧) وآل عمران (٤٧) وآية سورة مريم (٣٤، ٣٥) .. ونلاحظ أنه يمكن أن توضع تحت مسمى هذا المحور: الإخراج من العدم إلى الوجود - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ونجد أن آية (٥٩) من آل عمران وآية (٦٨) من غافر يشكلان جسراً يربطهما جميعاً بما بعدهما وذلك لأن المحور الذى يرتبط بسابقه عن طريق هذا الجسر يمكن أن تشكل هذه الآيات التالية، آية (٧٣) سورة الأنعام، وآية (٤٠) وما بعدها من سورة النحل وآية (٨٢) وما بعدها من سورة ياسين ويمكن أن توضع تحت هذا المسمى: الإخراج من القبور إلى النشر، أى من الموت إلى الحياة والجسر الرابط بينهما، فيهما من المعانى التى تربط بين ذانك المحورين الكثير، إذ فيهما الإشارة إلى إخراج عيسى، وله - عليه الصلاة والسلام - حديث طويل جداً جداً يخصه سيأتى فى مكانه بمشيئة الله تعالى وتوفيقه. أما آية البقرة (٦٥) وآية الأعراف (١٦٦) وآية (٦٩) من الأنبياء فيمكن أن توضع تحت مسمى: عملية براهين ومشاهد محسوسة لقضايا التحول من

(١) سورة البقرة: آية ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٦٨ - ٦٩.

أمر إلى آخر والعكس، وكذلك آيات الجسر وهى الآيات المتبقية بأمر الله تعالى وأذنه - الذى يربط المحور الثالث بما قبله، وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن خلال هذا الترابط والتداخل، قد نجد محاور أخرى جديدة متصلة - أيضا - بالمحاور الرئيسية وسوف نلاحظ من خلال بعض ما قاله بعض المفسرين حول كل آية ما قد يقرب أو يبعد مما سبق أن أشرنا إليه آنفاً .

فماذا قالوا مثلاً حول آيات المحور الأول: يقول الإمام القرطبى - رحمه الله تعالى - حول آية البقرة (١١٧) وإن قد سبق وأخذنا عنها ما لخصه القرطبى حولها، فلا يمنع أن نورد بعضاً آخر مما قاله أيضاً - وهو - أيضاً تلخيص لكل ما ورد وتردد فى كتب التفسير وأهل الكلام من معتزلة وغيرهم - بقوله: «وتلخيص ما فى هذه الآية الكريمة - أن الله عز وجل لم يزل أمراً للمعدومات بشرط وجودها قادراً مع تأخر المقدورات علماً مع تأخر المعلومات، فكل ما فى الآية يقتضى الاستقبال، فهو بحسب المأمورات المحدثات تجيء بعد أن لم تكن.. وكل ما يسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قد تم، ولم يزد. والمعنى الذى تقتضيه عبارة «كن» هو قديم بالذات.

قال أبو الحسن الماوردى: فإن قيل ففى أى حال يقول له ﴿كن فيكون﴾.

فى حال عدمه؟ أم فى حال وجوده؟ فإن كان فى حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأموراً، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من أمر.. وإن كان فى حال وجوده، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها إلا بالوجود والحدوث، لأنه موجود حادث. قيل عن هذا السؤال أجوبه ثلاثة:

الأول: أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره فى خلقه الموجود، كما أمر فى بنى إسرائيل أن يكونوا «قردة خاسئين، ولا يكون هذا وارداً فى إيجاد المعدومات».

الثانى: أن الله عز وجل، عالم بما هو كائن قبل كونه، فكانت الأشياء التى لم تكن، وهى كائنة بعلمه قبل كونها مشابهة لتى هى موجودة، فجاز أن يقول لها كونى، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود، لتصور جميعها له ولعلمه - سبحانه - بها فى حال العدم.

الثالثة: أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه، كان ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله، وإنما هو قضاء يريده، فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولاً^(١).

هذا هو ما لخصه الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - حول كل الآيات المنتهية بقوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.. وهذا التلخيص تجده في جل أمهات التفاسير إلا من أراد منهم الإيجاز والبعد.. وإذا أردنا أن نعلق ونتعامل مع مجمل هذا الملخص، بناء على ما أشارت به تلك المحاور الثلاثة التي أوردناها - بفضل الله تعالى وتوفيقه من خلال إشارات الآيات نفسها - فسوف نرى أن مجمل الأسئلة التي سألها - الماوردي - وبعض أجوبته قد يكون إقحام العقل والمنطق في التعامل معها أبعدا عن جو نصوص الآيات وروحانياتها - وذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن القارئ يحس بذلك البعد، لأنه يجد أنها أجوبة تدور حول آية واحدة لتعمم ما فيها من إشارات على بقية الآيات دون النظر إلى ما في الآيات الأخرى من خصوصيات استدعاها ورودها في المكان الذي وردت فيه ثم الدلالات الأخرى التي قد تنشأ من خلال النظر إليها جميعا مترابطة مع بعضها بعض.. فالحق - جل سناه - يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ في كل الأحوال، في حال العدم، ليخرج إلى الوجود، وذلك ما يوضحه الجواب الثاني من مجمل تلك الأجوبة التي أوردوها، وهو ما يؤكد كل ما سبق أن أوردناه من بداية هذا البحث إلى نهايته - كما سيأتي بإذن الله تعالى وتوفيقه والله تعالى أعلم - أما قوله: «أفي حال وجوده، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها إلا بالوجود والحدوث، لأنه موجود وحادث».

ونحن نقول - بتوفيق الله تعالى وفضله - كيف يستحيل على الخالق والموجد - سبحانه وتعالى - أن يأمر الموجود بالوجود وذلك أن الموجود قد يؤمر أن يوجد وينقل من حالة إلى حالة، وهذا محسوس ومشاهد لنا في عالمنا الاستحالة، فما بالك فيما لا نعلمه ولا نشاهده في خلقه - سبحانه وتعالى عما يصفون - وقد كشف لنا

(٢) جامع احكام القرآن للقرطبي: ٨٩ - ٢/٩١.

العلم فى عصرنا الكثير من ذلك الذى كنا لا نشاهده وكانوا لا يشاهدونه وسوف يأتى بعض منه بإذن الله تعالى . ولم نذهب بعيدا، وقد أجاب القرآن الكريم نفسه على كثير من مثل هذه الأسئلة والاستفسارات، وبالدليل المادى فى عالم الاستحالة والتحويلات، وذلك بدليلين محسوسين ملموسين، مختلفى الدلالة لاختلاف طبيعة النوعية.

فالأول: كما سنلاحظ بتوفيق الله تعالى هو فى عالم الماديات الكثيفة وفى الثانى: جعلت لنا القدرة العظيمة الخلاقة دليلا محسوسا ملموسا فى عالم «مالا نبصر» فجعلته تلك القدرة مبصرا، ليعلم جميع الخلق إن ليس هناك شىء كائن أو غير كائن هو بعيد على هذه القدرة العظيمة.. وقد تنبه بعض العلماء إلى الدليل المادى الكثيف، وقد أشار إليه الإمام القرطبى فيما أورده فى الجواب الأول من مجموع الأجوبة السابقة فى ملخصه السابق حينما قال: «إنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره فى خلقه الموجود، كما أمر فى بنى إسرائيل «أن يكونوا قردة خاسئين»، وذلك أن آية (٦٥) من سورة البقرة وآية (١٦٦) من سورة الأعراف ترى عند قراءتهما أن الله - سبحانه وتعالى - خاطب موجودين بقوله «كونوا» إذن فكيف يستحيل بعد ذلك أو يستبعد من الحق - جل سناه - أن يخاطب الموجود المحدث بأن يوجد فيها هو - سبحانه - قد خاطب بنى إسرائيل بخطاب «كونوا»، وهم موجودون أفلا يخاطب الحق - جل سناه - خلقه الموجود على طبيعة نورانية لينتقل ويتحول إلى طبيعة نورانية قد تختلف خصائصها عن الإيجاد السابق الذى كان عليه، أو يأمر هذا الموجود النورانى لينتقل ويتحول إلى طبيعة وصفات عالم الماديات أو إلى أى طبيعة أو أمر لا نعلمه نحن، أفلا يجوز ذلك؟ بلى وربى، إن ذلك لحق ولكن سئ ما جروا عليه من أن الخلق قد أوجد وأحدث على طبيعة واحدة وهى طبيعة الأحداث الدنيوية، جعلهم يتخبطون كل هذا التخبط.. وإلا ففى القرآن الكريم الأجوبة الشافية لكل ما سألوا عنه واحتاروا فيه.. فهاتان مثلا الآيتان (٦٥) من البقرة و(١٦٦) من الأعراف، تراهما تتحدثان عن فئة من البشر فى الدنيا عصوا أمر ربهم، فنقلهم - سبحانه وتعالى - من

حال الصفة البشرية إلى حال صفة أمة أخرى من غير أمة البشر، وهم أمة القرد، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قردة خاسئين﴾. فكذا أوامره - سبحانه وتعالى عما يصفون - في كل شيء في عوالم خلقه بدون استثناء، فلم الاستبعاد؟ يقول بعض المفسرين حول معنى هاتين الآيتين مختصرا ويتصرف وفيه سنلاحظ - أيضا - أن هؤلاء المفسرين مختلفون حول معنى الآيتين وذلك نظرا لما سبق أن قلناه، إن ذلك يعود لمواقفهم المختلفة من الآيات في مواقعها.. فماذا قيل؟ يقول الإمام الرازي في تفسيره - رحمه الله تعالى - قوله تعالى: ﴿كُونُوا قردة خاسئين﴾ ليس بأمر، لأنهم ما كانوا قادرين على أن يقبلوا أنفسهم على صورة القردة، بل فيه سرعة التكوين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ والمعنى: أنه تعالى لم يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبات بهؤلاء بل لما قال لهم ﴿كُونُوا قردة خاسئين﴾ صاروا كذلك، أي لما أراد ذلك بهم صاروا كما أراد.. وهو كقوله تعالى: ﴿كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. ولا يتمتع - أيضا - أن يتكلم الله تعالى بذلك عند هذا التكوين إلا أن المؤثر في هذا التكوين هو القدرة والإرادة، فإن قيل: لَمْ يَكُنْ لهذا القول أثر في التكوين، فأى فائدة فيه؟ قلنا أما عندنا فأحكام الله تعالى وأفعاله لا تتوقف على رعاية المصالح البتة وأما عند المعتزلة فلعل هذا القول يكون لفظا لبعض الملائكة أو لغيرهم، والمروى عند مجاهد أنه - سبحانه وتعالى - مسخ قلوبهم يعني الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم، وهو مثل قوله تعالى: ﴿كَمِثْلَ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلّم البليد الذي لا ينجح في تعليمه كن حمارا.. وأحتج على امتناعه بأمرين:

الأول: أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد، البنية المحسوسة، فإذا أبطلها وخلق في تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداما للإنسان وإيجادا للقرد.. ويرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنسانا، وخلق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت قردا، فهذا يكون إعداما وإيجادا لا مسخا.

والثانى: إن جَوَزْنَا ذلك لما أَمَنَّا فى كل ما نراه قرداً أو كلباً أنه كان إنساناً عاقلاً، وذلك يفضى إلى الشك فى المشاهدات.

وأجيب عن الأول: أن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سميناً بعد أن كان هزيلًا، وبالعكس فالأجزاء متبدلة، والإنسان المعين هو الذى كان موجوداً والباقى قد زال، فالإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس، وذلك الأمر إما أن يكون جسمًا ساريًا فى البدن أو جزءاً فى بعض جوانب البدن، كقلب أو دماغ، أو موجوداً مجرداً على ما يقوله الفلاسفة.. وعلى جميع التقديرات فلا امتناع فى بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغيير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ.. وبهذا التقدير يجوز فى الملك أن تكون جثته فى غاية العظم، وأن يدخل فى حجرة الرسول ﷺ.

وأجيب عن الثانى: أن الأمان يحصل بإجماع الأمة ولما ثبت بما قررنا جواز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها.. ولم يكن بنا حاجة إلى التأويل الذى ذكره مجاهد رحمه الله بقى هنا سؤالان:

الأول: أنه بعد أن يصير قرداً لا يبقى له فهم ولا عقل ولا علم، فلا يعلم ما تنزل به من العقاب ومجرد القرذية غير مؤلم بدليل أن القردة حال سلامتها غير متألمة فمن أين يحصل العذاب بسببه؟

الجواب: لم لا يجوز أن يقال: إن الأمر الذى به يكون الإنسان إنساناً عاقلاً فاهماً كان باقياً إلا أنهما لما تغيرت الخلقة والصورة، لا جرم أنها ما كانت تقدر على النطق والأفعال الإنسانية، إلا أنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب شؤم المعصية وكانت فى نهاية الخوف والخرابة، فربما كانت متألمة بسبب تغير تلك الأعضاء، ولا يلزم من عدم تألم القردة الأصلية بتلك الصورة عدم تألم الإنسان بتلك الصورة الغريبة العرضية.

السؤال الثانى: أولئك القردة، هل بقوا أو أفنأهم الله؟ إن قلنا إنهم بقوا فهذه القردة التى فى زماننا هل يجوز أن يقال إنها من نسل أولئك المسوخين أم لا؟

الجواب: الكل جائز عقلا إلا أن الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما «أنهم ما مكثوا إلا ثلاثة أيام ثم هلكوا»^(١).

هذا موجز واختصار ما أورده الإمام الرازى حول آيتى البقرة والأعراف والخاصتين بحالة مسخ بنى إسرائيل.. وفيه تلاحظ أن الرازى يلف ويدور ليرد على بعض الآراء التى قالت بعدم حقيقة الأمر فيهما وإنما قد يكون المقصود منه الطبع والختم وذلك مما قد يترتب على الأمر لو أنه أجرى على حقيقته من شك وغيره، وقد رأينا الرازى يثبت عكس كل تلك الآراء سواء ما كان منها اعتزاليا أو ما روى عن الإمام مجاهد - رضى الله عنه وأرضاه - يثبت ويؤكد على أن المقصود بالأمر حقيقته وهو التحويل والتحول من حالة إلى حالة أخرى فى أى شىء كان موجودا، وفى عالمنا المادى الكثيف فكما أمره - سبحانه وتعالى - بقوله: (كن) لخروج الشىء من العدم إلى الوجود النورانى، كذلك يكون أمره فى الموجود فى المادى الكثيف أن يتحول وينتقل من حالة إلى حالة، وكذلك يكون أمره للموجود النورانى أن يتحول من نورانيته إلى الشىء المادى الكثيف - كما سنلاحظ ذلك بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - فى مراحل خلق آدم وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

كذلك يكون أمره للشىء النورانى الموجود فى العالم المادى، إما بتحويله من طبيعته وقانونها، إلى طبيعة وقانون آخر، وإما بإبطال جزء من قانون هذا الشىء، وإبقاء جزئه الآخر، كما سنلاحظ أمره - سبحانه وتعالى مع آية (٦٩) من الأنبياء ﴿قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم﴾ من أجل أن نتبين حقيقة الأمر فيها، وكون أوامره - سبحانه وتعالى - جارية نافذة فى جميع مخلوقاته، سواء كانت فى معدوم لوجود أو فى موجود ليتحول وينتقل إلى حالة أخرى. وقد جاء فى تفسير الإمام الرازى نفسه حول هذه الآية ما نوجز منه قوله: اختلفوا فى أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق، والله على كل شىء قدير.

(١) تفسير الرازى ١١ / ١١٢ / ٢.

ثانياً: أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه - عليه الصلاة والسلام - كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة، وكما أنه ركب بنية النعمة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد المحماة، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار.

الثالث: أنه سبحانه وتعالى خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه.

قال المحققون: والأول أولى، لأن ظاهر قوله: ﴿يا نار كونى برداً﴾.. أن نفس النار صارت باردة.. حتى سلم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من أثرها، لأن النار بقيت كما كانت فإن قيل: النار جسم موصوف بالحرارة والطاقة فإذا كانت الحرارة جزءاً من مسمى النار، امتنع كون النار باردة إذن فوجب أن يقال المراد من النار الجسم الذي هو أحد أجزاء مسمى النار، وذلك مجاز، فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين؟

قلنا: «المجاز الذي ذكرناه يبقى معه حصول البرد، وفي المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك.. فكان مجازنا أولى..»^(١).

إذن فجّل المحققين يؤكدون على أن تلك النار قد أبطل قانونها، وتحولت بذلك الأمر (كونى) وصارت باردة أى أنها تحولت من قانونها الإحراقى، إلى خصائص قانون آخر بذلك الأمر.. وأزال - سبحانه وتعالى - عنها صفة وخاصية الإحراق وطبيعتها، لتنتقل إلى طبيعة قانون آخر، وهى طبيعة الإضاءة، والإشراق دون لهب وإحراق.. وهكذا يبقى قوله تعالى - دائماً نافذاً سارياً فى كل آن وحين كما يريد - سبحانه وتعالى - ولا يقف أو يتعلق ذلك الأمر بآية دون أخرى، فكما يشاء يكون، ومتى يشاء أو يوجد أو يحدث سواء كان ذلك فى معدوم أو غيره، لا يعصاه أو يمتنع عليه شئ، حتى ولو كان معدوماً.. لأن كل ذلك فى علمه، وما كان فى علمه وأراد له

(١) تفسير الرازى ١٨٨ - ٢٢/١٩٠.

أن يكون فسيكون، أو كان ذلك الشيء موجوداً ليكون شيئاً وطبيعة أخرى غير طبيعته وقانونه، فهو - سبحانه وتعالى - يرينا ذلك عملياً محسوساً في الدنيا، ليخبرنا: أنه قادر على ما يريد وكيفما يريد، ومن هنا نلاحظ كيف وضع لنا هذان الدليلان العمليان، المختلفان الطبيعة مرحلتى الإيجاد الأول فى الملكوت الأعلى، والنشأة الثانية لبنى آدم - عليه الصلاة والسلام - توضيحاً إجمالياً موجزاً، وترك - سبحانه وتعالى - لنا الإشارة التفصيلية إلى النشأة الأولى لكونها معلومة ومفصلة فى الكتاب والسنة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - والمشاهدة النظرية - بحمد الله تعالى وتوفيقه - بل فى النشأة الأولى براهين وأدلة عملية محسوسة ملموسة مشاهدة لنا دالة على ذلك الإيجاد الأول والنشأة الثانية الآتية - بإذن الله وتوفيقه - وهذا ما سنلاحظ بعضاً من إشارات فى آيات المحور الثانى الذى أشرنا إليه - بحمد الله وتوفيقه - فى بداية كلامنا عن هذه الإشارة ﴿كن فيكون﴾ .. وذلك لكون آيات هذه النشأة - الثانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تشير للكيفية التى ستكون عليها النشأة الثانية، وذلك لكون كينونتها كينونة ذلك الإيجاد الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل طبيعتها وماهيتها وخصائصها هى كماهى وخصائص طبيعة ذلك الإيجاد الأول - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد سبق أن أشرنا ببعض آيات هذا المحور - الثانى - ذلك كقوله تعالى: ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ الأنعام.

وكقوله تعالى فى سورة النحل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾. وكقوله تعالى فى سورة يس: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذى جعل

لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿يس

هذه بعض آيات من مجموع آيات المحور الثانى ونلاحظ أن مجملها يشير إلى قضية البعث بعد الموت، وأنه سبحانه وتعالى قادر على إعادتها كما خلقها أول مرة. لكون الأمر كله يتوقف عنده سبحانه على قوله لما يريد ﴿كن فيكون﴾.. لماذا؟ لأن: «قوله الحق» سبحانه وتعالى عما يصفون.

من مجمل الآيات السابقة تلاحظ أيضا - وإن كان سيأتى كل ذلك مُفصَّلاً فى مكانه الخاص به بإذن الله تعالى أن كينونة الإنشاء الثانى سوف تكون دفعة واحدة لا أمراً مرحلياً تطورياً، كما هو الحال فى النشأة الأولى - الدنيوية - لأنه سبحانه وتعالى - قد أشار بآيات كثيرة لكينونة النشأة الدنيوية، كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً﴾ «نوح»، وكقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(١)، وكذلك مثلها الآية خمسة من سورة الحج، إذن فالأمر فيها مراحل، من طين ثم نطفة، علقة... إلخ. أما النشأة الثانية، فالحق جل سناه - يقول: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون..﴾^(٢) إذن فننفس يحدث فيعقبه مباشرة حياة فقيام فننظر بعكس الأولى كما رأينا. وهنا قد يسأل سائل ليقول مثلاً: كيف قررت أن النشأة الثانية هى كالإيجاد الأول عقب الأمر ﴿كن فيكون﴾ ولم كنت تقول: النشأة الأولى والنشأة الثانية؟ والإيجاد الأول؟ ولم تأت بلفظ الخلق فى هذين الموضوعين؟ وهكذا.

(١) سورة المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤.

(٢) سورة الزمر آية ٦٨.

وفى الإجابة عن الشطر الأول من السؤال نقول: - يعون الله تعالى وتوفيقه . إننا لم نقل ما سبق أن قلناه من عندنا نقولا . نعوذ بالله تعالى من ذلك . بل هذا ما أشار إليه القرآن الكريم نفسه . فقد سبق حينما أشرنا بآيات المحور الأول . إن كنا نذكر . أن قلنا: إن هناك بعض الآيات يمكن لنا أن نعتبرها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . رابطا وإشارة دليلية لما نقوله الآن، وقد حان وقت ذلك فنقول . وبالله العون والتوفيق إن من تلك الآيات الكثيرة قوله تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، وكقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)، وكقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

هذه الآيات ومثيلاتها هي ما أثارت لنا ما قلناه . بحمد الله تعالى وتوفيقه . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وقبل أى إشارة منا، ترى ماذا ورد عنها . ولو إيجازاً . لتتضح الرؤية أكثر . يعون الله وتوفيقه . فهذا الإمام القرطبي يقول حول آية (٥٩) من آل عمران، وملخصا: إن قوله تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ﴾، دليل على صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسى . عليه الصلاة والسلام . خلق من غير أب كآدم لا على أنه خلق من تراب . والشئ قد يشبه بالشئ وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا فى وصف واحد، فإن آدم خلق من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة.. ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقا من غير أب، ولأن أصل خلقتهم كان من تراب . لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طيناً، ثم جعله صلصالا، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أب...»^(٤).

(١) سورة آل عمران: آية «٥٩».

(٢) سورة آل عمران: آية «٤٧».

(٣) سورة مريم: الآيتان «٣٤ - ٣٥».

(٤) جامع أحكام القرطبي ١٠٢ - ١٠٣/٤.

هذا موجز ما أشار به القرطبي حول هذه الآية.. ومن خلاله تلاحظ أنه يمكن تركيزه في بعض النقاط إجمالاً، وسوف يكون لكل ذلك تفصيل إن لم يكن هنا بعد أن ننظر ما قاله غيره - القرطبي - من المفسرين حول الآية نفسها فسوف يرد الحديث عنها في أماكن آخر مرتبطة بها جميعاً - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه فمن تلك النقاط:

١ - كونهما خلقا من غير أب.

٢ - كون آدم خلق من تراب، وكذلك عيسى عليهما ونبينا محمد وجميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام وإن كان له تفصيل هناك.

٣ - كونه - القرطبي - أراد التركيز على قضية التحول والتحويلات، كما أشار إلى ذلك صراحة «فكذلك حوله من حالة إلى حالة».

هذا ما يمكن أخذه من كلام الإمام القرطبي إجمالاً.. أما ما جاء في تفسير غيره كالرازي مثلاً، وبالرجوع إليه نجده يلخص ما قاله العقلانيون. حول هذه الآية يقول:

«...في الآية إشكال، وهو أنه تعالى قال: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ﴾ ثم قال له كن فيكون».. فهذا يقتضى أن يكون خلق آدم متقدماً على قول الله تعالى له ﴿كن﴾ وذلك غير جائز.. وأجاب عنه من وجوه:

الأول: قال أبو مسلم: قد بينّا أن الخلق هو التقدير والتسوية.. ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه، وإرادته لإيقاعه على الوجه المخصوص، وكل ذلك متقدم على وجود آدم - عليه الصلاة والسلام - تقديماً من الأزل إلى الأبد.. وأما قوله تعالى: ﴿كن﴾ فهو عبارة عن إدخاله في الوجود.. فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله تعالى: ﴿كن﴾.

الجواب الثانى: وهو الذى عول عليه القاضى أنه تعالى خلقه من طين، ثم قال له ﴿كن﴾ أى أحياء، كما قال: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾.. فإن قيل الضمير فى قوله ﴿خلق﴾ راجع إلى آدم، وحين كان تراباً، لم يكن آدم - عليه السلام - موجوداً.

أجاب القاضى وقال: بل كان موجودا، وإنما وجد بعد حياته، وليست الحياة هى نفس آدم.. وهذا ضعيف، لأن آدم عليه الصلاة والسلام - ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكلة بالشكل المخصوص، بل عبارة عن هوية أخرى مخصصة: وهى إما المزاج المعتدل أو النفس وينجر الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هى؟ ولا شك أنها من أكثر المسائل غموضا.

والجواب الصحيح: لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير عن قريب مسماه آدم - عليه الصلاة والسلام - تسمية لما سيقع بالواقع.

الجواب الثالث: أن قوله ﴿ثم قال له كن فيكون﴾: يفيد تراخى هذا الخبر عن ذلك الخبر كما فى قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾.. ويقول القائل: أعطيت زيدا اليوم ألفا، ثم أعطيته أمس ألفين.. ومراده: أعطيته اليوم ألفا ثم أنا أخبركم: أننى أعطيته أمس ألفين، فكذا قوله: ﴿خلقه من تراب﴾.. أى صيره خلقا سوياً.. ثم إنه يخبركم أنى خلقته بأن قلت له ﴿كن﴾^(١).

هذه إشارات ملخصة من تفسير الرازى حول الآية نفسها (٥٩ آل عمران) .. وهو وإن كان فيه إشارات كثيرة جدا، إلا أنك تلاحظ أنه - الرازى - يلتقى مع ما ذهب إليه قبله الإمام القرطبى فى خط سيره حول هذه الآية.. وإن كان الرازى يبدأ خطه بأن أشار صراحة إلى أن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان مخلوقا خلقا متقدماً وبهوية أخرى غير الخلق الترابى الذى تحول إليه بقوله تعالى: ﴿كن﴾ وهو عندى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - حالة خلقه النورانى الخالص أى مرحلة وجوده فى «أم الكتاب» وعلى خصائصه - كما سيأتى تفصيل ذلك بمشيئة الله تعالى إضافة لما سبق بحمد الله تعالى - وهذه الإشارة أظن أنها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تحمل معنى ما أشار إليه الإمام القرطبى، وذلك ما قاله القاضى عياض، وما تلاه من قول بعد ذلك، وكأنه - أى الرازى - يلمح فى ذلك تلميحاً إلى نقطة التشابه فى الآية، بين خلق آدم - عليه

(١) تفسير الرازى ٨/٧٦.

الصلاة والسلام - السابق على التراب والطين، وهى الحالة النورانية، السابقة فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وبين حالة خلق عيسى - عليه الصلاة والسلام - من حيث كونه خلق نورانياً - كما سيأتى تفصيل ذلك بإذن الله تعالى - وكما أن آدم - عليه الصلاة والسلام - تحول إلى خلق آخر ترابى ثم طينى.. إلخ. فكذلك عيسى - عليه الصلاة والسلام - سوف تشمله تلك التحولات.. وكذلك الأمر فى حقيقة البعث، وما سيكون عليه - بإذن الله تعالى وتوفيقه - إذن فهو كما قال آدم - عليه الصلاة والسلام - الذى لمستم مثله فى خلقتة فى دنياكم، وهو عيسى - عليه الصلاة والسلام - قال لعيسى عليه الصلاة والسلام أيضاً «كن» وكذلك البعث سوف يقول له «كن» فسيكون دفعة واحدة، كما كان عيسى عليه الصلاة والسلام دفعة واحدة، وهكذا من هذه الإشارة الدلالية، نصل إلى أن آدم - عليه الصلاة والسلام - قبل اصطفاؤه وخلقه الطينى، كان واحداً مستقلاً من ضمن الخلق الإنسانى جميعه، وكلهم جميعاً وجدوا دفعة واحدة ثم بعد ذلك اصطُفى وصار ما صار كما ستأتى الإشارات الكثيرة إليه بإذن الله تعالى - ومن هنا يمكن لنا - بإذن الله تعالى وتوفيقه - أن ننطلق إلى حديث آخر مرتبط بكل ما سبق ارتباطاً وثيقاً - بإذن الله تعالى - بل تكملة لكل ما سبق من إشارات حول المرحلة الخلقية الثانية - بإذن الله تعالى وفضله - بل وإشارات سريعة لجميع المراحل الخلقية والإنشائية، وبصورة مجملة لنصل بعد ذلك - بإذن الله تعالى وتوفيقه - للحديث التفصيلى عنها جميعاً فمع هذه الإشارات وما سوف تعطينا بإذن الله تعالى وتوفيقه.

وقفة سريعة مع إشارات هذه المرحلة

سبق أن قلنا إن مراحل خلق الإنسان كانت متعددة وذات تنوع، وقلنا - بحمد الله تعالى وتوفيقه - إنه يمكن لنا من خلال ما سبق من إشارات - قرآنية أو أحاديث عن رسول الله ﷺ وما ورد عنها من تفسيرات وشروح سواء كان ذلك لكبار الصحابة والتابعين، وغيرهم ممن جاء بعدهم.. يمكن محورة كل ذلك فى ثلاث مراحل:

الأولى: وهى التقديرية التى كانت فى علم الله - سبحانه وتعالى -

والثانية: الإيجادية الكلية المثبوتة في «أم الكتاب».. ولم نتعرض لذلك بأى تفصيلات كبيرة لأسباب كثيرة، يجب الوقوف عندها ثم إن المرحلة الإيجادية الثانية الموجودة في «أم الكتاب» كان منها إيجاد في الملكوت الأعلى الروحاني وهو إيجاد جمعي، وهو مما يمكن لنا أن نسميه بمرحلة العرضة التعليمية الروحانية، والمشار إليها بآية البقرة وما في معناها، ثم يلي ذلك رحلة أو مرحلة الإيجاد الطيني أو التسوية الطينية الأولى وما يرتبط بذلك من قضايا خلقية، ثم بعد ذلك رحلة واستنساخ نشأتى: الأولى الدنيا والثانية الآخرة ومما سنلاحظه أن ما يعمل به جل المفسرين، حينما يتحدثون عن هذه الآيات وأماكنها، أنهم يهملون أى إشارة تشير إلى أى مرحلة خلقية غير المرحلة أو النشأة الدنيوية اللهم إلا بعض الإشارات هنا وهناك من بعضهم قد تشير إلى ذلك، وهو ما حاولنا أن نصطاده ونحاول أن نبين منه ما سوف نشير به - بإذن الله تعالى إلى كل ذلك.

الفصل السادس

البداية الإنسانية الطينية الأولى

وخاصيتها الطبيعية

وقبل أن نبدأ بأى حديث عن هذه الإشارة أريد أن أنبه أخى القارئ إلى أمر مهم جداً قد يلحظه حول ما نكتبه هنا، وهذا الأمر، هو عدم منهجة هذا البحث عموماً، وهذا الفصل أو الباب بجميع عناوينه، لتداخل آياته التى أشارت إليه وتشابكها فمثلاً ستجد فى هذا الفصل أثناء الحديث عن فكرة ما، أن أعيدك إلى فكرة سبقت فى فصول فى المراحل السابقة وكانت هى الأولى فى الارتباط بها، لا ما ارتبطت به فيما بعد، وذلك لأسباب كثيرة جداً منها ما ذكرت ومنها أيضاً تشعب إشارات الآية القرآنية الواحدة وتعدد أهدافها ومراميها.. والحديث عن هذه الفترة الخلقية التكوينية هو أمر صعب جداً، وذلك لقلة الإشارات التفسيرية عنه من قبل شراح التفسير القرآنى وشرح حديث رسول الله ﷺ وقد يكون عدم وجود هذه الإشارات وبكثرة أو تنوع ما وجد عنها من إشارات، هو أيضاً سبب من أسباب تشابك أفكار البحث أو هذا الفصل وما بعده بالذات - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه المرحلة سنلاحظ أنها بداية خلق ونقل الصورة الروحانية - النورانية - الخاصة بهذا الجنس الإنسانى، إلى صورة نورانية أخرى، ولكنها بطبيعة وخاصة تختلف تماماً عن روحانية ونورانية سابقتها، فهى روحانية، ولكنها بشكل متجسد عيى، أى إخراج تلك الصورة النورانية المعنوية وغير المحسوسة، إلى صورة نورانية بطبيعة نورانية المكان الذى ستوجد فيه بل سنرى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه تعالى سوف يجعل من هذه الصورة النورانية أيضاً صورة نورانية تختلف خواص طبيعتها عن سابقتها، لتكون ملائمة لطبيعة المكان الآخر الذى سوف تُجعل فيه بإذن الله تعالى.

ولنبدأ بالحديث عن هذه الصورة ومراحل تحولاتها - بإذن الله تعالى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الثانية لنرى أيضاً: ما

العناصر التي سوف تتحول إليها هذه الصورة النورانية، وما طبيعتها؟ كما سبق أن قلنا بحمد الله تعالى وفضله.

وفى الإجابة عن هذه الاستفسارات وأمثالها، نرى أن نبدأ بالإشارة إلى الكيفية التي أُخرجت بها هذه الصورة الإنسانية إلى الوجود، وبمفهوم آخر أوضح، أى الكيفية التي سُويت بها هذه الصورة مع التسوية العمومية.

التسوية العمومية لجسم الحاسوب الإنسانى وما الذى تعنيه؛

والحديث عن هذه التسوية يجعلنا نعود إلى ما سبق أن قلناه من إشارات تحدثنا فيها عن موضوع وفصل - آدم الحقيقى وعلوم الحاسوب - وما فى هذا المخلوق من رقائق واتصالاته بكل ما حوله وما فى تلك الرقائق من تشفير يرتبط بقضايا وجوده وحياته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الصورة هى ما سبق أن أشار إليها ابن عربى بقوله: «..إن الإنسان كما قررنا هو آخر المولدات فهو نظير العقل - القلم - وبه ارتبط، لأن الوجود دائرة، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول - القلم - الذى ورد فى الخبر أنه أول ما خلق الله القلم.. إلخ، فهو أول الأجناس وانتهى الخلق إلى الجنس الإنسانى فكملت الدائرة واتصل الإنسان بالعقل، كما يتصل أول الدائرة بآخرها وهذا الإنسان هو مجموعة رقائق» وهذه الصفة التى أشار إليها ابن عربى - الكمبيوترية - هى لا تخص إنساناً دون آخر فى جميع الجنس الإنسانى النورانى الخالص كما هو فى «أم الكتاب»، ومن هنا سنلاحظ أن الحق - جلّ سناه - سوف يصطفى إنساناً من بين جميع هذا الجنس الإنسانى النورانى الخالص - كما هو فى «أم الكتاب» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ليخلق ويصنع - سبحانه وتعالى - له جسماً بنورانية هى دون نورانية هذا الجنس الإنسانى فى «أم الكتاب» وبخاصية تختلف عن خاصيته هناك، هذا الجسم سوف تُحَيِّز فيه الصورة النورانية لهذا الإنسان المصطفى ثم يدخل بعد ذلك فى جسم هذا الإنسان المصطفى جميع الصور النورانية الخالصة لهذا الجنس الإنسانى، لتستسخ منه بعد ذلك جميع تلك الصور بنفس خاصية ذلك الجسم الذى

أدخلت فيه لتصبح كأنها منه، ويصبح هو لها كالأب وهم كالأبناء، ومن هنا سموا ببنى آدم نسبة إلى صفة عنصره الذى صنع منه وخلق منه جسمه، فسمى بعنصره - آدم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فكيف كانت تسوية جسم ذلك العقل على صورة محسوسة؟ وأين أمكنة تلك الرقائق التى أدخلت فيه؟ وما هى طبيعة عنصر ما سمي به وهكذا؟

وقبل أن ندلى بأى إشارة حول هذا الكلام، نحاول أن نورد بعض الآيات القرآنية التى وردت فى القرآن الكريم، وأشارت إلى ذلك، لنستأنس بها على ما سبق أن قلناه وبالرجوع إلى كتاب الله العزيز وجدنا كثيراً من الآيات القرآنية المشيرة إلى ذلك بإشارات عامة وإشارات خاصة وهذه بعض منها:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ..﴾ (١).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (٤).

(١) سورة الأعراف: آية «١١».

(٢) سورة الحجر: آية «٢٨» - «٢٩».

(٣) سورة ص: آية «٧١» - «٧٥».

(٤) سورة الأعراف: آية «١٧٢».

قال تعالى: ﴿هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾^(١).

قال تعالى: ﴿الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾^(٢).

قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها. فאלهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّأها. وقد خاب من دساها﴾^(٣).

قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾^(٤).

قال تعالى: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾^(٥).

هذه بعض الآيات القرآنية المشيرة إلى تسوية هذا الجسم الإنسانى، فماذا قال عنها بعض المفسرين، وشرح الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، أو حتى بعض أهل الفكر الإسلامى قديما، لنأخذ منه ما قد يتفق مع مراد هذا البحث الخاص، وأرى أن نبداً ببعض ما أشار به الشيخ ابن عربى، ثم نورد بعده بعض ما جاء فى كتب التفسير، ثم نربط بينهما - بإذن الله تعالى وتوفيقه - فماذا قال الشيخ ابن عربى عن تسوية شكل جسم هذا العقل - الحاسوب الإنسانى - وكيفية تسويته - وبرمجته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يقول: إن أول ما أوجد الله تعالى - فى الأعيان - مما يتعلق بعلم الملائكة الموكلين به، وتدريبهم لهذا الجسم أن فتح الله تعالى فى هذا الجسم، الشكل الكرى^(٦) المستدير إذ كان أفضل الأشكال. ثم أنزل - سبحانه - بالإيجاد والخلق إلى تمام الصنعة..

(١) سورة الأنعام: آية ٢٠.

(٢) سورة السجدة: الآيات ٧ - ٩.

(٣) سورة الشمس: آية ٧ - ١٠.

(٤) سورة آل عمران: آية ٥٩.

(٥) سورة الصافات: آية ١١.

(٦) الكرى : يعنى الكروى لأنه هو الفصيح من حيث اللغة.

وجعل جميع ما خلقه الله تعالى - مملكة لهؤلاء الملائكة، وولاهم أمورهم في الدنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به - فأخبرنا - سبحانه - أنهم: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» ولم يجمع - سبحانه - لشيء مما خلقه من أول موجود إلى آخر مولود - وهو الحيوان - بين يديه تعالى - إلا للإنسان وهي هذه النشأة البدنية الترابية، بل خلق كل ما سواها إما عن أمر إلهي، أو عن يد واحدة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.. فهذا عن أمر إلهي ورد في الخبر، إن الله عز وجل: خلق جنة عدن بيده، وكتب التوراه بيده، وغرس شجرة طوى بيده. وخلق آدم الذي هو الإنسان، بيديه فقال تعالى لإبليس على جهة التشريف لآدم - عليه السلام - ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي^(١). ولما اكتملت المملكة وتهيأت، وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها من أى جنس يكون هذا الخليفة الذي مهد الله تعالى هذه المملكة لوجوده. فلما وصل الوقت المعين في علمه لإيجاد هذا الخليفة، أمر بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض فأتاه بها «بعض الملائكة» في خبر طويل معلوم عند الناس، فأخذها - سبحانه - وخمرها بيديه فهذا هو قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾.

وقد كان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكرناهم.. وديعة لآدم وقال لهم: ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرٍ مِنْ طِينٍ﴾.. وهذه الودائع التي بأيديكم، هي له: «فإذا خلقت» فليؤد إليه كل واحد منكم ما عنده، مما أمنتكم عليه.. ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. فلما خمر الحق تعالى بيديه طينة آدم حتى تفيّر ريحها - وهو المسنون وذلك هو: الجزء الهوائي الذي في النشأة. جعل ظهره محلاً للاشقياء والسعداء من ذريته فأودع فيه ما كان في قبضتيه، فإنه - سبحانه - أخبرنا أن في قبضة يمينه السعداء، وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء. «وكلتا يدي ربي يمين مباركة». وقال: «وهؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون».

(١) الفتوحات المكية: ابن عربي: ٢٣٧ - ٢/٢٤٨.

وأودع - الله تعالى - الكل طينة آدم، وجمع فيه من الأضداد بحكم المجاورة وأنشأه على الحركة المستقيمة وجعله ذا جهات ست: فوق: وهو ما يلى الرأس، والتحت: يقابله وهو ما يلى رجليه. واليمين: وهو ما يلى جانبه الأقوى، والشمال يقابله: وهو ما يلى جانبه الأضعف، والأمام: وهو ما يلى الوجه، ويقابله القفا وصورة - سبحانه وعدله - «ثم نفخ فيه من روحه» المضاف إليه فحدث عن هذا النفخ فيه، بسرياته فى أجزائه، أركان الأخلاط التى هى: الصفراء، والسوداء، والدم، والبلغم.

فكانت الصفراء عن الركن النارى، الذى أنشأه الله منه، فى قوله تعالى: ﴿من صلصال كالفخار﴾.. وكانت السوداء عن التراب، وهو قوله تعالى: ﴿خلقته من تراب﴾.. وكان الدم من الهواء، وهو قوله: ﴿مسنون﴾ وكان البلغم من الماء الذى عجن به التراب فصار طينا ثم أحدث «الحق» فيه القوة الجاذبية، التى يجذب بها الحيوان الأغذية ثم القوة الماسكة، بها يمسك ما يتغذى به الحيوان.. ثم القوة الهاضمة، وبها يهضم الغذاء. ثم القوة الدافعة، وبها يدفع الفضلات عن نفسه، من عرق وبخار ورياح وبراز، وأمثال ذلك.

أما سريان الأبخرة وتقسيم الدم فى العروق من الكبد، وما يخلصه كل جزء من الحيوان فبالقوة الجاذبة لا الدافعة، ما تخرجه، كما قلنا، من الفضلات ثم أحدث «الحق» جل سناه فيه القوة الفازية والمنمية، والحسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة وهذا كله فى الإنسان، مما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط.

غير أن هذه القوى الأربعة: قوة الخيال - والوهم - والحفظ - والذكر - هى فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان.

ثم خص «الله تعالى» آدم الذى هو الإنسان بالقوة: المصورة، المفكرة، والعاقلة.. فتميز الإنسان بها عن الحيوان وجعل الحق - جل سناه - هذه القوى كلها فى هذا الجسم، آلات للنفس الناطقة، لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ وهو «طور» الإنسانية فجعله «الحق جل سناه»: دراكاً بهذه القوة، حياً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً، بصيراً، على حد معلوم فى اكتسابه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ثم أنزل الحق آدم، خليفة عنه في أرضه، إذ كانت الأرض من عالم التغيير والاستحالات بخلاف العالم الأعلى فيحدث فيهم، أى في سكان العالم الأرضي، من الأحكام بحسب ما يحدث في العالم الأرضي نفسه من التغيير، فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهية فلذلك كان آدم خليفة في الأرض دون السماء والجنة، ثم كان من أمره ما كان من علم الأسماء وسجود الملائكة.. وإبليس «نعوذ بالله تعالى منه»^(١).. غير أن الله تعالى ابتلاه - أى الإنسان - ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه إما لأن يسعده أو لأن يشقيه - على حسب ما يوفقه إلى استعماله - فكان البلاء الذى ابتلاه الله به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر وجعل هذه القوة خادمة لقوى أخرى تسمى العقل.. وجعل الله العقل مع بداية سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه. ولم يجعل «الله سبحانه» للفكر مجالا إلا في القوة الخيالية - وجعل سبحانه - القوة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطيه القوة الحساسة.

وجعل له قوة يقال لها: المصورة، فلا يحصل في القوة الخيالية «شئ» إلا ما أعطاه الحس، أو أعطته القوة المصورة. ومادة الصورة من المحسوسات فتركب صوراً لم يوجد لها عين، لكن أجزائها كلها موجودة حساً. وذلك لأن العقل خلق ساذجاً، ليس عنده من العلوم النظرية شئ وقيل للفكر ميز بين الحق والباطل الذى «هو» في هذه القوة الخيالية. فينظر «الفكر بحسب ما يقع له، فقد يحصل في شبهة، وقد تحصل في دليل عن غير علم منه بذلك، ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة، وأنه قد كان على علم، ولم ينظر إلى قصور المواد التى استند إليها في اقتناء العلوم، فيقبلها العقل منه، ويحكم بها: فيكون جهله أكثر من علمه.

ثم إن الله - سبحانه وتعالى - كلف العقل معرفته - سبحانه - ليرجع إليه فيها لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالى ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ﴿لَقَوْمٌ يَتَفَكَّرُونَ﴾ واستند إلى الفكر، وجعله إماماً يقتدى به، وغفل عن الحق في مراده بالتفكير، أنه خاطبه أن يتفكر، فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله،

(١) الفتوحات المكية: ابن عربى ٢٤٢، ٢٤٧ باختصار.

فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم، إلا عقول خاصة لله، من أنبيائه وأوليائه.

ياليت شعري هل بأفكارهم «قالوا: بلى» حين أشهدهم «الحق» على أنفسهم في قبضة الذرية من ظهر آدم، لا، والله بل عناية «من الله» إشهاد إياهم ذلك عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم ولكن لما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله، لم يجتمعوا قط على حكم واحد وذهبت كل طائفة إلى مذهب وكثرت القالة في الجنب الإلهي الأحمى اجترأوا «أى أصحاب الفكر، الآخذين عن أفكارهم لا عن الله» غاية الجرأة على الله. وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه، من خلقه تعالى الفكر في الإنسان^(١).

وقبل أن نتقل من كلام ابن عري حول تكوين هذا الجسم أو الشكل أو الصورة العينية لتلك الصورة الإنسانية النورانية الخالصة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وتأهيلها لما سيستسخ عنها من صور عينية جاهزة التأهيل، لما يخصها، أى يخص كل صورة عينية مستسخة من الصورة العينية العامة . الأب . على حدة، وإن تشابه الشكل العام لهذه الصورة العينية الروحانية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . كما سنرى بمشيئة الله تعالى ذلك فى الإشارة التالية لابن عري . عن وضع رقائى الاستساخ، وعدمها فى تلك الأشكال أو رقائى الاتصال والارتباط بين هذا الشكل العام وبين ما سخر له من ملائكة وأكوان .. وسنحاول . بإذن الله تعالى وأمره . أن نجزىء هذه الإشارة العمومية أى توضيح كل رقيقة وما يخصها، بعد أن نورد الإشارة التالية لابن عري حول ما استسخ من أشكال عينية من الشكل العام . الأب آدم عليه السلام . وحول هذه الإشارة يقول ابن عري تحت عنوان «الجسوم الإنسانية وأنواعها» ما نأخذ منه ما يأتى .

(١) الفتوحات المكية ٢٥١ . ٢٥٥ .

الجسوم الإنسانية وأنواعها:

«فإن هذا الباب مخصوص بابتداء الجسوم الإنسانية وهى أربعة أنواع:

١ - جسم آدم.

٢ - جسم حواء.

٣ - جسم عيسى.

٤ - أجسام بنى آدم.

ولكل جسم من هذه الأربعة نشوء يخالف نشوء الجسم الآخر فى السببية، مع الاجتماع فى الصورة الجسمانية والروحانية. وإنما سقنا هذا ونبهنا عليه لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية أو أن الحقائق لا تعطى أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلا عن سبب واحد، يعطى بذاته النشوء.

فرد الله - تعالى - هذه الشبهة بأن أظهر هذا النشء الإنسانى فى آدم بطريق لم يظهر به جسم حواء، وأظهر جسم حواء بطريق لم يظهر به جسم آدم. وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسى - عليه السلام.

ويطلق على كل واحد من هؤلاء اسم الإنسان بالجد والحقيقة ذلك ليعلم: أن الله بكل شئ عليم وأنه على كل شئ قدير.

ثم إن الله قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق، فى آية واحدة من القرآن فى سورة الحجرات، فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ .. فهذه الآية من جوامع الكلم وفصل الخطاب.

جسم آدم وجسم حواء:

لما ظهر جسم آدم كما ذكرنا، ولم تكن فيه شهوة نكاح، وكان قد سبق فى علم الله الحق - إيجاد التوالد والتناسل والنكاح فى هذه الدار - والنكاح فى هذه الدار، إنما هو لبقاء النوع - فاستخرج من ضلع آدم القصير حواء فقصرت «المرأة» بذلك

عن درجة الرجل كما قال تعالى «وللرجال عليهن درجة» فما تلحق النساء بهم «أى الرجال» أبدا وكانت حواء من الضلع للانحناء الذى فى الضلع، لتحنو بذلك على ولدها وزوجها، فحنو الرجل على المرأة، حنوه على نفسه، لأنها جزء منه، وحنو المرأة على الرجل لكونها خلقت من الضلع، والضلع فيه انحناء وانعطاف.

وعمر الله الموضع من آدم الذى خرجت منه حواء بالشهوة إليها إذ لا يبقى فى الوجود خلاء فلما عمره بالهواء حن آدم إليها حنينه إلى نفسه، لأنها جزء منه، وحن حواء إليه لكونه . أى آدم . موطنها الذى نشأت فيه فحب حواء هو حب الوطن، وحب آدم هو حب نفسه .. ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة، إذا كانت عينه وأعطيت المرأة القوة المعبر عنها بالحياة فى محبة الرجال فقويت على الإخفاء لأن الوطن لا يتحد بها اتحاد آدم بها .

فصور «الحق» فى ذلك الضلع، جميع ما صورته وخلقه فى جسم آدم، فكان ينشئ جسم آدم فى صورته كنشء الفاخورى فيما ينشئه من الطين والطبخ. وكان نشء جسم حواء نشء النجار فيما ينحته من الصور فى الخشب. فلما نحتها فى الضلع وأقام صورتها وسواها، وعدلها. نفخ فيها من روحه، فقامت «حواء» حية «ناطقة» أنثى.. ليجعلها محلا للزراعة والحراث لوجود الإنبات الذى هو التناسل. فسكن آدم إليها، وسكنت إليه وكانت لباسا له، وكان لباساً لها. قال تعالى: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾. وسرت الشهوة منه فى جميع أجزائه فطلبها.

مع الجسم الثالث:

﴿فلما تغشاها﴾ آدم، وألقى فى الرحم، ودار بتلك النطفة من الماء، دم الحيض الذى كتبه الله على النساء تكوّن فى ذلك الجسم، جسم ثالث على غير ما تكون منه جسم آدم وجسم حواء. فهذا هو الجسم الثالث. فتولاه الله بالنشء فى الرحم حالا بعد حال: بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة.. فلما أتم «الله» نشأته الحيوانية، أنشأه خلقا آخر، فنفخ فيه الروح الإنسانى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ولولا التطويل، لبيّنا تكوينه «أى تكوين الإنسان» فى الرحم حالا بعد حال، ومن يتولى ذلك من الملائكة، الموكلين بإشياء الصور فى الأرحام إلى حين الخروج، ولكن كان الغرض الإعلام، بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة فى الحد والحقيقة والصور الحسية والمعنوية، فإن أسباب تأليفها مختلفة، لئلا يتخيل أن ذلك لذات السبب - تعالى الله - بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء، كيف يشاء من غير تحجير ولا قصور على أمر دون أمر، ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

تكوين جسم عيسى عليه الصلاة والسلام؛

ولما قال أهل الطبيعة: إن ماء المرأة لا يتكون منه شيء، وإن الجنين الكائن فى الرحم إنما هو من ماء الرجل، لذلك جعلنا تكوين جسم عيسى عليه الصلاة والسلام تكويناً آخر وإن كان تديره فى الرحم تدبير أجسام النبيين.. فإن كان «تكوين جسم عيسى» من ماء المرأة «إذ تمثل لها الروح بشراً سوياً» أو كان من نفخ بغير ماء، فعلى كل وجه هو «أعنى جسم عيسى» جسم رابع مفاير فى النشء غيره من أجسام النوع. ولذلك قال تعالى - ﴿إن مثل عيسى﴾ أى صفة نشء عيسى «عند الله كمثّل آدم فى خلقه من تراب». الضمير يعود على آدم، ووقع الشبه فى خلقه من غير أب أى صفة نشأة - عيسى - صفة نشء آدم، إلا أن آدم خلقه من تراب، ثم قال له «كن»!!

ثم إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - على ما قيل، لم يلبث فى بطن أمه لبث البنين المعتاد لأنه أسرع إليه التكوين، لما أراد الله تعالى أن يجعله آية «للناس» ويرد على الطبيعيين حيث حكموا على الطبيعة بما أعطتهم من العادة لا بما تقتضيه مما أودع الله فيها من الأسرار والتكوينات العجيبة.

ولقد أنصف بعض حذاق هذا الشأن الطبيعة فقال: «لا نعلم منها إلا ما أعطتنا خاصة، وفيها ما لا نعلم»^(١).

هذا مجمل ما أشار به ابن عربى حول إيجاد الجسم أو الشكل لصورة الإنسان

(١) الفتوحات المكية ٢٤٧ - ٢/٢٥١ باختصار وتصرف

الحقيقى، وتسويته وتأهيله بوضع آلاته وأدوات القوى التى سوف تديره وتربطه بكل ما هو حوله ويختص به فى مهمته بعد إهباطه إلى عالم الاستحالات والإنشاء، فى الدنيا.. تأهيله بتلك القوى التى ستحركه، وتجعله قادرا على التحرك والتعامل بكل ما سخر له، ووجد لقيادته - بإذن الله تعالى - أخذاً وعطاءً أو تربطه - أى القوى - بأصله فى «أم الكتاب» وقبل ذلك تربطه بخالقه - سبحانه وتعالى.

وقد رأينا ابن عربى قد بدأ إشارته حول هذا التأهيل بقضية وضع القنوات التى تربطه بالملائكة الحفظة الذى ستكون مهمته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهم فيما يعمل فى نفسه ومع نفسه أو مع ما حوله، وخدمتهم له ورعايته، ورعاية جميع ذريته الذين سوف يستسخون منه أولاً أو بعضهم من بعض فيما بعد بأمر الله تعالى وإذنه.. وذلك حينما قال: «إن الله تعالى قد أودع عند كل ملك من الملائكة الموكلين به الخاصين بمهمة هذا الجسم - ودیعة لآدم - أى الجسم أو الشكل - وقال لهم : ﴿ إنى خالق بشر من طين ﴾ وهذه الودائع التى بأيديكم هى له (فإذا خلقتة) فليؤدى إليه كل واحد منكم ما أمنتكم عليه .. ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين .. ﴾».

من دلالات السجود ومعانيه فى الآية:

وإشارة الودائع هذه تجعلنا نقف عند قوله تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .. يجعلنا نستوحى من ورود السجود بعد التسوية مباشرة معنى ومفهوما لهذا الأمر بالسجود، وخصوصا إذا علمنا أنه قد دار حوله خلاف طويل بين الشراح والمفسرين، فالسجود هنا قد يعنى خدمة أولئك الملائكة لآدم ورعايته، ومتابعته متابعة قوية - له وعليه - والارتباط به لتسهيل كل أمور مهمته الموكلة إليه فى قيادة الأرض وإعمارها حتى تنتهى مهمته تلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك إذا علمنا أن الأمر إليهم بتأدية هذه الودائع إنما كان عند التسوية بينه وبينهم، أى الربط العملى والفعلى بين ما يوضع فيه من رقائق، وما كان قد سبق وأودع فيهم من مثيل تلك الرقائق، فإذا بدأ التشغيل الفعلى لهذا الجسم -

بأمر الله تعالى وإذنه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك بنفخ الروح، والطاقة المحركة له - أى الروح - والله تعالى أعلم - عندها تبدأ المهمة التى هى له عندكم، ولكم عنده، ولذلك قال الله تعالى : ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. وهذا الكلام يستدعينا أن نقف قليلا حول ما قيل وورد عن قضية السجود من حيث اللغة والاصطلاح، وقوفا فى غاية الإيجاز والاختصار، حتى لا يطول الموضوع وهو واضح - بحمد الله تعالى وتوفيقه - فماذا قيل؟

وإذا نحن رجعنا لقواميس اللغة العربية، نجد أن المعنى العام لسجد يدور حول التذلل والخضوع، وإن كانت هناك معان كثيرة تتفرع من هذا المعنى العام، ومن ذلك هذه الدلالة التى أشار إليها الإمام القرطبي فى جامع أحكام القرآن الكريم بقوله:

قال الشاعر:

بجمع تضلل البلق فى حجراته ترى الأكمل فيها سَجْدًا للحوافر
الأكمل الجبال الصغيرة، جعلها سَجْدًا للحوافر، لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها .. والإسجد: (يعنى إدامة النظر...)^(١).

إذن فالقرطبي - رحمه الله تعالى - يشير بمعنى آخر للإسجد والسجود وهو إدامة النظر النظر... ومن خلال هاتين الدالتين - تتضح لنا - بإذن الله تعالى وتوفيقه - إشارة أخرى لدلالة الأمر بالسجود فى الآية القرآنية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى - مثلا - أن تلك المجموعة من الملائكة التى أمرت بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام - أنها لا تمتنع عن أداء ما أوكل إليها من مهمات متابعة هذا المخلوق فى كل ما يخصه ويرتبط بمهمته وخلافته فى الأرض، وعدم الامتناع عليه فى تذليل ما سخر له فى هذا الكون، والتذلل يعنى عدم الامتناع.

أما إذا أخذنا الدلالة الثانية - للسجود - فهى تؤكد لنا هذه الإشارة وتجليها أكثر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالإسجد يعنى إدامة

(١) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبي: ٢٩٠ - ٢٩٣/١.

النظر، وهذه الإدامة تعنى المتابعة والتركيز الشديد فى الأمر أو الشئ، والنظر يعنى إما النظر الفكرى - وهذا وارد فى المهمة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين وأما النظر البصرى - وهذا وارد أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أو كلاهما، لأنه لا يوجد ما يمنع من ذلك.. فمثلا لو أنا رجعنا إلى بعض مهمات بعض أولئك الملائكة فيما أودع عندهم من ودائع - رقائق - وأوكل إليهم - من مهمات تخصصهم بهذا المخلوق، لبان أمر ما ذهبنا إليه، فى هذه القضية - قضية الإسجد والودائع - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فهذا واحد من أولئك الملائكة عليهم الصلاة والسلام أجمعين - وهو ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - مثلا.. ألم يسبق أن أشرنا أثناء حديثنا حول قضايا الآجال والرقائق، عن مهمة هذا الملك والصورة الإنسانية التى عنده وعملية متابعته لهذا المخلوق، وما قلناه - إن كنا نذكر - عن الارتباط الوثيق بين هذا الملك - عليه الصلاة والسلام - وبين أعلى ما يملك هذا المخلوق، وهى روحه التى بها يحيا، وبها يتحرك.. ألم نقل وننقل ما ورد فى الخبر - نوجز منه بعض الإشارات للتذكير فقط - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين قوله ﷺ إن صح - أن ملك الموت ليهيب بالأرواح كما يهيب أحدكم بفصيله .. إذن فهذا الملك - عليه الصلاة والسلام - قد أودعت عنده أمانة - رقيقة - أوكل إليه شأن مهمتها وهى تخص رقيقة أخرى وضعت فى هذا الجسم، فكيف بوضعه ومتابعته، وعنايته فى أمر هذا الوديعه والأمانة الموكلة بها؟ ألم يقل تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾^(١)؟

إذن فمهمة هذا الملك، وشأن رقيقته، هى توفيه وقبض روحه، عند انتهاء أجلها المحتوم.. وانظر معى إلى هذه اللفظة فى هذه الآية - السابقة - ﴿وكل بكم﴾، وصيغة بنائها الصرفى، وورود التضعيف فيها، وما الذى تعنيه هذه الزيادة فى بنية الكلمة، ألا

(١) سورة السجدة: آية «١١».

توحى لنا بقوة المداومة والمتابعة فى الأمر المسند إلى هذا الملك فى مهمته مع هذا المخلوق عندما يبدأ سريان الحياة فى هذا الشكل والجسم بعد هبوطه إلى الأرض وتحوله إلى طبيعتها، وهنا قد يتضح لنا بعض ما ذهب إليه الشيخ ابن عربى فى أمر هذه الرقائق المزدوجة، بين هذا المخلوق الجسمانى وبين من أوكل إليه أمر رعايته ومتابعته، والارتباط به فى كل مهماته . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . سواء كان ذلك له أو عليه، وأن أمر هذا الارتباط والمتابعة، إنما هو منذ التسوية والخلقة لهذا المخلوق، ولو رجعنا مثلاً لما ورد من آيات قرآنية، قبل الآية القرآنية الأنفة الذكر، لربما وضحت لنا الرؤية أكثر . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . قال الله تعالى : ﴿الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾^(١) إلى أن قال . سبحانه وتعالى . : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ .. إذن فالمهمة تبدأ من عند التسوية، كما أشار إلى ذلك هذا الشيخ ، كما فهم ذلك من القرآن الكريم . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ومن هنا أظن أن أمر دلالة . إدامة النظر . قد بدأت تتضح بعض ملامحها والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وقد يزيد ذلك توضيحاً بإذن الله تعالى وتوفيقه . نص الخبر النبوى الشريف . على صاحبه أفضل الصلاة والسلام السابق فى إشارة قضية الآجال، وما فيه أيضاً من أمر هذه الرقائق، وخصوصاً رقيقة هذا الملك . عليه الصلاة والسلام . وهى تلك النسخة الكاملة لكل ما فى الدنيا ومنها صورة هذا المخلوق الجسمانى . وهذا الخبر، وإن كنا قد أوردناه أكثر من مرة . فلا بأس . أيضاً . من إيراد بعض منه أو كله إذا كان إيراده كله قد يوضح ما نرمى إليه . بإذن الله تعالى وفضله . من توضيح لمثل هذه القضية الخلافية الحساسة . وبالله التوفيق (ورد فى خبر الإسراء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، عن النبى ﷺ قال: مررت على

(١) سورة السجدة: الآيات ٧٥ - ٩٠

ملك آخر جالس على كرسى، إذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه، وبيده لوح مكتوب ينظر فيه، ولا يلتفت عنه يمينا ولا شمالا، فقلت: يا جبريل - عليه الصلاة والسلام - من هذا؟ قال: هذا ملك الموت عليه الصلاة والسلام - فقلت يا ملك الموت، كيف تقدر على قبض جميع أرواح من فى الأرض، برها ويحرها قال: ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى، وجميع الخلائق بين عيني، ويداي تبلغان المشرق والمغرب.. فإذا نفذ أجل عبد، نظرت إليه، فإذا نظرت إليه عرف أعوانى من الملائكة أنه مقبوض، غدوا فبطشوا به يعالجون روحه، فإذا بلغوا بالروح الحلقوم، علمت ذلك، فلم يخف على شئ من أمره ، مددت يدي فأنزعه من جسده، وآلى قبضه^(١).

هذا بعض من ذلك الخبر السابق الإشارة إليه، وفيه ترى إشارة لمهمة واحد من أولئك الملائكة الموكل أمر متابعة هذا المخلوق إليهم، بما جعل بينه وبينهم من وسائل ربط تربطهم بعضهم إلى بعض، وهى تلك الرقائق التى سبقت الإشارة إليها، فهذا ملك الموت، ترى أن الدنيا كلها وجميع ما فيها قد نسخ فى رقيقة بين ركبتيه، وفى يده لوح آخر وقد وزعت عيناه بين هاتين الرقيقتين، وهو دائم النظر إليهما لا يتلفت عنهما يمنة ولا يسرة، بل هو دائم التركيز عليهما، إذن فهنا تتضح لنا دلالة السجود المشار إليها، فقد رأينا أن اللغة تقول لنا أن من أهم دلالات السجود، هما دلالتان، إما الخضوع والتذلل، وإما إدامة النظر، وقد رأينا أن إدامة النظر هى خير ما ينطبق أمر معناها على أمر هذا الارتباط بين هذا الجسم المخلوق وبين من أوكل أمر متابعته إليهم، وإن كانت كلتا الدالتين للسجود وارد أمر ارتباطهما بذلك.. إذن فمعنى السجود فى الآية السابقة ليس مقصودا به، سجد عبادة - كما هو عند جمهور علماء السلف - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بل إن الأمر فيه باقى معناها اللغوى الذى أُشير إليه بدالتين من دلالاته، وإن كان هناك فى الآية دلالات ومعان لاندركها نحن الآن وقد يأتى زمنها متى أراد الله - سبحانه وتعالى - ومثل رقيقة مهمة ملك الموت - عليه الصلاة والسلام - فى متابعة ما

(١) التذكرة للقرطبي: ١/٨٣ .

عنده من وديعة رقيقة - وأداء أمانة مهمتها لهذا المخلوق الإنسانى كما أمر الله سبحانه وتعالى .. هذه مهمة رقيقة أخرى من مهام تلك الرقائق وهى مهمة:

مع رقيقة الكرام الكاتبين

الملائكة الكرام الكاتبين، وهم الذين أشير إليهم وإلى مهمتهم فى آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية شريفة - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾^(٣).. وهناك أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة، يشير إلى مهمة هؤلاء وغيرهم، كقوله ﷺ: «يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار».

وأظن أن أمر هذه الرقيقة قد مضى الحديث عنها مُطَوَّلًا فى فصل كتاب الأعمال، فليرجع إليه من أراد كثير إيضاح عن هذه الإشارة وغيرها من إشارات الرقائق، والتي هى هذه الودائع - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فلننتقل - بعمون الله تعالى وفضله - بالحديث إلى إشارة أخرى وردت فى كلام الشيخ ابن عربى السابق، حول تأهيل هذا الجسم الإنسانى لما يراد منه لمهمته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى إشارة إيجاد عناصر هذا الجسم وتسويتها، تسوية عمومية وخصوصية - كما سبق الإشارة إلى

(١) سورة الانفطار: الآيات ١٠ - ١٢.

(٢) سورة ق: الآيات ١٦ - ١٧ - ١٨.

(٣) سورة الرعد: آية ١١.

ذلك - وما يرتبط بأمرها من تسويات متنوعة مختلفة، وتلك الإشارة هي إشارة التخمير والعجن لهذه العناصر - أى طينة هذا الجسم المراد إيجاده، والذي سمي آدم فيما بعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وأرى قبل البدء بالحديث عن هذه الإشارة والتتويه عنها ببعض التفصيل، أن نقوم بتبويب وتجزئ ما أجملهُ الشيخ ابن عريى حول تأهيل هذا الجسم - فى حديثه السابق، وبعد ذلك نحاول أن نتحدث عن بعض ما يستحق الحديث منها وتأييده بما ورد نقلا وعقلا - بإذن الله تعالى وأمره - فمع هذا التبويب.

الفصل السابع

تبويب وتجزي، ما أجمله ابن عربى فى أمر تأهيل الجسم الإنسانى

(أ) مع نقل وإدخال صور جميع الجنس البشرى فيما يخصها من رقائق
فى جسم آدم:

يقول الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - فى هذا الجزء: «فلما خمر - الحق سبحانه وتعالى - بيديه الشريفتين طينة آدم تغير ريحها (وهو المسنون) .. وذلك هو الجزء الهوائى الذى فى النشأة.

فجعل الحق سبحانه وتعالى - ظهر - هذا الجسم، محلاً للسعداء والأشقياء من ذريته فأودع فيه ما كان فى قبضتيه فإنه - سبحانه وتعالى - أخبرنا أن فى قبضة يمينه السعداء، وفى قبضة اليد الأخرى الأشقياء ، (كلتا يدي ربى يمين مباركة) وقال «هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون».

وأودع الله تعالى - سبحانه - الجميع طينة آدم - عليه الصلاة والسلام - وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة وأنشأ على الحركة المستقيمة، وجعله ذا جهات ست، الفوق وهو ما يلى رأسه، والتحت يقابله، وهو ما يلى رجليه، واليمين وهو ما يلى جنبه الأقوى، والشمال وهو ما يلى جانبه الأضعف، والأمام وهو ما يلى الوجه، ويقابله القفا .. (وصوره سبحانه - ونفخ فيه من روحه المضاف إليه - تشریفاً).

(ب) إدخال شفرة تفاعل خلط العناصر وامتزاجها إيذاً بتشغيل
الحركة الحيوية وسريانها فيها:

فحدث عند هذا النفخ فيه - سريانه فيه - أى إدخال الروح فيه والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين فى أجزائه، أركان الأخلاط التى هى الصفراء، والسوداء، والدم، والبلغم - فكانت الصفراء من الركن النارى - الذى أنشأه

الله تعالى فيه فى قوله تعالى ﴿من صلصال كالفخار﴾ وكانت السوداء من التراب وهو قوله تعالى: ﴿خلقه من تراب﴾.. وكان البلغم من الماء الذى عجن به التراب فصار طينا، وكان الدم من الهواء، وهو قوله تعالى ﴿مسنون﴾.

(ج) مع تشفير ضبط القوى التى تنتج نتيجة التفاعل الكيماوى للعناصر وامتزاجها؛

ثم الحق - سبحانه وتعالى - فيه:

(١) القوة الجاذبية التى يجذب بها الحيوان الأغذية.

(٢) ثم القوة الماسكة: والتى يمسك بها ما يتغذى به الحيوان.

(٣) ثم القوة الهاضمة: والتى بها يهضم الغذاء.

(٤) ثم القوة الدافعة: والتى بها يدفع الفضلات عن نفسه.. من عرق وبخار، ورياح وبراز وأمثال ذلك.. وأما سريان الأبخرة وتقسيم الدم فى العروق من الكبد، وما يخلصه من كل جزء من الحيوان فبالقوة الجاذبة، لا الدافعة فحظ القوى الدافعة ما يخرجها - كما قلنا - من الفضلات لاغير.

(د) مع تشفير القوى الغريزية فى هذا الجسم؛

ثم أحدث الحق - سبحانه وتعالى - فيه : ١ - القوة الغاذية ٢ - القوة المنمية، ٣ - والحسية، ٤ - والخيالية، ٥ - والوهمية، ٦ - والحافظة، ٧ - والذاكرة.

وهذا كله فى الإنسان مما هو حيوان، لا بما هو إنسان فقط.. غير أن هذه القوى الأربعة: قوة الخيال - والوهم - والحفظ - والذكر - هى فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان.

(هـ) مع تسوية أماكن القوى الخاصة بالإنسان فى تأهيل الجسم العام؛

ثم خص الله تعالى - آدم - الذى هو الإنسان : ١ - بالقوة المصورة، ٢ - والقوة المفكرة ٣ - القوة العاقلة، فتميز بها الإنسان عن الحيوان.. وجعل الحق - جل سناه -

هذه القوة كلها فى هذا الجسم آلات للنفس الناطقة . لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية، (ثم أنشأه خلقاً آخر) وهو طور الإنسانية، فجعله . جل سناه . دراكاً بهذه القوى: حيا . عالماً . قادراً . مريداً . متكلماً . بصيراً . على حد معلوم فى كتابه: (فتبارك الله أحسن الخالقين).

مع تحليل سريع لما سبق من كلام ابن عربى:

هذا هو مجمل تبويب ما أشار إليه ابن عربى السابق، وقبل أى تحليل يجب أن نلاحظ جميعاً أن كل ما أشار إليه ابن عربى وما هو مثله فى كتب بعض التفاسير، حول هذا التأهيل، وكل ذلك الحديث إنما هو حديث عن إيجاد وتأهيل هذا الجسم، إيجاداً روحانياً، أى إيجاد عناصر تكوين هذا الجسم، وهى لاتزال فى حالة أقرب إلى نورانياتها الخالصة . وإن كانت متجسدة، وقد يتضح لنا ذلك أثناء تحليل بعض ما أشار به ابن عربى، كما ذكرنا . فمع فقرة (أ).

فمع فقرة (أ) . تخمير الطينة ونقل صور جميع الجنس الإنسانى فى جسم ما يسمى آدم: وفى هذه الإشارة سنلاحظ أن ما أشار إليه ابن عربى، وقد يتفق مع أكثر مدلولاته كثير من الآيات القرآنية وأحاديث رسول الله ﷺ.. ولكن أقربها جميعاً آية وحديث، وهذه الآية والحديث تجر وتدعو لإيراد الآيات والإشارات التى قد ترتبط دلالاتها بهذه الآية، والحديث . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أما الآية فهى قوله تعالى: فى سورة الأعراف: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم﴾^(١) أما الحديث فقوله ﷺ.

«عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ، قال: خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك . من الملائكة، واستمع ما يحيونك، وهى تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن. رواه الشيخان والترمذى^(٢). ولفظة: لما خلق آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال:

(١) سورة الأعراف: آية ١١٥.

(٢) البخارى فى خلق آدم، ومسلم فى نعيم الجنة والترمذى فى آخر التفسير.

الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، فقل السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع رأى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان، اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته.. قال: يارب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان ومكتوب عمره بين عينيه.. إلخ^(١). هذه هي الآية والحديث ولنبدأ مع الآية، وهذه الآية القرآنية وإن كانت قد سبق إيرادها في أثناء الحديث عن الخلق التقديرى، والإيجاد فى أم الكتاب، ولكن استدعى المقام هنا إيرادها، فأوردناها، وعند التأمل فى هذه الآية تلاحظ أنها تشير صراحة، لما سبق الإشارة إليه حول قضية الخلق الجماعى لجميع الجنس الإنسانى دفعة واحدة ثم اختيار واصطفى واحدا منهم... إلخ كما سبق الإشارة إليه.. ورأينا أن جميع هذا الجنس قد أودع وأدخل فى «أم الكتاب».. وقد سبق والآن سنرى إشارة أخرى تشير إلى نقل جميع صور هذا الجنس وإبداعه فى حيز آخر بصفات وخصائص أخرى تختلف عن خصائصها التى كانت عليها فى «أم الكتاب»، ليجرى استتساخ آخر من هذا الجسم والشكل، وهو أيضا جمعى لهدف وحكمة، ثم إعادة الجميع فى هذا الجسم، ليستسخ منه استتساخ فردى بنوعية عكسية، وهكذا. كما سيأتى تفصيل ذلك بأن الله تعالى. فلنمض الآن مع نقل وتصوير صور هذا الجنس الإنسانى فى هذا الجسم، الذى ميز بميزة خاصة من بين جميع المخلوقات، ميزة تجعله أهلا للمهمة التى اختير لتوليها، وهى مهمة الخلافة فيما بعد فى الأرض، لذلك باشر. سبحانه وتعالى. خلقه بكلتا يديه. سبحانه الله عما يصفون. فقال: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي). وعند هذا الخلق الخاص التشریفى جرى ما أشار إليه ابن عربى بقوله: «فلما خمر الحق - جل سناه - بيديه طينة آدم تغير ريحها - وهو (المسنون)».. إلى أن يقول: «فجعل ظهره محلا للسعداء والأشقياء إلخ».. هنا جرى نقل وإدخال جميع تلك الصور النورانية فى رقيقة ظهر هذا الجسم - الذى

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص» ٤/٣٨، ٢٩٦. ٥/٢٩٧.

سيسمى آدم فيما بعد ، لتبدأ بهذا النقل مرحلة إيجاد آخر - وهي المرحلة الثانية، وهي وإن كانت نورانية، ولكنها، نورانية الذرة الطينية في حالة عنصرها الأصلي غير المتعنصر - ما يسمى عند علماء الفكر الإسلامى - بالهيولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو الجزء الخاص بمرحلة سكنى الجنة في وقتها، وعند رحلة الإياب - بعد البعث - بإذنه تعالى - أو يمكن لنا أن نقول: إنها مرحلة أو فترة بدء امتزاج العناصر وتركيبها - عند الزلة في الجنة - والاستعداد للإهباط إلى الأرض لبدء مهمة النشأة الأولى في الصورة الدنيوية، وذلك عندما تتحول تلك الذرات وتمتزج، وتتحرك - شفرة - الآلات الخاصة بهذه النشأة الدنيوية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو ما أشار إليه ابن عربى بقوله: (وأودع الله تعالى الجميع طينة آدم، وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة والنشأة).

وهذه الإشارة والتي قبلها، قد ورد ما يؤيدها ويشير إليها نقلاً وعقلاً.. فهذا صاحب كتاب جامع أحكام القرآن الكريم يشير بهذه الإشارة الصريحة الموجزة فيقول: «قيل معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى: خلقنا الأرواح أولاً: «ثم صورناكم». أى الأشباح آخراً.. وقيل المعنى (خلقناكم) فى ظهر آدم، ثم صورناكم حين أخذنا الميثاق.

عن ابن عباس رضى الله عنهما: «خلقنا آدم.. ثم صورناكم فى ظهره»^(١).. هذا ما أشار به القرطبى - رحمه الله تعالى - ومثله قد سبق أن أوردناه عن الشيخ الرازى - رحمه الله تعالى - وكذلك مثله فى الطبرى وفى جميع كتب المفسرين، بدليل إشارة ابن عباس رضى الله عنهما - فمن الطبيعى سوف يرويه أكثر المفسرين وعلى رأسهم شيخهم وهو الإمام الطبرى - رحمه الله تعالى - وفيها ترى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - يعلنها صريحة: أنه سبق أن أوجد آدم عليه الصلاة والسلام، ثم تلى ذلك تصوير جميع الخلق فى ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - هذا ما أشار به حبر

(١) جامع أحكام القرآن الكريم للقرطبى ١٦٨ - ١٦٩/٧.

الأمة وترجمان القرآن الكريم فأين ما يؤكد فيه ما أشرتم إليه، أما ما أشار به وهو ينطبق على ذلك، فذلك أن معنى ما أشار به، ويؤكد ما قبله، وهو قولهم إن الله تعالى، خلق الأرواح أولا، والأرواح هي بعينها إشارة صريحة إلى الخلق النوراني الجمعي الذي سبق خلق آدم الجسماني، وهذا يؤيده ما بعده وهو قولهم: (ثم صورناكم) أي خلقنا الأشباح آخرا، والأشباح هي إشارة إلى الخلق الطيني، في عناصره الأولى. كما سبق والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. ومن هنا تأتي إشارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، فقوله خلقنا آدم. عليه الصلاة والسلام. أي الخلق والإيجاد والتكوين الشبهي ثم جرى بعد ذلك نقل وإدخال جميع تلك الصور في هذا الخلق الشبهي بدليل أنه رضى الله تعالى عنهما. سماه باسمه الذي سوف يؤول إليه هو آدم. أي سمرة الأرض ولونها وهي الأدمة، ولذلك قال: (ثم صورناكم في ظهره) يشير إليه. عندنا. شيئان ويدلان عليه. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهذان الشيئان هما: الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. السابق الذكر. ولفظة أخرى وردت في آية قرآنية تتحدث عن مرحلة هذه التسوية والتكوين وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وقد أشار بها الشيخ ابن عريى. رحمه الله تعالى. في حديثه السابق المجمل. وهي لفظة (مسنون) وفي هذين النصين الشريفين، نص اللفظة القرآنية (مسنون) ونص الحديث الشريف. على صاحبه أزكى الصلاة وأفضل التسليم. وفيهما سوف نلاحظ بإذن الله تعالى أن فيهما دلالة قوية على نقل صور جميع هذا الجنس الإنساني، وهي في حالتها النورانية العالية. والله تعالى أعلم. وإدخالها في هذا الجسم المراد تأهيله وتسميته. بآدم عليه الصلاة والسلام. وفيهما أيضا. دلالة أخرى على كون المادة الطينية. المكون منها هذا الشبح. الهولى. والجسم، أنها كانت في تلك الفترة في حالة نورانية، غير الحالة التي هي عليها الآن في الدنيا بعد الإهباط. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين، ولنبدأ بلفظة (مسنون) القرآنية، وإيراد بعض دلالاتها اللغوية، وبعض ما ورد عنها في بعض التفاسير، لعنا

نستقى وننهل منها بعض الإشارات التى تشير إلى ما قلناه - بإذن الله تعالى وفضله -
فمع لفظة (مسنون).

لفظة (مسنون واللفظة)

وبالرجوع لبعض كتب ومعاجم اللغة، وأقربها مثلاً تاج العروس، تجد أن مادة
«سن أو سنن» ذات دلالات ومعان كثيرة، ولكننا سنحاول أن نوجز منها ما يتيسر -
بإذن الله تعالى وتوفيقه - فماذا قيل: (قالوا يقال سن الطين سناً - عمله فخاراً .. أو
طين به .. وفى المحكم : سنّ الشيء بسنه (أى صوره) نقله الجوهري .. (وهو
مسنون) أى صوره .

والسنة: بالضم: أى الوجه لصقائه وملاسته .. والسنة: الصورة ... ومنه حديث
الحث على الصدقة (فقام رجل قبيح السنة) أى الصورة ...

وقيل: (مسنون) أى: مصبوب على صورة .. وقيل: (مسنون) أى: طويل محكوك^(١).

هذه بعض من دلالات تلك اللفظة (مسنون) لفوياً .. ثم إننا لو نحن رجعنا لأكثر ما
أورده المفسرون لهذه اللفظة، فإننا سنجد أن جُلّ ما أورده لا يخرج عن أنهم، يأخذون
لدالة (حماً) المضافة إلى (مسنون)، ويدمجونها فى لدالة (مسنون) ويعبّرون بها
عنهما جميعاً، دون أن يشيروا بأى إشارة تفصيلية لدالة كل لفظة منهما على حدة؛
فمثلاً هذا الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - يقول مجملاً عنهما بقوله: (.. فَبَلَّ -
الله تعالى : - التراب حتى عاد طينا لازباً، وهو الذى يلصق بعضه ببعض، ثم ترك حتى
أنتن، فذلك حيث يقول: «من حمأ مسنون» قال أنتن ..)^(٢) .. هذا ما قاله القرطبي،
ومثله فى جل كتب التفسير .. فى حين لو رجعنا للآية نجد أن فيها لفظين هما: (حماً)
و (مسنون) .. ولكل لفظ منهما . لو رجعنا لكتب اللغة ومتونها - عشرات الدلالات
ومثات المعانى أضف إلى ذلك أن اللفظين واردان فى كتاب الحى الذى لا يموت. إذن

(١) تاج العروس: للزبيدي ٢٤٣ - ٩/٢٤٤.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١/٢٨٥.

فنحن أمام آلاف الدلالات . ولست مبالغاً في ذلك . والله . لكن هؤلاء المفسرين تجاهلوا كل ذلك وأدمجوا اللفظين في لفظ واحد وعبروا عنهما بدلالة واحدة فقالوا (منتن) فيا ترى لأيهما تكون هذه الدلالة؟... أهى لحمأ أم هى لمسنون . وبحسب الرجوع لمتون اللغة ، والتدقيق فى أكثر كتب التفاسير وأمهاته . يتضح للقارئ أن دلالة (منتن) هى أقرب ارتباطاً بلفظة (حمأ) منها بلفظ (مسنون) ، وذلك لأن من أهم دلالات (حمأ) دلالة تغيير ريحة الطين إذا خمر وترك . وكذلك يتغير لونه . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . إذن (فمنتن) هى تفسير للفظه (حمأ) لا (مسنون) لأننا قد رأينا أن من دلالات (مسنون) أنها تأتي . بمعنى صقل الشيء وتحسينه... ومعان كثيرة لاتقرب مما ذكره المفسرون . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . بل رأينا أن دلالة (الصورة والتصوير) هى أيضاً من أهم دلالات (مسنون)... إذن فدلالة ، (منتن) هى تُفسّر لنا لفظة (حمأ).. وهنا سؤال وهو: ما مناسبة لفظ (حمأ)؟ بلفظة (مسنون) فى الآية بعد هذا التوضيح السابق، هذا الاستفسار قد توضحه لنا الدلالة الأخرى التى أوردناها ضمن دلالات (مسنون) السابقة، وهى قولهم: إنها تعنى (صب الشيء على صورة).. إذن فالمناسبة هى . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أن التراب بعد أن يبل بالماء ويعجن حتى يصير طيناً، ثم يُخَمَّر ويترك، حتى إذا صار (حمأ) صُبَّ فى قالب على هيئة وشكل وصورة معينة، فيصبح ذلك الطين هو نفس تلك الهيئة أو الصورة التى صب عليها ذلك (الحمأ) بعد ذلك جرى نقل وإدخال جميع صور الجنس الإنسانى فى ذلك القالب الطينى، الذى أصبح فيما بعد (جسم آدم) . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وقد رأينا أن ذلك الإدخال لتلك الصورة، قد كان وهى فى حالة نورانيّتها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ليستسخ من ذلك الجسم فيما بعد ذرات عناصر جُسم جميع الصور التى أدخلت فى هذا الجسم . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . بقدرته وعظمته . سبحانه وتعالى . .. أظن أن هذا التوضيح البسيط يُقَرِّب من إشارة ابن عباس . رضى الله تعالى عنهما . السابقة حول آية التصوير ﴿ ولقد خلقناكم ﴾

أى آدم... ﴿ثم صورناكم﴾ أى فى ظهر آدم، ولا نستغرب لما أشرنا به أننا رأينا أن جميع هذه التسوية الطينية الحمئية لهذا القالب الجسم، إنما كانت هى، بيدي الرحمن الشريفتين الطاهرتين - جل وتعالى سناه - سبحانه ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾^(١).. إذن فهو تكريم إلهى بخلق هذا الجسم بيديه الطاهرتين، وهذا التكريم هو ما كشف لنا إشاراته ومدلولات معانيه، الذى لا ينطق عن الهوى ﷻ، فى الحديث الشريف السابق الذى رويناه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وأرضاه.. هذا الحديث الذى كشف لنا ما أجملته الآية الشريفة ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ وجميع الآيات المرتبطة بهذه المرحلة الخلقية.. كقوله تعالى السابق ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾.. فالآية السابقة تقول: ﴿خلقت بيدي﴾ وهذه تقول: ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ ورأينا كل ما سبق أن قيل عنهما، وقلناه بفضلته تعالى وحمده ، ثم يأتى الحديث الشريف ليجلى لنا تلك الإشارات وكل ما حاولنا أن نلف ونُدور حول ما فى هذه الآيات ولم نستطع أن نصل إليه، وأننى لنا ذلك؟ يأتى الحديث ليقول لنا عن عملية التصوير تلك وكيف تمت؟ وكيف تم نقل وإدخال جميع تلك الصور؟ وتصويرها بداخل هذا الجسم.. جاء ليقول:

فقال له ربه، ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت قال: اخترت يمين ربى، وكلتا يدي ربى يمين مباركة.. ثم بسطها: فإذا فيها آدم وذريته.. فقال: أى ربى ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك ، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا هو رجل أضوؤهم أو من... إلخ الحديث).

هذه أهم إشارات ذلك الحديث الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فما الذى تعنيه؟ يقول الشيخ منصور على ناصف - أحد علماء الأزهر الشريف - حول قوله ﷻ: (ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته..) إلخ... (فلما بسط الله يمينه - ظهرت صور لأرواح آدم وبنيه وعمر كل منهم مسطور بين عينيه) ... إذن فما ظهر فى يمين ربى، كان صور جميع الجنس الإنسانى ومن ضمنهم من سمى بعد - بآدم عليه الصلاة والسلام .

(١) شرح التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول «ص»: ٣٨ - ٤/٣٩ .

وهذه الصور هي التي جرى نقلها وإدخالها في مكانها الخاص بها رقيقتها الخاصة بذلك - في طينة ذلك القالب الجسمي - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - .. ألم يمر بنا قولهم : «سن الشيء: صورته، والله سبحانه وتعالى، خلق آدم (بيديه) من ذلك (الحمأ المسنون) .. أى أنه سبحانه وتعالى، سنّ وسوّى ذلك الطين الحمئى بيديه الطاهرتين، هذه التسوية هي إدخال ونقل تلك الصور .. ولن نزيد حول ذلك بأكثّر من هذا التوضيح لما يكتنف ذلك من مزلق عقديّة، نسأله سبحانه وتعالى أن يجنبنا ذلك، إنه على ذلك قدير .. وبهذا التوضيح أيضاً أظن أنه قد وضع لنا - الآن - بعض ما أشار به الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - في قوله: «فلما خمر الحق تعالى - بيديه - طينة آدم تغير ريحها (وهو المسنون)».

إذن فسن ذلك الطين الحمئى، يعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - تصوير مثال جميع صور الجنس الإنسانى في مكانها المخصص لها - أى رقيقتها الخاصة بها - في ظهر هذا الجسم الطينى - المسمى آدم فيما بعد - بل إن هذه الإشارة تؤكد لها إشارة حديث سابق، وهو ما أشار بمعناه الشيخ ابن عربى بقوله: (فأودع الله تعالى - فيه - أى فى جسم آدم عليه الصلاة والسلام - ما كان فى قبضته سبحانه - فإنه سبحانه وتعالى - أخبرنا : أن فى قبضة يمينه السعداء ، وفى قبضة اليد الأخرى الأشقياء، وكلتا يدي ربي يمين مباركة .. إلخ .. ومن هنا يتجلى لنا قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ .. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

وحقيقة هذا التصوير:

ومن ذلك كله قد يتجلى لنا أيضاً - بعض من حقائق هذا التصوير، وحقيقة هذا التصوير بجزءيه، النورانى الخالص - أى الطاقة الخالصة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - النورانى الآخر ، المتجسد - الهيولى - أظن - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه هو مقصود الخلق الأول بمراحلته - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ثم إن هذا التصوير النوراني الجمعى لهذا الجنس الإنسانى بأكمله وما جرى له من نقل من مكانه الذى كان فيه ونورانيته التى كان بها فيه، تم تحويله من طبيعة نورانيته تلك ومكانتها إلى طبيعة نورانية أخرى وإيداعه فى مكان طبيعتها، أى إخراجهم ونقلهم إلى طبيعتها، وهى حالة إيجادية عنصرية فى حالة نورانية محسوسة متجسدة، أو ما يسمونه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بالحالة الهيولية، وهى مرحلة كل ما سبق من حديث حول ما تم من تسوية وتصوير قبل قليل - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ... وبعد أن تمت كل عناصر تسوية مرحلة هذه الحالة الإيجادية، كما سبق، جرى استنساخ جمعى آخر لجميع صور هذا الجنس من خلال هذا الجسم الطينى، ليكون هذا الإخراج - الاستنساخ - الهيولى الخالص - هو نتيجة ذلك الإدخال النورانى الخالص، أى إدخال نورانى بطبيعة وخواص معينة، وإخراج نورانى على طبيعة خواص أخرى، غير ما أدخل وهو على طبيعتها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا الإخراج فى هذه المرحلة النورانية المتجسدة قد دلت عليه - أيضا - مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية الصريحة، ومجموعة أحاديث نبوية شريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - ترتبط بها آيات وأحاديث أخرى كثيرة - أيضا ولكن هناك آية من تلك الآيات يمكن لنا أن نبتدىء بها فى حديثنا حول هذه الإشارة (ولنستعن بالله تعالى فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير).

مع مرحلة الاستنساخ والإخراج الجمعى

بطبيعة خصائص التسوية الهيولية:

فمع الآية القرآنية وشيء مما قيل عنها قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾^(١).

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

هذه الآية القرآنية (الأولى فى هذا الفصل)، وفيها ترى أنها تشير إلى إشارات كثيرة، ومتنوعة، منها مثلاً، أنها تشير إلى دلالة رئيسية وردت فى حديث نبوى شريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وهذا الحديث، وهو المروى حول قبض الطينة التى أخذت من الأرض وكُون منها الجسم العام - الذى سُمى فيما بعد آدم - وذلك لأن فى هذا الحديث وإن اختلفت رواياته إلا أنَّ معناه العام واحد، وهو أن الملك الذى أرسل إلى الأرض ليأخذ منها التراب الذى سوف يكون منه ذلك الجسم، لم يقبض أو يأخذ من مكان واحد من الأرض، بل كما فى الحديث نوع الأخذ، حيث أخذ من تربة حمراء، وببيضاء، وسوداء، ومن كل أنواعها المختلفة، ولذلك - كما فى الحديث - خرج بنو آدم مختلفين^(١) أو كما روى عن أبى موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل، والحزن والخبيث والطيب. رواه الترمذى - قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. هذا هو الحديث والدلالة التى تشير إليها الآية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - هى أن تلك القبضة الترابية - الطينية فيما بعد - التى قبضت من الأرض، إنما هى تمثل قبض جميع ذرات جسيم الجنس الإنسانى، مُزجت جميعها وكونت الجسم العام، المسمى آدم - ولذلك رأينا الآية السابقة تقول: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ تشير إلى هذه الدلالة ولكن بخصوصية أخرى، وإن كان الجميع يؤول إلى قضية تكوين وتسوية هذا الجسم الآدمى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين^(٢). وذلك أنا قد أوردناه هناك أن الجميع قد صوّر فى هذه الطينة، ومن: ضمن ما قلناه حول إثبات هذه الإشارة، وخصوصاً، لفظة (مسنون) وما قالته اللفظة عنها، ألم تقل من ضمن ما قالت: أن العرب تقول: (سن الشيء صوره، ومنه (مسنون) أى: مصبوب على صورة..). إذن فجميع الذرات الإنسانية التى مُزجت فى ذرة آدم - عليه الصلاة

(١) بتصرف من جامع الأحكام: للقرطبي ١/٢٨٠.

(٢) الجامع للقرطبي ١/٢٨١.

والسلام، إنما هي كانت عبارة عن قوالب، جسومية قد عُدت وهيئت في الجسم العام نفسه، والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ثم أُدخلت صور جميع هذا الجنس الإنساني لتُصَبَّ في قوالبها الخاصة بكل صورة منها بعد أن هُيئت لتقبُّل صورتها الخاصة بها، لتستسخ وتُستخرج فيما بعد بطبيعة وخواص أخرى، غير ما أُدخلت بها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب . وفي هذه الآية نرى أن مقصود الخلق الترابي، إنما هو هذه الذرات المتكونة، وكيف أن أصلها وعنصرها هو نوراني قبل امتزاجه وتَرْكُبه، وتشير الآية . أيضا إلى الكيفية التي سيكون عليها بعد امتزاجه هناك، وبعد هبوطه إلى الدنيا، وهكذا . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهناك إشارات أخرى كثيرة جدا، سوف تتضح لنا بمشيئة الله تعالى وتوفيقه . عند التحليل .. بموئنه تعالى .

فلو رجعنا إلى ظاهر النص لوجدناه يشير إلى ذلك وإلى الكيفية التي سوف يخرج بها بعضهم عن بعض وإن اختلف كل واحد منهم بخواصه وسماته التي لا يشترك فيها معه غيره قبل المزج وبعده . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . فماذا أورد عنها علماء التفسير من إشارات؟ ونبدأ مع جامع أحكام القرآن للقرطبي، وقد سبق أن قلنا أنه كتاب جماع رواية ودراية لكل من سبقوه، ومن هنا أكثر الأخذ منه وبالله العون والتوفيق، يقول: (وهذه آية مشكلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر فيضا مما ذكره .. من ذلك حسب ما وقفنا عليه .

أ . فقال قوم (إن معنى الآية: أن الله تعالى، أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض) .

ب . وقيل: أنه . سبحانه وتعالى . (أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه تعالى، جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها) .

ج . وفي الحديث، عن النبي ﷺ غير هذين القولين، وأنه أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم . عليه وعلى نبينا ﷺ .. كما روى مالك في موطئه أن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه وأرضاه.. سئل عن هذه الآية - آية النذر - فقال - عمر رضى الله عنه وأرضاه - سمعت رسول الله ﷺ: يسئل عنها، فقال: إن الله تعالى خلق آدم فمسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون - ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون... إلخ الحديث.. قال أبو عمر: هذا حديث منقطع الإسناد لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر.

ولكن معنى الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم أجمعين... وغيرهم.

وروى عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما وأرضاهما، عن النبي ﷺ أنه قال: أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس.. وجعل الله تعالى لهم عقولا، كنملة سليمان، عليه الصلاة والسلام وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض.. قال أبى بن كعب: وأشهد عليهم السماوات السبع.. فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد^(١).

هذا جل ما أوردناه من إشارة الإمام الطبرى حول آية النذر، وهو أيضا موجز من أقوال أكثر المفسرين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وبالتأمل فيه ترى أنه أشار بكلام غاية فى الإيجاز - إلى مجمل الآراء الثلاثة التى أشرنا بها حول تعدد مراحل الخلق والإيجاد والإنشاء، أو مراحل الخلق الإخراجى المتنوع - إن صح التعبير - والله أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذ كان الخلق التقديرى الأول، ثم الخلق الثانى فى (أم الكتاب).

وهو الخلق النورانى الروحانى الخالص.. ثم كان هناك الإخراج والإيجاد النورانى المتجسد فى أشباح عنصرية نورانية - الإخراج الهيولى - ثم الإيجاد من

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبى ٢١٤-٢١٦/٧.

الذرية بعضها من بعض وهو إخراج لا يدخل فيه آدم عليه الصلاة والسلام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو الذى سوف تكون منه المنشأتان - بإذن الله تعالى - والله تعالى أعلم - الدنيوية التناسلية، ثم الفورية عند البعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

ولذلك نراه يشير - القرطبي - إلى إشارة الخلق الأول وإيجاده فى (أم الكتاب) بقوله: «وقيل - إنه سبحانه وتعالى، خلق الأرواح قبل خلق الأجساد...» وأشار إلى قضية المنشأتين بقوله: «وأن الله تعالى: أخرج من ظهور بنى دم بعضهم من بعض.. وأشار إلى المرحلة الثانية بقوله: (وفى الحديث عن النبى ﷺ غير ذلك: وأنه أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام... هذا ما أشار به .. وقد سبق أن وقفنا قليلا عند مرحلة الإيجاد النوراني الخالص، ثم بدأنا نشير ببعض الإشارات إلى المرحلة الثانية، وهى ما عنونها بمرحلة - الإيجاد الهيولى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى مرحلة بداية تكوين الأجسام والأجساد العنصرية، ولكنها بخصائص، وسمات تختلف عما ستؤول إليه فيما بعد بالإهباط إلى عالم الاستحالة والتحولات - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى مرحلة المزج والتركيب.. وبالتأمل فى مجمل الأقوال التى أوردها الإمام القرطبي - وغيرها كما سيأتى بعد ذلك نلاحظ أن ذلك الجرم الشبحى الذى عدّ وهىء - بيدي الحق جل سناه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - يكون الوعاء الذى سيمتزج فيه عنصر هذا الخلق الإنسانى، تخرج فيما بعد بخصائص وسمات أخرى غير ما كانت عليه قبل هذا الدمج والمزج - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لتأدية مهمات كبيرة أرادتها حكمة الله العظيمة، لما ورد من أن هذا المخلوق الإنسانى، سوف يهبط إلى طبيعة عالم آخر يتولى قيادته، بحكم الخلافة الممنوحة له من خالقه - سبحانه وتعالى - وهذا العالم هو العالم الدنيوى. فمع إشارات المزج والتركيب وحكمه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

من حكم المزج وإشاراته:

سبق أن أوضحت لنا بعض الإشارات، شيئاً من الكيفيات التي ثم بها نقل وإدخال صور هذه الذرات إلى داخل هذا الجرم الأدمى وهى فى حالتها النورانية البهتة الخالصة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما أشارت إلى ذلك آية التصوير السابقة وما ارتبط بها .. أما آيات الذر فسنرى من إشاراتها كيفية امتزاج هذه الذرية مع بعضها فى هذا الجرم، واستساخاها منه بعد ذلك وهى على طبيعة أخرى، وإن بقى كل عنصر منها محتفظاً بطبيعته الأولى بعد الامتزاج هناك، وعدم تغيّره بعد الإهباط، لكونه سيعود إلى طبيعة هذا المكان بعد أجله المحتوم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سواء كان ذلك فى (أم الكتاب) أو فى مكانه المخصص له فى داخل هذا الجرم (عجب الذنب كما سيأتى بإذن الله تعالى - والله تعالى أعلم - فمع شئ من تلك الحكم للمزج العنصرى.

يقول الشيخ ابن عربى (وجعل الله تعالى - سبحانه - العالم فى الدنيا ممزجاً - لذلك مزج القبضتين فى العجنة - العجنة الأدمية - ثم فصل الأشخاص منها، فدخل من هذه القبضضة فى هذه القبضضة - من كل قبضة فى أختها فجهلت الأحوال - لدى الخلق - وغايته التخلص من هذه المزجة، تمييز القبضتين، حتى تتفرد هذه القبضضة بعالمها، وهذه القبضضة بعالمها كما قال الله تعالى : ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾^(١). ولتحقق فى النهاية - عند العودة بإذن الله تعالى - قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾^(٢).

إذن فمزج تلك العناصر فى هذا الجسم الذى تكون من تلك الذرات الترابية التى عجنّت بذلك الذى تحولت به تلك العجنة إلى صفة أخرى اسمها الطين، ليمزج

(١) الفتح المكية: ٢/٢٢٩.

(٢) الفتح المكية: ٢/٢٤٦.

جميع الأشخاص فى داخل تلك العجنة سواء من كان من قبضة اليمين، أو كان من القبضة الأخرى جميعهم دمج فى بعض ومزج، ولذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ما نشاهده فى دنيانا اليوم، إذ ترى الكافر يخرج من المؤمن والمؤمن من الكافر، وليست قصة عكرمة بن أبى جهل وأبو عبيدة بن الجراح وغيرها كثير بغفلة عنا، وأظهر - والله تعالى أعلم - بهذا التناسل يتفرد كل واحد من هذا الجنس الإنسانى إلى عنصره الذى كان أصله قبل مزجه ودمجه فى تلك العجنة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - والحمد لله رب العالمين - ليتحقق قوله تعالى: ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقد يكون هذا هدفا من أهداف الحكمة من وراء ذلك المزج والدمج فى تلك الطينة، وهى أهداف كثيرة جدا، وقد ندرك بعضها ونجهل بعضها. من ذلك - أيضا - إلى ما سبق - أن عناصر هذه الذرات أو الذرة الترابية هى فى أصل طبيعتها أشياء متنافرة (ولا يمكن أن تجتمع أبدا إلا فى الصورة، ولكن على حسب ما تعطيه حقائقها، ولا يوجد منها فى صورة - أبدا - واحد، ولكن يوجد اثنان...) (١) أى بتركيب عنصرين من هذه العناصر يتكون عنصر آخر له صورة محسوسة، وهو ناتج عن ذلك التركيب - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فمثلا: (إذا امتزجت الحرارة باليبوسة، تكون النار، وإذا امتزجت الحرارة والرطوبة، يكون الهواء، وإذا امتزجت البرودة والرطوبة يكون الماء، وإذا امتزجت البرودة واليبوسة يكون التراب...) وإذا سألت لماذا كل ذلك؟ يجيبك هذا الشيخ بقوله: (فانظر فى تَكُونُ الهواء عن الحرارة، والرطوبة، ويَكُونُ النفس الذى فى الحياة الحسية، وهو كذلك المحرك لكل شئ بنفسه، وللماء والأرض، والنار... وبحركته تتحرك الأشياء، إذا كانت الحركة أثر الحياة.

إذن فمن أسرار هذا المزج - إن لم يكن هو من أهمها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - هو أن يكون سر تقوم به حياة هذا الامتزاج، أو

(١) الفتوح: ١/٢٤٦.

الجسم الممتزج من كل ذلك، إذا نزل إلى العالم الدنيوي، العالم الذى من طبيعته هذا الامتزاج والاستحالة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين ... وأظن أن هذا أمر قد كشفه لنا الحق جل سناه عن طريق العلم الذى منحناه من عند الله . سبحانه وتعالى . بل وقد أشار إليه القرآن الكريم نفسه قبل ابن عربى، إذ قال . جل من قائل: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾^(١).. هذا الأمر الذى كشف ، أنه لا هواء . أكسجين . خارج الغلاف المحيط بالأرض فإذا خرج الإنسان خارج هذا الغلاف انعدم عنه الأكسجين . وذلك . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . لأن هذا الأكسجين هو سر منحه الله تعالى لحياة هذه الصورة العنصرية داخل هذه الأرض وغلافها، فإذا خرجت هذه الصورة خارج هذا الغلاف الأرضى بدون أن يكون معها شيء مزودة به من أمر هذا السر . الأكسجين . فقدت هذه الصورة حياتها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. ثم إن هذا الامتزاج يعطينا إشارة إلى أن كل هذه العناصر فى أصلها هى طاقة نورانية وذلك، لأنه ليس لها أعيان فى حقائقها ، إلا إذا تركبت.

لنخرج من ذلك بحكمة أخرى من أثر هذا الامتزاج، وهى أنه لاصور محسوسة للماهيات . الطاقة . إلا إذا تركبت . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . عناصرها .

لا صور محسوسة للأعيان قبل تركيب عناصرها؛

لذلك يقول الشيخ ابن عربى، موضحا لنا هذه الإشارة بقوله . رحمه الله تعالى .
: إن الحقائق على قسمين:

(أ) حقائق توجد مفردات فى العقل، كالحياة، والعلم، والنطق والحس.

(١) سورة الأنعام: آية «١٢٥».

(ب) وحقائق توجد بوجود التركيب، كالسماء والعالم والحجر.. وقد أراد المختار جل سناه - أن يؤلفها - أى العناصر المتنافرة - الأضداد - لما سبق فى علمه خلق العالم وأنها أصل أكثره، أو أصله إن شئت، فألفها، ولم تكن هذه الأمهات - العناصر المتنافرة - موجودة فى أعيانها - أى أنها صور - ولكن أوجدها مؤلفة ... فأوجد - سبحانه وتعالى - الصورة، التى هى عبارة عن تأليف حقيقتين من هذه الحقائق - فصارت تلك الأمهات وكأنها كانت موجودة متفرقة... وهذه حقيقة أجزاء العناصر - والله تعالى أعلم - ثم ألفت فظهرت للتأليف - عند التأليف - حقيقة لم تكن وقت الافتراق.. فالحقائق تعطى أن هذه الأمهات لم يكن لها وجود فى عينها البتة قبل وجود الصور المركبة عنها.. فلما أوجد الحق - جل سناه - هذه الصور التى هى : الماء - النار - الهواء - الأرض.. جعلها - سبحانه وتعالى - يستحيل بعضها إلى بعض، فيعود النار هواء، والهواء نار، وهكذا..^(١).

إذن فمن أسرار هذا المزج والدمج العنصرى فى تكوين هذا الجسم - المسمى فيما بعد آدم - هو إيجاد صور عينية لتلك الحقائق النورانية، أى أعياننا تصبح محسوسة ملموسة، لعدم اتصافها بذلك قبل تركيبها.. وأظن أن هذه الإشارة قد أشار إليها الدين نفسه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ووضحها لنا اليوم العلم التجريبي - والله تعالى أعلم.. ألم يروا عن رسول الله ﷺ فى خبر الإسراء والمعراج عن النهرين اللذين رآهما رسول الله ﷺ، فسأل عنهما جبريل عليه الصلاة والسلام - فقال: (هما النيل والفرات عنصريهما) إذن فما فى الدنيا الآن وقبل الآن من صور أعيان لأى شئ إنما هى صور لما سبق أن ركب ومزج هناك - فى الملأ الأعلى^(٢) - ولذلك تجد قول جبريل - عليه الصلاة والسلام - النيل والفرات عنصريهما - إذن فما هناك إنما هو أصول وعناصر ما هو موجود هنا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. أما العلم الحديث فهو ما

(١) الفتوح: ٢٤٨ - ١/٢٤٩.

(٢) الفتوح: ٢٤٨ - ١/٢٤٩. والمواهب اللدنية: ٢.

يعبر عنه أهله بقولهم عن هذه الإشارة الدينية، بالمواد العضوية، أو العناصر المركبة أى الصور التى تكون ناتجة من تركيب عنصرين من تلك العناصر الكثيرة والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. إذن فمن حكم إيجاد هذا الجسم الأدمى، إنما هو إظهار ماهيات حقائق الصور النورانية البحتة، فى صور نورانية أيضا - هناك - ولكنها - وإن كانت نورانية بطبيعة مكانها التى هى موجودة فيه، إلا أنها متجسدة ومحسوسة، وهى ذات إشارات وإحياءات كثيرة وفيها تأكيدات كثيرة أيضا، كتأكيد إشارة صور الاستساخ الجسمى النورانى من (أم الكتاب) - كما أشارت إلى ذلك سورة الأعراف - ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾، وذلك عندما نقلت كل تلك الصور وأودعت فى هذا الجسم ومزجت بداخله، وهنا سنرى، أن جميع تلك الصور التى أدخلت بطبيعة خاصة - طبيعة مكانها الذى كانت فيه - إلى هذا الجسم، سنرى أنها سوف تستسخ وتخرج منه - الجسم - بطبيعة أخرى وإن كانت نورانية أيضا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو ما أشارت إليه آية الأعراف آية الذر.. وهذه الصور، وهذا النوع من الاستساخ والإخراج - أظنه - هو ما أشار إليه العلماء بقولهم: (أخرج الأرواح فى أشباح.. كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ورأينا أن هذا الاستساخ والاستخراج النورانى المتجسد المحسوس، كان له حكم وأهداف سبق بعض منها، ومنها أيضاً - وهو من أهمها - كما سيترتب عليه أمر الاستساخ والاستخراج الأخير وهو استساخ النشأتين، نشأة الإهباط إلى عالم التحولات، ونشأة العودة لطبيعة المرحلة الثانية التى نتحدث حولها نحن الآن وهى نشأة البعث - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذا ما أشارت إليه الآية نفسها حينما قالت: ﴿واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .. إذن فهو هدف أخذ الميثاق عليهم هناك، بأن الله هو ربهم وخالقهم؛ لأنهم سوف يحولون إلى طبيعة أخرى قود يخالفون ذلك العهد المأخوذ عليهم، ورغم ذلك

وعدهم - سبحانه وتعالى - بأنه سوف يرسل إليهم من يذكرهم ذلك، وهم الأنبياء والرسول.. ولذلك سنرى أنه سبحانه وتعالى بعد هذا الاستساخ النوراني الشبهي وقبل أخذ الميثاق - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه سيعقبه تسوية وتعليم خاص، وبعد ذلك يؤخذ عليهم الميثاق، ثم يعادون إلى ذلك الجرم ويهبط إلى عالم الاستحالة والتحويلات، وما سوف يعقب ذلك - بأمر الله تعالى وإذنه - وأظن أن ذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وأظنه أيضا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾، وهنا نعود لما سبق أن قلناه آنفا.. فقد قلنا أن آية النذر هذه تشير بإشارات كثيرة، ومنها إشارة الاستساخ والإيجاد الجمعي للجنس الإنساني من جسم آدم عليه الصلاة والسلام ، وهي لفظة لما سبق من إدخال جميع هذا الجنس الإنساني إلى داخل هذا الجسم دفعة واحدة وهو بطبيعة معينة، ونورانية - أخرى - ذات خصائص معينة كذلك، ثم إخراج منه وهو بطبيعة معينة قد تختلف بعض الشيء في خصائصها عما أدخلت به، وهذا ما أكدته الحديث النبوي الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - السابق المروي عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما: (أخذوا من ظهر آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس... إلخ). إذن فهم قد أدخلوا جملة وأخرجوا منه - أيضا جملة - .. بل في هذا الحديث وسابقه المروي عن أبي هريرة، رضى الله تعالى عنه، لفظة أخرى - وهي أن يمين ربي - سبحانه - التي أدخلت قبضته اليمنى - واليد الأخرى التي أدخلت القبضة الأخرى، هما اليدان الطاهرتان الشريفتان المباركتان اللتان أخرجتا هذا الجنس الإنساني من ذلك الجسم، وهذه اللفظة تعطينا ما نحن نلف وندور حوله في هذه المرحلة، وهو ما نريد إثباته حول نورانيته. وإن كانت متجسدة - كما سبق - وكذلك الإيجاد الجمعي، سواء كان ذلك جميعهم معا وآدم معهم، كما هو في (أم الكتاب) أو إدخالهم جميعاً في جسم آدم فيما بعد ثم أننا سوف نلاحظ أن هذا الإخراج الجمعي النوراني المتجسد سوف يعاد ويدخل إلى داخل هذا الجسم مرة أخرى، ليستسخ منه

استنساخ آخر فردى مغاير فى نوعه لما استنسخ منه . ليستنسخ منهما معا بعد ذلك استنساخات فردية متتالية بعضها من بعض حتى ينفرد كل واحد بطبيعته الخاصة التى أدخل بها أول مرة فى ذلك الجسم العام . الذى سمى آدم عليه السلام . ليتحقق معنى قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ .

من أدلة وبراهين الاستنساخ الجمعى ذو النورانية المتجسدة

وهذا الخلق الجمعى، والاستنساخ الجمعى المتجسد الوارد فى آية الذر السابقة، تشير إليه وتجلى الكثير من خصائصه وأهدافه، ما جاء فى سورة البقرة من حلقة من حلقات خلق هذا الجنس الإنسانى وهو قوله تعالى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لاتعلمون ❖ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين❖ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ❖ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ❖ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين❖ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقريا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين❖ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ❖ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ❖ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(١).

هذه بعض آيات قرآنية تشير إلى حلقات مراحل خلق هذا الإنسان جميعه، وهى كما تراها تشير وتؤكد إلى أن هذا الخلق الدنيوى قد سبق بمرحلة خلقية هى سابقة

(١) سورة البقرة: الآيات ٣٠ - ٢٨.

عليه، وأنها ذات خصائص وصفات طبيعية، تخصها وأنها قائمة بنفسها ، وأنها غير الخلق الدنيوى، بل إن المرحلة الدنيوية هى قائمة ومترتبة على تلك المرحلة، لأشياء كثيرة أشارت إليها هذه الآيات وما سبق أن أشرنا إليه وكذلك آيات أخرى وأحاديث نبوية شريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - إذ فى هذه المرحلة حصل أخذ العهد والميثاق علينا بألا نعبد إلا الله وحده ولا نشرك به، وفيها أيضا حصل تعليم هذا الجنس الإنسانى بالمنهج الذى سوف يسير على نهجه فى رحلته الدنيوية إن أراد أن ينجو من عذاب الله تعالى وغضبه وسخطه، وفيها أيضا حصل بعض التدريب العملى - كما قال بعض العلماء - لهذا المنهج - افعل ولا تفعل - كما حصل فى الجنة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فهى مرحلة خلقية حقيقية واقعة - حركية الحياة - إدراكاً - عقلاً - فهماً - كما أشار إلى ذلك حديث ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما - ألم يرد فيه «وقد أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس وجعل الله تعالى لهم عقولا كنملة سليمان عليه السلام» وأخذ عليهم العهد بأنه ربه لا إله غيره، فأقروا بذلك. والتزموه.. إلخ.

إذن فهى مرحلة خلقية فيها كل مقومات الخلق والحياة، ولكنها نورانية. وإن كانت متجسدة - إذ هى موجودة - كما سبق - فى مكان من خصائص طبيعته النورانية والروحانية - فكيف لا تكون هى كذلك؟ كيف لا تكون كذلك وكل من معهم وحولهم فى تلك البيئة هو نورانى.. أما ما سبق أن أوردناه مما قاله الشيخ ابن عربى حول هذه البيئة التى أوجد آدم فيها قبل إهباطه إلى الأرض وطبيعة ذرته وذرة من أوجد معه. هناك من جنسه الإنسانى، ولا بأس من إعادة ما قاله هنا لحاجة الموقف إليه - بل ما قاله هو أيضا كان حول بعض دلالات الآيات التى أوردناها آنفا ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾. يقول الشيخ - رحمه الله تعالى - نوجزه.

(إذ إشارة إلى السرمد الذى هو من الأزل إلى الأبد، والقول هو إلقاء معنى تعلق مشيئة الله تعالى، إيجاد آدم فى الذوات القدسية الجبروتية، التى هى الملائكة المقربون والأرواح المجردة، والملكوتية التى هى النفوس - إذ كل ما يحدث فى عالم الكون

له صورة قبل التكوين فى عالم الروح، الذى هو عالم الفضاء السابق، ثم فى عالم القلب، الذى هو قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.. ثم فى عالم النفس، أى نفس العالم الذى هو لوح المحو والإثبات - المعبر عنه بالسماء الدنيا فى التنزيل. كما قال الله تعالى : ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.. فذلك قوله تعالى للملائكة ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين^(١).

هذا موجز ما أشار به ابن عربى حول الآية السابقة. وفيه نلاحظ أن آدم وما استسخ منه فى هذه المرحلة الإيجادية، كان فى بيئة نورانية عالية جداً، وإن كانت متجسدة الخلق، لأنها بيئة الملائكة المقربين - والملائكة بوجه عام رأينا أنهم عالم خلقه خلق نورانى - طاقة .. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

فما بال الأمر إذا كانت تلك البيئة بيئة الملائكة المقربين كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم - عليهم الصلاة والسلام - من ذلك العالم المجرد، ومعلوم أن العالم المجرد هو من عالم الكلمة وهو عالم الأنوار - إذن فهى صورة مستسخة ذات طبيعة متجسدة فى طبيعة عالم نورانى... وهذه الصورة المتجسدة النورانية تجعلنا نعود قليلاً لعالم الصور وتعددتها وتنوعها الذى سبق أن أشرنا ببعض الإشارات عنها - ولكن عودتنا لهذا العالم الصورى متنوعة - ستكون بإذن الله تعالى من خلال ما أورده الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - عنها - من خلال ما ستورده لهذا الشيخ - رحمه الله تعالى - ستوضح لنا إشارات كثيرة عن عالم الصور وتنوعه - حتى وإن كانت تلك الصور نورانية فكيف ذلك؟

ابن عربى وعالم الصور وتنوعه

وبالرجوع لما كتبه هذا العالم الفذ - رحمه الله تعالى - يتضح لنا أن الصور عنده متنوعة ومتعددة - إذ منها الصور النورانية الساكنة - بدون أرواح - ومنها أيضاً - صور

(١) تفتير ابن عربى: ٢٥ / ٣٦١.

عنصرية ساكنة - بدون أرواح.. ثم الصور الجسدية الخيالية - الشبحية - ولذلك يقول (.. ولما أكمل الله تعالى - هذه الصور النورانية، بلا أرواح، تكون غيبا لهذه الصور... تتجلى - سبحانه وتعالى - لكل صنف من هذه الصور بحسب ما هي عليه فتكون عن الصور وعن هذا التجلى أرواح الصور فخلق سبحانه وتعالى - الأرواح وأمرها بتدبير الصور.. وجعلها .. ذات واحدة.. ومميز - سبحانه وتعالى .. بعضها عن بعض .. فتميزت.. وليست الصور بأينيات لهذه الأرواح على الحقيقة، إلا أن هذه الصور لها كالمملك في حق الصور العنصرية - وكالمظاهر في حق الصور كلها. ثم أحدث الله تعالى - الصور الجسدية الخيالية - بتجل آخر بين اللطائف والصور تتجلى في تلك الصور الجسدية.. والصور النورية والنارية ظاهرة للعين وتتجلى الصور الحسية حاملة للصور المعنوية.. في هذه الصور الجسدية في النور وبعد الموت وقبل البعث - وهو البرزخ الصوري وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق - فإن أعلاه السماء وأسفله الأرض.. وهذه الأجساد الصورية هي التي يظهر فيها الجن والملائكة^(١).. ولذلك فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار والجان أرواح منفوخة في رياح.. والأناسي أرواح منفوخة في أشباح^(٢).

إذن فاستنساخ الجنس الإنساني من الجرم الأدمي في هذه المرحلة، إنما هو استنساخ لهذا الخلق الإنساني في صور نورانية مجسدة متلائمة مع طبيعة تلك البيئة النورانية الروحانية. بل قد تكون من جنس صور تلك الملائكة، حينما تتجسد، إذ رأينا أن الملائكة - لها صور.. ولكنها صور من نور - لاترى بالعين الإنسانية الدنيوية إلا إذا تجلت وتجسدت في صور جسدية، وهي أيضا صور نورانية، ولكنها عنصرية وعناصرها لاتزال في حالتها الطبيعية - الطاقة الخالصة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما قال فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار، إذن فالجنس الإنساني في هذه المرحلة الخلقية هو المقصود بقوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ إذن فهو استنساخ جمعي وإن كان عن طريق الجرم

(١) الفتوح المكية ابن عربي: ٣٥٢ - ١/٢٥٣.

(٢) نفس المرجع: ٢/٢٨١.

الآدمى المتجسد ذى الطبيعة النورانية . وهى إشارة أيضا إلى أن الجميع كانوا مع آدم عليه السلام سواء . وأنه واحد منهم اصطفى ليجعل على طبيعة خاصة . كما سبق . جسدية ليستسخ منه هذا الجمع مرة أخرى وبنفس الطبيعة الجسدية التى حصل عليها . والأدلة على ذلك كثيرة . عقلا ونقلا . فمع أدلة ذلك وتوضيح بعض ما فيها من إشارات .

الفصل الثامن

حضور جميع الجنس الإنساني

عرض وحوار التعليم المنهجي في الملأ الأعلى

التسوية العمومية:

فمن أدلة النقل حول ذلك العرض والحوار التعليمي الذي تم في الملأ الأعلى، بين الحق جل سناه، وملائكته الكرام - نوجز منها ما قد نراه قريباً مما نريد بإذن الله تعالى وتوفيقه - قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى:

«وقد اختلف المتأولون - أيضاً - حول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. فقد اختلفوا هل عرض على الملائكة: أسماء الأشخاص، أو الأسماء دون الأشخاص» - فقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وأرضاه وغيره:

(أ) عرض الأشخاص لقوله تعالى (عرضهم).. وقوله (أنبئوني بأسماء هؤلاء..) لا تقول العرب - عرضت الشيء فأعرض، أى أظهرته فظهر، منه عرضت الشيء للبيع.

(ب) وفي الحديث أنه عرضهم أمثال الذر..

(ج) وقال ابن عطية: «والذى يظهر: أن الله تعالى: علم آدم الأسماء وعرضهم عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة - وسألهم عن تسميتها التي تعلمها ثم أن آدم قال لهم هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا».

(د) وقال الماوردي: «وكان الأصح توجه العرض إلى المسمين»^(١).

هذا ما قاله القرطبي، وترى معنى أن العرض كان بالأشخاص والأسماء وأنهم جميعاً، حتى الأشياء التي سوف تكون معهم في الدنيا كانت، في العرض. كما يدل عليه قول ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم

(١) القرطبي: ١/٢٨٢.

أجمعين: (أنه علمه - سبحانه وتعالى - أسماء وجميع الأشياء كلها جللها وحقيرها)^(١).
إذن فالأناس جميعهم احضروا مع آدم عليه الصلاة والسلام لهذا العرض.

ويظهر أن التسوية التعليمية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكل ما يتعلق فيها من تعليم المنهج والتدريب عليه والهداية إليه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وما إلى ذلك تمت في هذه المرحلة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وذلك لأسباب كثيرة سوف نشير إليها بعد هذا الوجه - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - ونمضى مع العرض الجمعى أشخاصا وشخصا.. ولذلك نجد ابن عريى رحمه الله تعالى (يؤكد على قضية هذا العرض.. وما قيل عنه نقلا.. نجده يقول) قال: (عرضهم) أى عرض مسمياتها على الملائكة بشهودهم البنية الإنسانية، ومرافقتهم لآدم فى التنزيل..) إذن فشهودهم العرض التعليمى كان ببنيتهم الإنسانية - البنية الإنسانية - ولكنها بطبيعة غير الطبيعة التى هى بها فى الدنيا.. ونمضى مع أسباب المنهجية والتدريب العملى فى هذه المرحلة الطينية النورانية، وذلك لكونها مرحلة تتناسب مع طبيعة حقائق الأشياء العلمية وطبيعتها.. يقول ابن عريى: (إن الحقائق على قسمين: حقائق توجد مفردات فى العقل كالحياة والعلم والنطق والحس.. وحقائق توجد بوجود التركيب فى السماء والإنسان.. فقلوه حقائق مفردات توجد فى العقل، كأنه يعيدنا إلى ما سبق أن أشار به أثناء حديثه عن التسوية الطينية وخصوصا ما يتعلق منها بالإنسان. عندما قال (إن العقل ساذج) أى أنه لايقبل إلا الحقائق المفردة فى تلك البداية - ولكن تلك الحقائق المفردة هى أصول وأساسيات ما يبنى عليها من تركيب فيما بعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقوله أيضا - حقائق مفردات توجد فى العقل، أى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كأنه يشير إلى طبيعة تلك المرحلة بإشارة ضمنية غير مباشرة. أى لأن تلك المرحلة هى مرحلة نورانية والعقل كما هو معروف عنه أنه

(١) القرطبي: ١/٢٨٢

شئ نورانى - لذلك فهو لايفعل إلا الأشياء التى تكون من طبيعته فى كل تعامله.. ونورانية العقل أمر مجمع عليه من كل أهل العلم وقد أقرته لغة العرب فى دلالاتها وهى لغة القرآن الكريم. فقد ورد فيما نوجز منه (العقل هو جوهر مجرد عن المادة.. وقيل هو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات.. والحق.. أنه نور روحانى يقذف به فى القلب أو فى الدماغ.. به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية^(١) والعلم والتعليم والنطق هى أشياء نورانية، إذن فهى من طبيعة العقل النورانى، لذلك كانت التسوية التعليمية هى أنسب بهذه المرحلة، إذ الجميع كله كان من طبيعة تلك البيئة النورانية.. إذن لفترة العرض هذه هى كانت فترة التسوية. وذلك لما يوحى به جو النص للآيات القرآنية - وبديل نصى - قرآنى - آخر قد تكون إشارته أكثر توضيحاً لما نريد قوله فيما نحن بصده - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو - أيضاً - يؤكد لنا أن التسوية العقلية كانت فى مرحلة هذا الخلق النورانى - والله تعالى أعلم - وهذا النص هو قوله تعالى.. ﴿الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾^(٢).

هذا هو النص - وإذا تأملنا فيه ترى أن سياقه الظاهر يشير إلى أن تعليم القرآن كان قبل خلق الإنسان.. وهنا سؤال: ترى من هو المعنى بتعليم القرآن - والذى أضمرت الإشارة إليه فى تعليم القرآن. إن قلنا هو الإنسان نفسه ترى أن خلق الإنسان فى نظم الآية جاء بعد تعليم القرآن. إذن فهل هناك خلق آخر كان هو المعنى بتعليم القرآن. ثم جاءت الإشارة بعد ذلك لخلق الإنسان. إذ قلنا بذلك نجد أنفسنا بعيدين عن جو النص القرآنى. بل وعن المقصود بالإشارة الحقيقية فى الآية. ولكن.. إذا نحن رجعنا للجو العام للنص فى السورة كلها، فإننا سنجد أن المعنى حقيقة بهذا التعليم - إنما هو الإنسان نفسه - وذلك لأسباب كثيرة جداً من أهمها - إن القرآن الكريم إنما هو منهج مختص بهذا الإنسان وحياته - ولا يختص بغيره من الخلق - إلا بما ينظم حياة هذا الإنسان مع غيره من حيث ارتباطهم به وتنظيم علاقاتهم معه

(١) تاج العروس: ٢٥ - ٨/٢٦.

(٢) سورة الرحمن: آية ١ - ٤.

كالملائكة وبقية الكون وتعامله معهم. وإذا قلنا - بذلك - ترى كيف يكون ذلك - أى كيف يكون تعليم القرآن.. للإنسان قبل خلقه. إذن فقد كان هناك خلق لهذا الإنسان قبل خلقه فى الدنيا - وأظن أن كل ما سبق يشير إلى ذلك الخلق. ومنها خلقه فى هذه المرحلة النورانية الهيولية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وسوف تتضح لنا الرؤية أكثر فأكثر.. وهنا نعود لما نحن بصدد - وهو كون تسويته التعليمية كانت فى هذه الفترة النورانية - وذلك أن التعليم القرآنى لهذه الفترة هو أكثر ملاءمة من أى فترة تالية لذلك. وذلك نظرا لكون القرآن الكريم نفسه - روح ونور - كما سماه قائله ومنزله جل سناء بقوله تعالى عنه ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾^(٢).. إذن فالقرآن الكريم روح ونور - والإنسان فى هذه الفترة هو أيضا روح ونور وإن كان متحيزا فى جرم - إذ جرمه هذا لا يزال فى حالة طبيعية عنصر النورانية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - إذن فالتعليم المنهجى كان فى هذه المرحلة الهيولية النورانية.. وهذه الإشارة التعليمية السابقة هناك يؤكد أنها شئ آخر فى النص نفسه - إذ نرى أن النص قد أورد لفظ خلق الإنسان مرتين: المرة الأولى عندما علمه القرآن فى المرحلة النورانية، ولذلك نجد فى النص إعادة لفظ خلق الإنسان مرة ثانية، ولكن بإشارة توضيحية أخرى تبين - أن الخلق الإنسانى الأول غير الخلق الثانى - دنيا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك قال سبحانه وتعالى ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ ولذلك يقول الإمام الرازى^(٣) (لذا نجد أن الله تعالى قال: ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ إشارة إلى أن تنزيهه كان بعد تعليمه - وعلى هذا ففى

(١) سورة الشورى: آية «٥٢».

(٢) سورة النحل: آية «٢».

(٣) تفسير الرازى: ٢٩ / ٨٥.

النظم حسن زايد .. فقوله (علم القرآن) إشارة إلى تعليم العلويين.. وقوله تعالى (علمه البيان) إشارة إلى تعليم السفليين) ومن إشارة الرازي هذا نرى أن لفظ إنسان ليس مقصوداً به آدم - عليه الصلاة والسلام وحده - بل المقصود به جميع الجنس الإنساني وأنه كان جميعاً حاضراً تلك العرضة التعليمية مع آدم عليه الصلاة والسلام، بدليل أن هذا التعليم المنهجي لا يخص آدم عليه الصلاة والسلام وحده بل يخص جميع الجنس الإنساني بدون استثناء - كما مر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهنا قد ينشأ سؤال، وهو أن القرآن الكريم كتاب منزل على محمد ﷺ وبه وبأمره يختص - وعلى هذا فمنهجيته تخص أمته ﷺ وحدهم - فلماذا قلت أو أنك أوحيت بما يدل على ذلك - من أن تعليم القرآن الكريم كان شاملاً لجميع الجنس الإنساني؟

وفى الإجابة على ذلك - أنك ستري من خلال ما سنورده - بمشيئته الله تعالى - أن التسوية التعليمية تلك كانت ذات شقين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أدى إليهما الزمن الذى جعله الحق جل سناهما مرتبطاً بهما - كما سوف يتضح لنا ذلك - بمشيئة الله تعالى - وذلكما الشقان، هما تسوية تعليمية عمومية - وتسوية تعليمية خصوصية - أما المنهجية التعليمية العمومية فهي حقيقة جليلة صريحة تعم جميع الجنس الإنساني دون تخصيص وهى الالتزام بوحدانية الحق سبحانه وتعالى - كما دل على ذلك أخذ الميثاق كما أشارت إلى ذلك آية الذر السابقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهذه الحقيقة - أشار إليها القرآن الكريم بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فطر الله الناس فطراً﴾ فطر الناس عليها.. ﴿﴿(١)﴾. وفطرة الله تعالى هى التوحيد .. وهى فطرة فطر الله تعالى الناس جميعاً عليها وأخذ لذلك عليهم العهد والميثاق وجميعهم ملزم بذلك - ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾.

أى أن هذه الفطرة مترسخة فيهم لا تغيير لها - حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض.. ليقولن الله﴾ ولكن الإيمان الفطرى لا يكفى - إذ لابد من تأكيده بالعمل -

(١) سورة الروم: آية ٢٠.

والله تعالى أعلم بالصواب والحقيقة والحمد لله رب العالمين - فلا خروج على ذلك إلا لشقى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهناك شيء آخر يؤكد على هذه الحقيقة وهي أن الرسل جميعاً عليهم أفضل الصلاة والتسليم جاءوا فيما بعد للدعوة لها بدون استثناء - ولذلك نرى أن رسالة النبي محمد ﷺ إنما هي رسالة عامة وليست خاصة - تخص هذه الأمة وحدها - كما سبق - بل هي رسالة عالمية ورسولها كذلك - ولذلك قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وجاء أنه أيضاً أرسل ﴿كافة للناس﴾ وعلى ذلك جاء قول الفقهاء والمفسرين - أن لفظة (الإنسان) في قوله تعالى بعد ﴿علم القرآن﴾ - ﴿خلق الإنسان﴾ .. (إن المراد منه الجنس .. (وإن قيل) - أيضاً - أن المراد هو محمد ﷺ وقيل أيضاً أن المراد منه آدم عليه السلام - والأول أصح نظراً إلى أن اللفظ في خلق، يدخل فيه محمد ﷺ وآدم عليه الصلاة والسلام، وغيرهما من الأنبياء^(١) إذن فلفظ الإنسان يعنى به الجنس الإنساني جميعه - وهو الذى عُلِمَ المنهج القرآنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - كما أشارت الآية القرآنية إلى ذلك صراحة (الرحمن - علم القرآن - خلق الإنسان - علمه البيان) وهنا يمدنا النص نفسه بإشارة تأكيدية أخرى على هذه التسوية التعليمية العمومية ، وهي في قوله تعالى (علمه البيان) - فلفظة البيان فيها إشارة صريحة إلى تمييز هذا الإنسان بالعلم عن غيره. وهذا العلم - يحتاج إلى آلة وأداة يؤدي بها ويفصح بها عنه - ولذلك قال بعض المفسرين:

إن (البيان يعنى المنطق - فعلمه - سبحانه وتعالى - ما ينطق به ويفهم غيره ما عنده فإن به يمتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات... والبيان هو القرآن الكريم، وأعاده ليفصل ما ذكره إجمالاً بقوله تعالى (علم القرآن).. وعلى هذا فالبيان مصدر أريد به ما فيه المصدر.. وإطلاق البيان على القرآن - بمعنى القرآن في القرآن كثير - قال تعالى (هذا بيان للناس).. وقد سمى الله تعالى القرآن، فرقانا وذكرنا^(٢) وعلى هذا فالتعليم للمنهج - القرآن - كان هو المقصود بالعرض التعليمي في الآية الكريمة -

(١) تفسير الرازي: ١١٩ - ٢٥/١٢٠.

(٢) تفسير الرازي: ٨٥ - ٢٩/٨٦.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ .. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها - ومن خلال العرض السابق كله - قد نقف على إشارة أخرى نخرج بها من هذا العرض.

وقفة مع إشارة:

إن أى إنسان من هذا الجنس البشرى إذا أراد أن يحفظ بعضاً من أسطر النثر فإنه قد يلقى شيئاً من الصعوبة ولكنه إذا هم أن يحفظ سورة كاملة من القرآن الكريم - فإنه لا يلقى تلك الصعوبة التي لاقاها سابقاً مع حفظ غير السورة القرآنية - وهذه الميزة الإعجازية لهذا المنهج الريانى - القرآن الكريم العظيم - لا توجد لأى كتاب غيره، وهذه الميزة الإعجازية - أيضاً - لا تنطبق على أهل اللسان العربى وحدهم على اعتبار أنه نزل بلسانهم. لا، إذ نجد اليوم - كشاهد حال - أن الصينى الذى لا يعرف حروف العربية - أو حتى ما هى العربية - وكذلك اليابانى والأفريقى والأندونيسى وغيرهم من الذين لا ينطقون العربية البتة - إذا شرع يقرأ القرآن الكريم - لا يستطيع أن تعرف أن هذا المقرء هو غير عربى - بل وهذه حقيقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قد تجده يقرأ ويحسن نطق مخارج الحروف العربية خير من كثير من أهل العربية أنفسهم، ولكنه بمجرد سكوته من القراءة وعودته لهجته ولغته، فإنه لا يستطيع أن ينطق حتى حرفاً أو حركة من حروف اللغة العربية الصحيحة - كالضاد والحاء والخاء .. فعلى ماذا يدل ذلك. وعلى أى شئ يشهد؟ ألا يدل على عظمة إعجاز هذا القرآن الكريم .. ونورانيته .. وقوة تحديه لكل شئ؟ ألا يشهد ويؤكد ويوضح حقيقة التعليم المنهجى لهذا الإنسان - وهو لا يزال نورانياً - وإن كان طيناً متجسداً - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ألا يشهد بأن تلك التسوية التعليمية قد جرت - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - حتى فى آلات وأدوات النطق التعبيرية - والإفصاح البيانى كما أشار إلى ذلك قوله تعالى (علمه البيان)؟ - بلى والله - وإلا فما الذى يجعل بعض الحبال الصوتية الخاصة بنطق بعض الحروف فى لغة دون لغة

والعكس تحيا . لتتطق بحروف قد ماتت عند صاحبها حينما يقرأ القرآن الكريم ألا يدل هذا على أن القرآن الكريم هو (فطرة الله التي فطر الناس عليها) .. وأن هذه الفطرة التعليمية والمنهجية القرآنية قد تمت بفضل الله تعالى وحمده . فى جميع الجنس الإنسانى بأكمله بدون استثناء وأن الإسلام ومنهجه هو منهج الحياة الذى يجب التمسك به (إن الدين عند الله الإسلام) .. بل إن هذه التسوية والمنهجة أصيلة فى كل جزئى وما جر منه ليصدق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾. أفلا تبصر هذه الحقيقة، بل الحقائق الكثيرة التى نحن فى غفلة عنها.. هذه الحقيقة وغيرها يؤكدھا القرآن الكريم نفسه . حينما يقول الحق جل سناه ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(١).. ترى ما الذى تشير إليه هذه الآية القرآنية وما الذى تؤكدہ؟ جاء فى تفسير الإمام القرطبى . حول هذه الآية . ما يمكن لنا أن نلخصه بتصرف.. يعون الله قال.. (ولقد يسرنا القرآن للذكر) .. أى سهلنا الحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه.. فهل من طالب لحفظه فيعان عليه.. وقيل يجوز المعنى . ولقد هيأناه للذكر مأخوذ من يسر ناقتہ للسفر إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه فقال:

وقمست إليه باللجام فيسر هنالك يجزىنى الذى كنت أصنع

وقال سعيد بن جبیر ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن الكريم قال غيره ولم يكن هذا الشئ لبني إسرائيل . ولم يكونوا يقرأون التوراة إلا نظراً . غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعيرير صلوات الله عليهم .

فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذكروا ما فيه . أى يفتعلوا الذكر والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات .. وكالتركيب فيهم .. ﴿فهل من مدكر﴾ .. أى قارئ يقرأه .. وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله تعالى ﴿فهل من مدكر﴾ .. لأن (هل كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم حجة عليهم .. فاللام من هل للاستعراض . والهاء .. للاستخراج)^(٢).

(١) سورة القمر: آية ١٧.

(٢) تفسير القرطبى: ١٣٢ . ١٧/١٣٤ .

هذه بعض إشارات المفسرين حول الآية السابقة. ورغم إيجازها إلا أنك تراها أنها تعطينا حقائق كثيرة جداً وأبعاداً جديدة فيما نحن بصدده. بحمد الله تعالى وتوفيقه. فمن تلك الحقائق مثلاً نجد أن المفسرين يؤكدون بطريق غير مباشر على أن القرآن الكريم قد أشار إلى حقيقة التسوية التعليمية بهذه الآية الكريمة السابقة ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ فهي واضحة في إشاراتها إن لم تكن صريحة. إن القرآن الكريم يؤكد على أن الإنسان قد جرت فيه تلك التسوية التعليمية. كما سبق في العرضة. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وأنها قد جرت في مرحلة سابقة لهذه المرحلة الدنيوية، وأنه في هذه المرحلة ما عليه إلا أن يستعيد كل ما جرى فيه سابقاً. وبمجرد هذا التذكر والاستذكار فإنه سيستعيد كل ما جرى فيه سابقاً، وذلك لأن هذا الشيء الذي نحاول استذكاره واستدعائه هو موجود في داخلنا منذ أن خلقنا وهيئنا للنزول إلى هذه البيئة الدنيوية (والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين).

وفي هذه الآية كما أشار المفسرون إشارة أخرى تؤكد أن هذه التسوية التعليمية المنهجية أنها ليست خاصة بهذه الأمة وحدها بل هي تسوية شاملة لجميع الجنس الإنساني وذلك لأن الله - سبحانه وتعالى - جعل هذه التسوية في هذا الجنس الإنساني كالسلاح الذي يحتذى به هذا المخلوق من الأعداء الذين يوجدون حوله ويريدون إضلاله والإيقاع به وإبعاده عن خالقه الذي خلقه لطاعته وعبادته ولاسيما عدوه الأكبر - الشيطان الرجيم .. لذا فهذه التسوية التعليمية لهذا الجنس الإنساني هي كحماية الصنعة التي يصنعها الصانع لوقايتها من الأضرار والإتلاف.. إذن فهي - التسوية - ليست خاصة بأمة دون أمة وإن كان هناك تفصيل سيتبع بإذن الله تعالى. ليوضح أكثر. لذلك وجدنا هؤلاء المفسرين يؤكدون على أن هذا التعليم المنهجي القرآني كان قد أدخل وعمل في كل فرد من هذا الجنس. وذلك حينما تحدثوا عن الآية السابقة ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.. يقولون.. (أى ولقد هيأناه للذكر. مأخوذ من قولهم - يسر ناقته للسفر - إذا رحلها - ويسر فرسه للفزو -

إذا أسرجه وألجمه ..) وهنا نرى أنهم قد بينوا لنا حقيقة كون تلك التسوية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين) .. لأن الحق جل سناه . أراد أن يرحلنا إلى مهمة هو وحده يعلمها . وحكمة يريدنا .. وكل راحل .. مسافر .. يحتاج إلى السلاح والزاد في سفره .. فكيف والسفر طويل جداً وتكتنفه مخاوف شديدة ومخاطر جسيمة . فلا بد من السلاح إذن - ليدافع به عن نفسه حتى يعود من سفره الطويل لمستقره الأخير - الذى أريد له بأن يكون مصيره إليه - حسب توقعه واستخدامه لما معه من سلاح فى عمل مهمته . لذا نرى أن ذلك السلاح - التعليم المنهجي - كان ضرورة لكل فرد من أفراد هذا الجنس الإنسانى، لأنه محتاج فى رحلته لحماية نفسه .

وهناك شئ آخر جاء فى النص .. نص الآية القرآنية السابقة .. يؤكد على حقيقة هذه التسوية التعليمية فى جنس الإنسان - هذه الحقيقة، هى حقيقة الجزء الخاص بهذه التسوية التعليمية فى الإنسان عموماً .. فقد ورد فى الآية: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ نقول لقد ورد لفظان يجليان تلك الحقيقة، وهما لفظة ﴿للكذكر﴾ ولفظة ﴿مدكر﴾ .. والذكر والتذكر معلوم لدينا اليوم - مكانهما الخاص بهما هو الذاكرة . إذ هى الرقاقة الخاصة بعملية الحفظ والتعليم والتعلم . كما يقول علماء علم النفس - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالذكر يعنى الحفظ (.. ومدكر ..) أى فطن ومتعلم وعامل بما حفظ - وما دام الأمر يرتبط بالذاكرة والتذكر - فالعملية عقلية - نورانية - طاقة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن الذاكرة موجودة الآن فينا ونحن فى حالة الخلق الطينى - كما تعلم - فى الدماغ، ومعلوم أن الدماغ كل عمله وتعامله لا يكون إلا فيما هو نورانى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومعلوم - أيضاً - أن العقل وعملية التعقل مرتبطة به .. إذن فهذه الحقيقة تؤكد - بحمد الله تعالى - أن هذه التسوية قد تمت عند الخلق الروحانى الطينى فى المبدأ الأعلى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين وأن هذا الشئ النورانى - الرقاقة - هو فى مكان يخصه قد وضع فيه .

استفسار ذو شقين:

هنا قد يطرأ بعض التساؤل والاستفسار حول ما سبق وما قد يأتي مثل: إذا كانت هذه التسوية التعليمية القرآنية هي موجودة فينا فعلاً، فلم نحاول أن نتحفظه «القرآن الكريم» وذلك لأنه محفوظ فينا فلم نحفظه؟ ولم لا تذكره إلا أن نحفظه؟ وهنا استفسارات أخرى قد تنشأ أثناء التحليل فيما بعد . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . والجواب على ذلك . بتوفيق الله تعالى وإذنه . هو أنا الآن لسنا على نفس الخصائص والصفة التي كنا عليها عند تلك التسوية التعليمية فهناك كنا أرواح . نورانية في أجساد هيولية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أى أنا أقرب إلى جنس ما أدخل فينا . والله تعالى أعلم . أما الآن فنحن على خصائص وصفة وحالة تختلف، عما كنا عليه عند التسوية التعليمية .. وأظن . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أن التحول الذى حصل لنا بأمر الإهباط، هو الذى جعل مثل هذه الاستفسارات تنشأ .. وذلك أن التعليم هو عملية معنوية أقرب إلى النورانية . إن لم تكن كذلك . وهى متلائمة مع ما أدخلت فيه . أما الآن فالتعليم القرآنى موجود ومندمج . أيضاً . فيما هو من جنسه ، أى فى جزء أقرب إلى نورانيته وإن كان الوعاء الحامل له قد حصل تحول فى طبيعته، فهو مدخل فى ما نسميه الشعور واللاشعور، والوعاء هو الدماغ المادى لا ما يجرى فيه . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ومن هنا جاء لفظاً (الذكر والتذكر) .. فالذكر . الحفظ يستدعى استذكار واستدعاء الأصل الذى هو مدخل . موجود . فيما هو من جنسه . والله تعالى أعلم . ولذلك كانت كل البرمجة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . الندائية الاستدعائية الموجودة فى هذا الإنسان الطينى برمجة شعورية انفعالية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وقد أدرك علماءنا العظام . رحمهم الله تعالى . هذه الإشارة البرمجية وكل ما أشار إليه الاستفسار السابق، وما طرأ لأجل هذا التحول الخلقى الطينى، فقالوا حول: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾:

(إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى يسّر حفظه لهذا المنهج القرآنى . ليسهل تذكر ما فيه . أى يفتعلوا الذكر والافتعال .. وهو أن ينجع فيهم ذلك، حتى يصير فيهم كالذات) .. إذن فالذى أدى إلى ذلك، إنما هو أسباب كثيرة جداً .. أولها: هو هذا التحول الخلقى التركيبى العنصرى، فكأن الأمر بهذا التذكر والتذكير والذكر، وبمجرد تذكره واستنكاره تستحضره الذاكرة .. وبطريق الافتعال والانفعال الشعورى التذكرى، عندها تتم الاستجابة والتجاوب من اللاشعور فيحضر وكأنه كان موجودا، ويتجاوب معه كل شىء قد تم إدخاله وتهيأت فيه أبدا . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وكيف لا يتجاوب ويجب عند استدعائه ، وهو مناط الحجة والشهادة لنا أو علينا، وذلك عندما تتضح حقائق الأمور يوم الشهادة والشهود فى يوم: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ (١) .

ليعلم من تذكر فاستدعى ومن لم يذكر فلم يستدع، إذ الجميع فيه هذا الذكر والتذكر فمن ذكر نجا وفاز بإذن الله تعالى، ومن لم يتذكر خبا وشقى وغرم . نعوذ بالله تعالى، من ذلك . لذلك قال العلماء (٢) . رحمهم الله تعالى . عند قوله تعالى (فهل من مدكر) .. قالوا: (.. هل كلمة استفهام، تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها . الله تعالى حجة عليهم .. فاللام من (هل) للاستعراض .. (والهاء)، للاستخراج .

وهنا نقف عند لفظة الاستخراج .. لنرى ما الذى يستخرج، أليس هو استخراج ما سبق تسويته واستيداعه . برمجته . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . فى تلك الرقيقة الخاصة به فى الذاكرة والشعور واللاشعور .

وهنا قد يطرأ سؤال - أيضاً - وهو: هل كان أهل الكتب السابقة .. عندهم هذه القدرة الاستدعائية التى هى الآن عندنا فى استدعاء ما بداخلنا من قرآنية منهجه،

(١) سورة الزمر: آية ٦٩ .

(٢) القائل هو سعيد بن جبير رضى الله عنه «القرطبي»: ١٢٤/١٠٧ .

إذا استدعيت حضرت فوراً، وتظهر في عملية الحفظ التي نحسرها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ولإجابة هذا السؤال سنلاحظ أنها ذات شقين . بمشيئة الله تعالى .

مع إجابة الشق الأول من السؤال:

فإجابة الشق الأول من السؤال، نتطرق من إشارة سابقة وردت للتابعي الجليل سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه وأرضاه . أثناء تعليقه على قوله تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ .. وهى قوله :

(.. وليس من كتب الله تعالى، كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن الكريم..).. هذه هى الإشارة، وترى أنها عند قراءتها قراءة عبادة تؤكد مغزى ما أشار إليه السؤال، وهى أن تعليم القرآن الكريم الأبدى، لم يكن شاملاً لبنى الجنس الإنسانى كله، وإنما كان خاصاً بهذه الأمة المحمدية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ولكن حقيقة نص الإشارة يقول غير ذلك تماماً عند تأمله، وذلك يحتاج إلى بعض التوضيح والتفصيل . بعون الله تعالى وتوفيقه . فكيف ذلك؟ وذلك ينطلق من هذه الحقائق القرآنية العظيمة، هذه الحقائق الصارخة: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾^(١) ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾^(٢) .. وهذه الحقيقة: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾^(٣) .

إذن فكل الكتب السابقة، هى قرآن . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .. ولكن ما فى كل كتاب منها هو قرآن خاص من القرآن العام، فصحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام هى قرآن، ولكنه جزء خاص بأهل زمانه

(١) سورة آل عمران: آية «١٩» .

(٢) نفس السورة: آية «٨٥» .

(٣) سورة الشورى: آية «١٢» .

ومكانه، ولا يرتبط بأى زمان أو مكان قبله ولا بعده، وكذلك الزبور، والتوراة والإنجيل، كل واحد منها هو قرآن خاص بأهله وزمانهم ومكانهم.. فأهل الصحف - مثلاً - سوّى ومنهج فيهم نص جزئهم القرآنى الخاص بهم.. وهذا الجزء القرآنى الخاص هو موجود فى القرآن العام، لهذا ترى أتباع الصحف يحفظون هذا الجزء الخاص عن ظهر قلب، والبقية - وأكثرهم - منهم لا يحفظون ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وما ذلك إلا لأنه جزء خاص بزمانه ومكانه.. وكذلك بقية الكتب السابقة، فالتوراة - مثلاً - هى مجموعة من الوصايا والمواعظ، إذا رجعت للقرآن الكريم تجدها فيه، وكذلك ما جاء فى الإنجيل وغيره من الكتب، لتصرخ هذه الحقيقة القرآنية قائلة ومؤكدة: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾^(١)... إذن فما أنزل على محمد ﷺ هو مهيمن على كل الكتب وإن كان لكل أمة سبقت شرعها الذى منهجت عليه بقدرة الله تعالى وأمره.. ولذلك يقول ابن جبير رضى الله تعالى عنه وأرضاه، ما معناه .. أن أتباع الأنبياء والسابقين لم يكونوا كلهم يحفظون ما جاء به نبيهم إلا أصحابهم المقربين منهم أما بقية الأتباع فلم يكونوا يحفظون ذلك لينقلوه كما أنزل إلى من بعدهم - لأسباب - أولاً: لأنه خاص بزمانهم ومكانهم كما سبق أن قلنا.. وإما لأن من سينقلونه إليهم قد يكونوا ليسوا أتباعاً لهذا النبى، بل قد يكونون أتباعاً لمن بعده من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام جميعاً ... وأما لأنهم كانوا يخلطون ما يحفظونه بالكثير من أهوائهم وتحريفاتهم، لذلك نجد من سوّى ومنهج يقول لنبيه ﷺ: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾^(٢).

(١) سورة المائدة: آية ٤٨.

(٢) سورة الجاثية: آية ١٨.

بـعكس أمة محمد ﷺ فقد كانوا جميعاً يحفظون ما أنزل على نبيهم ﷺ. عن ظهر قلب كما أنزل لينقلوه إلى من بعدهم، ومن بعدهم إلى من بعدهم إلى أن تقوم الساعة: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(١).
﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٢).

مع الشق الثاني من إجابة السؤال السابق:

هنا نتضح لنا حقيقة في غاية الأهمية والدقة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهي أن كل أمة نبي وأتباعه وأتباعهم، هم يتصفون بما دعا إليه نبيهم، أي بما سواوا عليه من قدرات ترتبط بنبيهم، ولا يرتبطون بغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. فكيف ذلك؟ تلك هي إجابة الشق الثاني من السؤال السابق وهذه الإجابة تنبثق من إشارة سابقة أشار بها الشيخ الرازي، وبعض علماء الإسلام أثناء حديثهم في التسوية القرآنية، حيث قال هناك: (تري ما المراد بالإنسان؟ فقالوا هو الجنس.. وقيل المراد هو محمد ﷺ.. وقيل المرد هو آدم . عليه الصلاة والسلام . والأول أصح نظراً إلى اللفظ في خلق، ويدخل فيه محمد ﷺ، وآدم عليه الصلاة والسلام . وغيرهما من الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام).

هذا هو موجز ما أشارت به إشارة الشيخ الرازي، وهي أيضاً في جل كتب المفسرين، وفيها تلاحظ أن المفسرين قد اختلفوا في المقصود بلفظ الإنسان في الآية السابقة، وأظن أخي القارئ يذكر أننا قد ملنا مع الرأي القائل بأن الإنسان مقصود به الجنس، ولازلنا عند ذلك، والذي على ضوئه قلنا بالتسوية العمومية للمنهج القرآني، والدليل على تلك العمومية في المنهج التعليمية للقرآن الكريم التفصيل السابق و ذلك كان في الجميع هو هذا القول المروي عن الإمام مجاهد - رواه عنه ابن أبي نجيح حول قوله تعالى: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾^(٣).. قال:

(١) سورة سبأ: آية «٢٨».

(٢) سورة الأنبياء: آية «١٠٧».

(٣) سورة الإسراء: آية «٣».

أى ذرية من حملنا مع نوح.. والمراد بالذرية كل من احتج عليه بالقرآن الكريم، وهم جميع من على الأرض.. ذكره المهدي^(١).

إذن فالجميع كانت فيه تلك التسوية العمومية للقرآن الكريم بدليل أن أخذ العهد والميثاق كان هناك للجميع، فكيف لا يكون وضع وتعليم الوسائل المذكورة بذلك العهد والدالة عليه وإليه قد وضعت وعملت هناك، وإن كانت كما قلنا سابقاً، إنها كانت جزئية خصوصية فيمن كان قبل رسالة نبينا محمد ﷺ، وعمومية شمولية فيمن مع محمد ﷺ ومن سيأتي بعده إلى أن تقوم الساعة. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. وأظن. والله تعالى أعلم. أنه من هنا حصل ذلك الخلاف الطويل العريض فيمن سموهم بأهل الفترة، وهم أولئك الذين عاشوا في الزمن الذي كان بين نبينا محمد ﷺ ونبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فمن العلماء من سكت عنهم ومنهم من رأى أنهم مأخوذون في كلا الأمرين، أمر أن الفطرة فيهم بهذا الميثاق السابق والتذكير الذي جعل لهم من بعض أتباع نبي الله عيسى عليه السلام، وكان مؤمناً داعياً لتوحيد الله تعالى كقوس بن ساعدة الإيادي. رحمه الله تعالى. وأمر كونهم أتباعاً لنبي، وهذا الخلاف جعلنا نعود إلى الخلف قليلاً عند الرأيين السابقين في لفظة (الإنسان) في آية الرحمن السابقة وقولهم أن المقصود به (محمد ﷺ) أو آدم عليه الصلاة والسلام أو غيرهما من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم جميعاً.. فكيف ذلك؟

الفصل التاسع

التسوية والمنهجية التعليمية الخاصة

مع آية الأنعام وبعض ما قيل عنها وتحليله:

وجواب هذا السؤال وأمثاله سيجرنا للحديث عن قضية التسوية أو المنهجية التعليمية الخاصة، وهو ما ورد حول بعض دلالات آية الأنعام وما فى معناه.. فما هى آية سورة الأنعام، وماذا قيل وورد عنها؟

قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجري المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل وإيسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾^(١).

هذه آيات سورة الأنعام وما قيل عنها كثير جداً، نحاول أن نوجز منه ما قد يشير إلى بعض المقصود ولا يخل بالمراد.. .. واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أربعة من الأنبياء، وهم نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء هم: داود وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى وإلياس، وإسماعيل، وإيسع، ويونس، ولوطاً، والمجموع ثمانية عشر.

فإن قيل: رعاية الترتيب واجبة.. والترتيب، إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة.. وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة، والترتيب بحسب هذين النوعين غير

(١) سورة الأنعام: الآيات «٨٤ - ٩٠».

معتبر في هذه الآية فما السبب فيه؟

قلنا: إن حرف الواو لا يوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية، فإن حرف الواو حاصل هنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان.

وأقول: عندي فيه وجه من وجوه الترتيب، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق الملك والسلطان والقدرة.

والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً.

المرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله تعالى أيوب عليه الصلاة والسلام بهذه المرتبة والخاصية.

والمرتبة الثالثة: من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

المرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام وذلك كان في حق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام.

المرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم الصلاة والسلام. ولهذا السبب وصفهم الله تعالى بأنهم من الصالحين^(١).

المرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشباع، وهم إسماعيل وإليسع ويونس ولوط، فإذا اعتبرنا أن هذا الوجه الذي راعيناه، ظهر أن

(١) تفسير الرازي: ٦٤ - ٦٥ / ١٣.

الترتيب حاصل فى ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بحسب هذا الوجه الذى شرحناه^(١).

هذا موجز ما أشار به بعض المفسرين حول الآيات السابقة وتلاحظ فى هذه الإشارة الموجزة ما يشير إلى ما سبق من أمر التسوية والمنهجية التعليمية العمومية، وهى أن تسوية أتباع كل نبي تكون على قدر ما سوف يدعوهم إليه نبيهم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.. وينظر فاحصة إلى الأنبياء الذين ورد ذكرهم ومسيرتهم فى دعوتهم التى كانوا يدعون إليها فى أمتهم وحياة أتباعهم، سيتجلى صدق تلك الإشارة القرآنية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين... أما كيفية أن المقصود بالإنسان هو آدم عليه الصلاة والسلام وهو القول الثانى، فالإجابة واضحة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهو أن الجميع بعد أن سوا التسوية العامة والتسوية الخاصة، وضعوا أو أدخلوا فى جرم آدم - عليه الصلاة والسلام - لكونهم جميعا سوف يستخرجون منه بعد ذلك بنفس خصائص جرمه الذى أدخلوا فيه. والله تعالى أعلم.

أما القول الثالث: وهو أن الإنسان محمد ﷺ: أى كونه ﷺ وحده رمزاً للجنس الإنسانى، فهذا هو ما جعلنا نقول بالتسوية التعليمية القرآنية، وأنها كانت لجميع الجنس الإنسانى وما سبق الإشارة إليه.. وهذا هو ما قاله بعض المفسرين حول قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب، وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾^(٢).

يقول بعض المفسرين: نوجز منه - أن الله تعالى جعل فى ذرية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - النبوة، إجابة لدعائه - عليه الصلاة والسلام - والوالد يستحب منه أن يسوى بين ولديه، فكيف صارت النبوة فى أولاد إسحاق - عليه الصلاة

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة العنكبوت: آية «٢٧».

والسلام - أكثر من النبوة في أولاد إسماعيل - عليه الصلاة والسلام. نقول : إن الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى يوم القيامة، قسمين، وكذلك الناس أجمعين.

فالقسم الأول: من الزمان، بعث الله تعالى فيه أنبياء فيهم فضائل جمة، جاءوا تترى واحدا بعد واحد - ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة إسحاق - عليه الصلاة والسلام.

القسم الثاني: من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر، وهو إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - واحدا جمع فيه ما كان فيهم جميعاً - وأرسله إلى كافة الخلق إلى أن تقوم الساعة وهو محمد ﷺ، وجعله خاتم النبيين - عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام - وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق عليه الصلاة والسلام - أكثر من أربعة آلاف سنة، فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - مثل ذلك المقدار^(١).

ومن هذه الإشارة للإمام الرازي - رحمه الله تعالى - نرى أنها تعطينا إشارة إلى أن رمزية محمد ﷺ للجنس الإنساني، يعني أن ذلك باعتبار ما سوى فيه من فضائل منهجية ستكون في أمته ﷺ وأتباعه إلى قيام الساعة، كما وضعت في نبي الله إسحاق - عليه الصلاة والسلام - من فضائل شتى ظهرت بعض منها في نبي معين في (زمن ومكان خاصين) به وأتباعه وما فيهما من فضائل خاصة بهم، كما يشير ما سبق.. والكل آت من رمز واحد جمع الجميع فيه ليكون أباً آخر ورمزاً آخر للجنس الإنساني المرتبط به، كما كان لكل زمن من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى الأب الثاني الذي بقي بعد الطوفان، وهو في الأصل آت من الأب الأول - آدم - وأخذ منه بقية الجنس الإنساني وهو نوح - عليه الصلاة والسلام - ونوح أخذ منه أيضاً - ما هو خاص بزمنه إلى أن جاء الأب الثالث بعده، وهو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وهكذا .. إذن فأبوة آدم - عليه الصلاة والسلام - وأبوة نوح وأبوة إبراهيم - عليهما

(١) تفسير الرازي: ٥٦ / ٥٧ / ٢٥

الصلاة والسلام - هي لبيان الجنس الذى يحمل مؤهلاته وما سوى عليه من صفات وخصوصيات وماهيات زمنية ومكانية، وما يتفرع من كل أب مرتبطة بأزمة وأمكنة خاصة بها .

الأبوة والتبعية الجنسية وما يرتبط بها من قضايا الاصطفاء والاختيار؛

وهذه الإشارة - إشارة الأبوة الجنسية - تحمل أشياء كثيرة ومهمة جداً، تستدعى الحديث عنها لارتباطها بما قبلها آنفاً.. منها مثلاً - الحديث عن قضية تسوية الأبوة الجنسية العمومية، والمستسخ بعضها من بعض - آدم - نوح - إبراهيم - آل عمران - عليهم الصلاة والسلام جميعاً - وأظن أن هذه القضية ترتبط بها قضية أخرى مهمة جداً، وهى قضية الاصطفاء وما فيها من قضايا الردود على موضوع الدارونية وما فيها من سموم يتقبلها بعض الغفلة من الناس، وهكذا .

والحديث عن هذه الأبوة الجنسية، والتسوية النوعية تجعلنا نبدأ حديثنا عنها بهذه الإشارة المرتبطة بها، وهى أن جميع المنتسبين إلى اليهودية والمسيحية وذلك بناءً على ما سبقت الإشارة إليه من أن جميع الأمم الموجودة من يوم بعثة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وهو مسوون وممنهجون منهجية قرآنية عمومية، لا تسوية قرآنية جزئية، إذ أن الذين هم مسوون هذه التسوية الجزئية ينتهون بانتهاى زمان ومكان نبينهم الذى هم ينتسبون إليه انتساباً زمانياً ومكانياً، فالنصارى - مثلاً - لهم تسوية منهجية قرآنية جزئية خاصة بزمنهم ومكانهم وما جاء يدعوهم إليه نبينهم ورسولهم عيسى - عليه الصلاة والسلام - وكذلك اليهودية، وكل من كان قبلهم كانوا كذلك مع أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام - بهذه الصفة الخصوصية الزمانية والمكانية، إلى مجئ زمن نبينهم العام الذى جمعت فيه جميع خصائصهم وصفاتهم ومكارمهم وشمائهم التى أهلوا بها جميعاً، أو عموا أزمنتهم جميعاً، لارتباطه بهم جميعاً: (لو أن أخى موسى حياً لتبعنى)^(١).

(١) حديث شريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

إذن فالجنسية الزمنية العمومية تربطهم بهم جميعاً، بتسوية وهيئة جسمية داخلية عمومية، وإن طرأت هناك تسوية زمنية خصوصية، تستدعيها أمور مكانية وبيئية مرتبطة بخصوصية منهجه دعوة زمن هذه الدعوة وهذا النبي ومكان دعوته، لذلك فزمن نبي الله إسحاق - عليه الصلاة والسلام - ينتهي بانتهاء دعوة نبي الله عيسى - عليه الصلاة وأتم التسليم - .. لتبدأ تسوية جسمية عمومية، ملائمة لعمومية زمانية ومكانية عامة إلى أن تقوم الساعة، وهي تسوية أمة وأتباع محمد ﷺ إلى يوم القيامة، ومن هنا فادعاء أى شخص من يوم بعثة نبينا محمد ﷺ إلى يومنا هذا وما بعده، بانتسابه إلى اليهودية أو إلى المسيحية، إنما هو ادعاء (باطل باطل باطل) بنص القرآن الكريم: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ .. وعقلاً - أيضاً - بالتسوية الجسمية العامة للملائمة لمنهجية قرآنية عامة، مؤكدة بنصوص قرآنية أيضاً، لذلك فيهوديته اليوم - إسلامه الجزئى - هى موجودة فى منهجه العام القرآنى والملائك لتسويته الجسمية العمومية، إذن فيهود ونصارى هذا الزمن ليست صحيحة، لأنهم من أتباع محمد ﷺ وهم مطالبون بما جاء به محمد ﷺ سنة وكتاباً، ومهما حاولوا أن يتصلوا من ذلك فهم مخطئون، إذ هم لا يخرجون من الدائرة المحمدية، لكون أمة محمد ﷺ، هم إما أمة إجابة، وإما هم أمة دعوة، فمن أجاب من هذه الأمة، فقد اتصف بالصفة المحمدية الكاملة، وإن لم يجب فهو لا يزال فى محيط الصفة العامة لهذه الأمة وهى صفة أمة الدعوة .. ومن هنا وما سبق نجد أن التسوية النوعية، والأبوة الجنسية وما يرتبط بها يشير إليها القرآن الكريم ويجليها فى كثير من آياته العظيمة، منها ما سبق ومنها كقوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾. فآلهما فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿.. الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾^(٣).

(١) سورة الشمس: الآيات ٧ - ١٠.

(٢) سورة الأعلى: الآيات ٢٥ - ٢٣.

(٣) سورة طه: آية ٥٥.

هذه بعض آيات مما سبق الإشارة إليه .. فماذا ورد عنها مما نحن بصددده؟ يقول الإمام الرازى حول الآية الأولى ما نوجز منه: إن حملنا النفس على الجسد، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح.. وإن حملناها على القوة المدبرة، فتسويتها، إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة، والمفكرة، والمذكورة على ما يشهد به علم النفس... فإن قيل لم نكرت النفس؟

قلنا فيه وجهان:

(أ) الوجه الأول: أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس، وهى النفس القدسية النبوية.. وذلك لأن كل كثرة فلا بد فيها واحد يكون هو الرئيس.. فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان.. والحيوان جنس تحته أنواع: ورئيسها الإنسان.. والإنسان: أنواع وأصناف: ورئيسه النبى: والأنبياء كانوا كثيرين، فلا بد أن يكون هناك واحد يكون الرئيس المطلق.. فقلوه تعالى: ﴿ونفس﴾ إشارة إلى تلك النفس التى هى رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات..

(ب) الوجه الثانى: أن يريد كل نفس.. ويكون المراد من التذكير، التكثر على الوجه المذكور فى قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾، وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله على ما قال بعد ذكر الحيوانات: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.. ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرهما بالفضل المقوم لماهيته، والخواص اللازمة لذلك الفضل، فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض.. مثلاً.. فضلاً عن التوغل فى بحار أسرار الله سبحانه وتعالى...^(١).

هذا تلخيص ما جاء عن الشيخ الرازى حول آية الشمس، وإن كان له بقية قد نعود إليها إذا رأينا أن الأمر يحتاج إلى إيرادها - بإذن الله تعالى - وترى فى هذا الملخص أن جل حديث الرازى حول كلمتين فقط، وهما - سوى - نفس - ومثل ما قال الشيخ الرازى، قال مثله - تقريباً - جل المفسرين، فهذا مثلاً الشيخ القرطبى، وجماع - رواية -

(١) تفسير الرازى: ٣١/١٩١ .

ودراية.. قال: (.وقيل: المعنى تسويتها.. وقيل المعنى، ومن سواها، هو الله تعالى - سبحانه - .. وفى النفس قولان: أحدهما: هو آدم - والثاني: كل نفس منقوسة.. وسوى بمعنى: هيا.. قال مجاهد: (سواها): سوى خلقها.. وعدلها..^(١) .

هذا بعض ما قيل، ونلاحظ أن مجمل ما قيل لا يخرج عما قلناه، بل قد يؤكد - بحمد الله تعالى وتوفيقه - ويوضحه ويفصله تفصيلاً أوضح مما سبق.. فهذا الرازى تراه يؤكد على أن التسوية الجسدية تتم على حقائق سابقة ولاحقة، فهناك، أولاً: التسوية النفسية (الروحية) وهى الخاصة بالإنسان الفرد، وهذه التسوية تكون بتسوية القوى المدبرة للنفس، كالسمع والبصر والمخيلة والمفكرة، والتى على ضوء تسويتها تتم التسوية الجسدية الخاصة بكل قوة من هذه القوى: (تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح..). وهذه التسوية الجسدية والروحية الفردية تتم بناء على تسوية النفس المختارة والمصطفاة من بين مجموعة النفوس التى ستكون - بإذن الله تعالى وأمره - لزمن ومكان محددين، كما رأينا ذلك فى الزمن الذى بين نبي الله إسحاق - عليه الصلاة والسلام - إلى بداية زمن نبينا محمد ﷺ إلى قيام الساعة - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ولذلك رأينا يقول : (.. أن يراد بالتكثير نفساً خاصة من بين النفوس وهى النفس النبوية.. وذلك لأن كل كثرة.. فلا بد فيها واحد يكون هو الرئيس... والإنسان أنواع وأصناف: ورئيسها النبى... والأنبياء كانوا كثيرين، فلا بد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق لعالم المركبات رئاسة بالذات...).

إذن فهناك نفس ترأس عالم المركبات جميعه رئاسة عامة مطلقة، ولا يبعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن يكون ذلك هو آدم عليه الصلاة والسلام - بدليل أن الشيخ ابن عريى - رحمه الله تعالى - قال حول قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة...﴾^(٢)... قال: «... وهى النفس الناطقة الكلية، التى هى قلب العالم، وهو آدم الحقيقى...»^(٣).

(١) القرطبي: ٢٠/٧٥.

(٢) سورة النساء: آية ١.

(٣) تفسير ابن عريى: ٤٧ - ١/٤٨.

إذن فآدم - عليه الصلاة والسلام - هو النفس الكلية، والرئيسة الحقيقية لجميع هذا العالم المركب.. ومن كلام الرازي السابق، وكلام ابن عربي، : يتضح لنا أن من تلك النفس العامة تخرج أنفس فيها عمومية خصوصية، أى أن خصوصية عموميتها تأتيتها من الناحية الزمنية، إذن فكل زمان عام نفس عامة تكون رئيسة لهذا الزمن العام، وتكون تسوية ذرات جيل هذا الزمن تبع لتسوية تلك النفس الرئيسة لهذا الزمن، سواء كان ذلك تسوية عضوية - جسدية - أو تسوية روحية - أى تسوية القوى المحركة لتلك التسوية الجسدية - كما سبق الإشارة إليه فى كلام الرازي - قوله:.. (... ولكل نفس مخصصة متميزة عن سائرهما بالفضل المقوم لماهيتها والخواص اللازمة لذلك الفضل، فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص البق والبعوض، فضلا عن التوغل فى أسرار الله سبحانه وتعالى..). ومن هنا ندرك بعض إشارات ذلك الخبر المروى عن الرسول ﷺ - بما معناه - (يجعل الله تعالى - بعد كل قرن مجددا يجدد لجيل هذا القرن) أى يجدد لها ما بعدت عنه من خواصها وخواص زمنها ومكانها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - .. وهنا - أيضاً - ندرك بعضا مما أشار إليه تعالى : ﴿سبح اسم ربك الأعلى. الذى خلق فسوى: والذى قدر فهدى﴾. وقوله تعالى: ﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾.. يقول المفسرون حول إشارات هذه الآيات من سورة الأعلى - وسورة طه، ما منه نوجز الآتى:

١ - (اعلم أن موسى عليه الصلاة والسلام، استدل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله: ﴿ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾، وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾. وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى فهو يهدين﴾^(١).. وذلك لنعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية، هى الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، جميعا.

٢ - كما سبق فى الآيات الآتفة الذكر - وذلك لأن الاستدلال بهذه الطريقة فيه

(١) الرازى: ٣١/١٣٩/١٢٨.

الكثير من العجائب والغرائب، ومشاهدة الإنسان لها، وإطلاعها عليها أتم، فلا جرم كانت أقوى في الدلائل.

٣ . واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق: عبارة عن تركيب القوالب والأبدان... والهداية: عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأجسام.. وعلى التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾.. فالتسوية راجعة إلى القالب ونفخ الروح إشارة (إلى إبداع القوى^(١)).. ولذلك فقله ﴿خلق فسوى﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة. ويحتمل أن يريد به الحيوان، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه.. فمن حمله على الإنسان، ذكر للتسوية وجوهاً أحدها: أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقه حسنة، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾. وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه فقال تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

وثانيها: أن كل حيوان مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط وغير مستعد لساائر الأعمال.. أما الإنسان، فإنه خلق بحيث أنه يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة، فالتسوية إشارة إلى هذا.

ثالثها: أنه هيا للتكليف والقيام بأداء العبادات... إلخ. أما قوله: (فهدي) فالمراد أن كل مزاج فإنه مستعد لقوة خاصة، وكل قوة، فإنها لاتصلح إلا لفصل معين، فالتسوية والتقدير: عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله، تستعد لقبول تلك القوى.. وقوله: (فهدي) عبارة - أيضاً - عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرا لفعل معين، ويحصل من مجموعتها تمام المصلحة.

وكل هذه الحقائق المشار إليها آنفاً وما سبقها من إشارات تصل وتقرب من إشارة قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾^(٢). نصل إلى حقيقة أن تلك

(١) الرازي: ٦٤ - ٦٥/٢٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٢ - ٣٤.

النفس الرئيسة - المطلقة عند بعض المفسرين - والكلية عند ابن عربى - رحمهم الله تعالى - هى آدم - عليه الصلاة والسلام - بدليل هذه الآية وغيرها كثير... ورئاسة آدم - عليه الصلاة والسلام - كما يتضح مما سبق، أنها رئاسة كانت تحمل صفتين: الأولى: العمومية المطلقة - الجميع فيها عنها خرجوا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

والثانية: أنها تحمل صفة الخصوصية الزمنية محددة بعد الإهباط، إلى جانب عموميتها.. وهاتان الصفتان، هى - أيضا منقولة إلى نفس أخرى موجودة فى آدم - عليه الصلاة والسلام نفسه - سوف تخرج منه ليخرج منها أمة مخصوصة لزمنية مخصوصة محدودة، إلى جانب الصفة العمومية، والتي ستعطيها أيضا لنفس أخرى بها ما فى سابقتها، وهكذا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .. إذن فآدم عليه الصلاة والسلام - هو أب لجميع البشر، ولكن، الأزمنة والأمكنة مختلفة ولكل زمان ومكان وبيئة أمة ذات صفات وخصائص مخصوصة، ثلاثم منهجها الذى سويت ومنهجت عليه عند خلقها وتعليمها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - والذى سوف تدعى إليه - منهجياً - بأمر الله تعالى على يد نبيها ورئيسها - والله تعالى أعلم... فآدم سلم نفس المهمة التي كانت معه إلى نفس أخرى رئيسة خرجت منه تحمل ما كان فى آدم عليه الصلاة والسلام من عمومية وخصوصية أخرى لمن بعده، وهذه النفس الرئيسة الثانية، هو نبي الله نوح - عليه الصلاة والسلام -، والذى هو بدوره هو أيضا، قام بتسليم المهمة إلى النفس الرئيسة بعده وهو نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو أيضا سلم ذلك إلى من بعده وهكذا، كما أشارت الآية الكريمة، لنجد فى الآية التالية لها ما يؤكد ذلك، وحقائق أخرى ستأتى بمشيئة الله تعالى - وهى قوله تعالى: ﴿ذرية بعضها من بعض﴾^(١).. ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾^(٢).. وقوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾^(٣).. وما سبق بفضل الله تعالى ورحمته وحمده.

(١) سورة آل عمران آية «٢٤».

(٢) سورة الإسراء: آية «٢».

(٣) سورة الصافات: آية «٧٧».

ولذلك نجد بعضا من أهل التفسير والفكر الإسلامى يشيرون إلى بعض من أمر هذه التسوية وخصوصيتها ورياستها .. فمع شئ من إشارات أهل النقل:

التسوية والاصطفاء بين النقل والعقل:

أولا: مع شئ من النقل:

يقول الإمام القرطبى - رحمه الله تعالى - حول آية الاصطفاء: (.. يقال: اختار الله سبحانه وتعالى: آدم عليه الصلاة والسلام - بأشياء، أولها أنه خلقه بيديه فى أحسن صورة..

الثانى: أنه علمه الأسماء كلها.

الثالث: أمر الملائكة بأن يسجدوا له.

الرابع: أسكنه الجنة.

الخامس: جعله أبا البشر.

واختار نوح - عليه السلام - بأشياء: أولها: جعله أبا البشر لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته (هم الباقون) .. الثانى: أطال عمره وحسن عمله ... الثالث: استجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين .. والرابع: أنه حمّله فى السفينة.

واختار إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأشياء:

أولها: أنه جعله أبا الأنبياء - يعنى البشر جميعا من ذريتهم سيخرجون لأنه روى أنه أخرج من صلبه ألف نبي فى زمانه إلى زمن محمد ﷺ.

والثانى: أنه اتخذ خليلا.

الثالث: أنه نجاه من النار.

الرابع: أنه جعله إماما للناس.

الخامس: أنه ابتلاه بالكلمات فوفقه حتى أتمهن .. ثم قال : ﴿ وآل عمران ﴾ .. فإذا كان عمران أبا موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - فإنما اختارهما على

العالمين حيث بعث على قومه المن والسلوى، وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء فى العالم.. وإن كان أبا مريم ، فإنه اصطفى له مريم بولادة عيسى عليه الصلاة والسلام، بغير أب، ولم يكن ذلك لأحد فى العالم^(١). وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: (.. نوح.. هو آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته، على قول قتادة وغيره حسب ما تقدم فى التنزيل: (وجعلنا ذريته هم الباقين)(٢).

هذا بعض ما قاله أهل النقل.. ولنرى الآن . أيضاً بعضاً . مما قاله بعض علماء الفكر الإسلامى السابقين، حول الآية السابقة نفسها . الاصطفاء . وربما قد يكون فيه . المنقول عنهم . بعض التوضيح والتفسير لما قاله أهل النقل السابق.. وإن احتجنا لتوضيح بعض النقاط منه حاولنا بمقدار ما يوفقنا إليه رب العزة والجلال . سبحانه . فماذا قالوا؟

مع بعض علماء الفكر الإسلامى حول آية الاصطفاء:

قال الإمام الرازى فى تفسيره الكبير . نوجز منه ما نوفق له بإذن الله تعالى، قال: . ذكر الحليمى فى كتاب المنهاج: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لابد أن يكونوا مخالفين لغيرهم فى القوى:

١. الجسمانية.

ب. القوى الروحانية.

(أ) أما القوى الجسمانية، فهى إما مدركة.. وإما محركة: ١. القوى المدركة: فهى إما الحواس الظاهرة، وإما الحواس الباطنة.

الظاهرة: هى خمس :

١ . (القوة الباصرة) ولقد كان رسول الله ﷺ، مخصوصا بكمال هذه ويدل عليه وجهان: الأول: قوله ﷺ: (زويت بى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها...).

(١) القرطبى: ٦٣ . ٤/٦٤.

(٢) القرطبى: ٩/٤٨.

والثانى: قوله ﷺ: (أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهري).. ونظير هذه القوة، ما حصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو قوله تعالى: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات...) وذكروا فى تفسيره أنه تعالى: قوى بصره حتى شاهد جميع الملكوت الأعلى والأسفل.. قال الحليمي: وهذا غير مستبعد، لأن البصراء يتفاوتون، فروى عن زرقاء اليمامة، أنها كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام فلايبعد أن يكون بصر النبي ﷺ أقوى من بصرها.

ويدل عليه وجهان: أحدهما: قوله ﷺ: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى» فسمع أطيظ.

والثانى: أنه سميع دوماً وذكر أنه هوت صخرة قذفت فى جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن... ونظير هذه القوة لسليمان عليه الصلاة والسلام فى قصة النمل: ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾..، فآله تعالى أسمع سليمان عليه الصلاة والسلام كلام النمل وأوقفه على معناه، وهذا داخل فى باب تقوية الفهم، وكان ذلك حاصلًا لمحمد ﷺ حينما تكلم مع الذئب ومع البعير، ومع الثعبان.. إلخ.

٢ - (تقوية قوة الشم): كما فى حق يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾.. فأحس بها من مسيرة أيام.

٣ - ﴿تقوية قوة الذوق﴾: كما فى حق رسولنا ﷺ حين قال: إن هذا الذراع يخبرنى أنه مسموم)..

٤ - (تقوية القوة اللامسة): كما فى حق الخليل عليه الصلاة والسلام حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً.

أما الحواس الباطنة: فمنها قوة الحفظ، قال الله تعالى: (سنقرئك فلا تنسى).. ومنها قوة الذكاء، قال على رضى الله تعالى عنه وأرضاه: (علمنى رسول الله ﷺ ألف باب من العلم، وأستببط من كل باب ألف باب).

فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال النبي ﷺ ؟

ب. القوى المحركة:

(أما القوة الروحانية العقلية، فلا بد أن تكون في غاية الكمال والصفاء.. واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية، مخالفة بماهيتها لسائر النفوس ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء، والفطنة.. والحرية.. والاستعلاء.. والترفع عن الجسمانيات والشهوات.. فإذا كانت الروح في غاية الصفاء، والشرف، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال، لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح، واصلة إلى البدن، وممتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء... وإذا عرفت هذا فقلوه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ معناه: أن الله تعالى اصطفى آدم، إما من سكان العالم السفلى على قول من يقول: إن الملك أفضل من البشر.. أو من سكان العالم العلوى على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات..

ثم وضع كمال القوة الروحية في شعبة معينة من أولاد آدم عليه الصلاة والسلام.. وهم: شيث وأولاده إلى إدريس. ثم إلى نوح - عليه الصلاة والسلام. (ج) ثم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.. ثم حصل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام شعبتان هما:

(أ) إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

(ب) إسحاق عليه الصلاة والسلام.

فجعل من إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد ﷺ.. وجعل إسحق عليه الصلاة والسلام مبدأ لشعبتين:

(أ) يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(ب) عيصو عليه الصلاة والسلام.

(أ) فجعل النبوة في نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام.

(ب) ووضع الملك في نسل عيصو عليه الصلاة والسلام. واستمر إلى زمان

محمد ﷺ .. فلما ظهر محمد ﷺ، نقل نور النبوة ونور الملك إلى محمد ﷺ .. وبقياً -
أعنى - الدين والملك - لأتباعه إلى يوم القيامة^(١).

مع قضايا التسوية وأشباه البشر:

هذا بعض مما ورد حول آية الاصطفاء السابق، وفي كل ما ورد من قوله ومعقوله ترى أن الإنسان قد خلق مسوى على شكل وهيئة وسمة وصفة معينة منذ مبدئه، وأنه لم يكن في يوم من الأيام ناقصاً أو زائداً، وأنه لم يؤخذ منه في الأرض شيء أو يزداد، وأنه لم يكن - أيضاً - حيواناً، قرداً أو شمبانزى وترقى وتطور ليصير إنساناً، بل هو إنسان من بداية خلقته، وإن جمعت فيه الإنسانية والحيوانية - كما سبق - في التسوية العمومية المادية - ولكنه مع ذلك، هو سيد جميع الحيوانات، بل وخلقت لأجله، وله سخرت، كما دل على ذلك القرآن والسنة والعقل - كما سبق في بحثنا هذا من بدايته إلى نهايته بمشيئة الله تعالى.

.. وأظن أننا قد فصلنا هذه الناحية تفصيلاً كثيراً، فليرجع له - وما قد يظنه البعض أو قد يشتبه عليه ممن لا صلة لهم بكتاب ولا سنة، ويقول ما يقول كدارون وغيره .. أقول ما قد يظنه من تطور أو رقى، إنما هو حاصل من قبل التسوية الخاصة بزمانها ومكانها كما سبق تفصيله، ألم يمر علينا أن لكل زمن تسوية جسدية وهيئة روحية، تسوية تتبع تسوية نفس رئيسها أو نبيها، وهذه التسوية الجسدية، أظنها هي التي التبس أمرها على أولئك البعيدين عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما جاء عن تلاميذه ﷺ ومن هنا جاءت حكايات قرد الصين وقرد جاوه وغيره.

ولقد رأينا أن الإنسان أنزل بشراً سوياً كاملاً، والحيوان أنزل كاملاً سوياً .. ألم يقل الخالق للإنسان - عز من قائل: ﴿اهبطوا منها جميعاً﴾^(١). (اهبطوا) هكذا

(١) تفسير الرازي: ٢٠ - ٨/٢٢.

(٢) سورة البقرة: آية «٣٨».

بخطاب لمخاطب يعى ويفهم ما يخاطب به... إذن فهو مخلوق - وهو هناك - كامل لا يحتاج إلى ارتقاء أو تطور من حيوان تحكمه غرائزه فقط إلى إنسان ميز وفضل بعقل وقوى روحية خاصة - كما مربنا بحمد الله وتوفيقه - تفرقه عن درجة الحيوانات، والتي هي أيضاً - أنزلت كاملة الخلقة، ولا ترقى إلى غير درجتها.. أفلم يقل الحق - جل سناء - عنها: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾^(١).. وقال جل سناء عن هذه الثمانية الأزواج في سورة أخرى: ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾^(٢).

إذن فالإنسان أهبط من السماء كاملاً في تسويته وخلقه وكذلك الحيوان، ونرى أن القرآن الكريم حينما أراد أن يعبر عن نزول الإنسان إلى الأرض لم يستعمل لفظ أنزل بل استعمل لفظ (هبط) بعكس تعبيره عن الحيوان، فقد استعمل معه لفظ (نزل) واللفظان مأخوذان من مادتين مختلفتين صياغة ومادة، وإذا كانا هما مختلفين صياغة ومادة فلا بد أن يختلف المقصود الدلالي لإشارتهما، وإن أدى أحياؤهما ظلال الإنزال، وسوف تأتي الإشارة عن موضوع الإهباط وما الذى قد يوحي به - بمشيئة الله تعالى في مكانه... إذن فما يقال وما يتردد عن موضوع أشباه البشر، ما هو إلا تخرصات وتهجسات ما أنزل الله بها من سلطان، لأن من خلق يقول: ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾^(٣). إذن فالقرء أنزل من السماء قرداً ولن يكون في يوم من الأيام إنساناً، ولن يكون الإنسان قرداً إلا إذا أراد الخالق سبحانه ذلك فإنه سوف يكون وقد حصل - وسوف يأتي الحديث عن ذلك بمشيئة الله تعالى.. وما يستدلون به من حجج لمحاولة إثبات تخرصاتهم فكلها لا تثبت عند التمهيص.

فمثلاً ما يقولونه حول حصول تطورات وارتقاء في الجمجمة والمخ - والدماغ - وانتصاب القامة بعد أن كانت منحنية وما إلى ذلك فقد رأينا أن في موضوع التسوية

(١) سورة الزمر: آية «٦».

(٢) سورة الأنعام: آية «١٤٢ - ١٤٤».

(٣) سورة الكهف: آية «٥٠».

وما قيل حولها فيه رد على ما زعموه فى ذلك، فإن كان هناك وجود مفارقات فى الخلق الإنسانى الموجود فى الأرض وجدت فى بعض الحفريات، فذلك يعود إلى موضوع التسوية الخصوصية الجسدية المرتبطة بالتسوية المنهجية الخصوصية المرتبطة بتبعيتها لنفسها الرئيسة (نبيها) التى تتبعها فى زمانها ومكانها، كما سبق الحديث عنها مفصلاً.. أما موضوع أن تلك المفارقات لربما أنه يعود لوجود أوادم كثر كانوا موجودين على الأرض قبل آدم الذى نحن نعود إليه، وقد اختير هو من بينهم، وبعد آدمنا متطورا بالنسبة للأوادم الذين اصطفى واختير من بينهم إلى آخر ما يقولونه وتراهم يستدلون بأية الاصطفاء السابقة.. أما استدلالهم بأية الاصطفاء على ما يريدون إثباته، فقد وهموا فى ذلك، إنهم يجهلون معانى القرآن الكريم ودلالاته وإشاراته، فكيف يفهمون آياته، فقد رأينا بعضاً مما قاله علماء التفسير وأورده عنها، ولم نجد فيه أى إشارة قد تشير أو توحى بما قصده هؤلاء المتخرسون، إذ هم بعيدون كل البعد.. وإن أردنا أن نقف عند قولهم (اختير) فإننا نراهم قد صدقوا لفظاً وكذبوا معنى، فأدم اختير، هذه حقيقة لامراء فيها، ولكن ممن اختير؟ ولم اختير؟ وأين كان الاختيار؟ وهل كان لهذه التسمية قبل آدم وجود؟ ولم سمى؟ وهكذا.

فأدم اختير، هذا نعم، ولكننا رأينا أنه اختير من بين أناس كانوا مثله، وكانوا جميعاً معاً، وإن ذلك الاختيار كان هناك فى السماوات العلى، عندما كان الجميع فى حالة نورانية - كما رأينا - وقد اختير من بين جميع الجنس الإنسانى الذين هم مثله تماماً قبل الأدمية، وكانوا معه، اختير من بينهم ليخلق خلقاً مادياً وليخلق الجميع من خلاله - أيضاً - خلقاً مادياً مثله، إذن فالجميع قبل اختيار آدم وخلق هذا الخلق وإدخالهم فيه لم يكونوا يتسموا باسم الأدمية، لكون الجميع، اتسموا بالأدمية، لخروجهم واستساخهم من خلاله هو ذو الأدمية لخلقه من ذرتها (الترابية).

إذن فقبل أن يتسمى آدمنا بهذه التسمية لم يكن هناك أى مخلوق قد تسمى بهذه التسمية إلا بعد خروجه من آدم المادى الطينى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد رأينا أن الاختيار كان قد حصل فى العالم

العلوى - فى السماوات العلى - ولم يكن حصوله فى العالم الأرضى.. إذن فآدم هو واحد ولم يكن هنالك أودم غيره قبل خلقه ترابيا، ولأنا قد أعلمنا وأخبرنا خالقنا الحق - جلت عزته وقدرته - أنه لم يكن هناك فى الأرض أودم قبل آدمنا، حتى (اهبط) من الجنة إلى الأرض آدمنا بدليل آيات القرآن الكريم التى أشارت إلى ذلك كما فى سورة البقرة والأعراف وطه، وكنا جميعاً مدخلين فيه كما سبق وما سيأتى - بمشيئة الله تعالى وإذنه - ولذلك جاء خطاب أمر الإهباط بصيغة الجمع (قلنا اهبطوا منها جميعاً).. وإن كان قد ورد أيضاً، الخطاب بصيغة التثنية والإفراد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين.

إذن فأول حجة لهم عند عرضها عرضاً سريعاً على دلالات وإشارات ما استشهدوا به من آى القرآن الكريم وأحاديث رسوله الكريم ﷺ لم تثبت. فماذا قالوا فى حجتهم الثانية ولو إيجازاً.

مع الحجة الثانية وأصحاب أشباه البشر

أما حجتهم الثانية فإنهم يقولون تحت عنوان دلالات التشابه بين الإنسان والحيوانات الراقية، ما نوجز منه: (... إن تصنيف الحيوانات والنباتات وتقسيمها إلى مجموعات وفصائل ورتب من المبادئ العلمية الهامة لتسهيل الوصف والدراسة، ورصد العلاقة بين أفراد المجموعات المختلفة، وبذلك تسهل معرفة نشأتها وتتبع تاريخها. ويعتبر العمود الفقارى أساساً جوهرياً فى تصنيف المملكة الحيوانية، فهناك حيوانات فقارية تتمتع بعمود فقارى مثل: الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور، والثدييات، والإنسان، وهناك حيوانات لافقارية.. وقد أدرج الإنسان مع القرود والقردة العليا فى رتبة عضوية واحدة تتميز بصفات متقاربة وسمات متشابهة، وأطلق على هذه الرتبة (الرئيسيات) لوجودها على رأس قائمة رتب الثدييات جميعاً، بل رتب المخلوقات كلها لما تميزت به من ارتقاء المخ واكتساب القدرة - بنسب متفاوتة - على التعلم والمحاكاة^(١).

(١) التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامى لمحمد فوزى جاب الله ص ٩٤.

هذا هو مختصر ما أشاروا به فى حجّتهم الثانية، وهى من حجج علماء الأحياء، الذين يجعلون الإنسان حيواناً، ثم تطوّر وارتقى إلى ما وصل إليه.. هذه الحجة القائلة بحيونة الإنسان ثم تشخيصه ووضعته فى رتبة مع صنف معين من أصناف الحيوانات، سموها بالرئيسيات، ليصلوا بعد ذلك لما أرادوا من جعل الإنسان حيواناً فردياً.

وفى الرد على هذه الحجة بداية أقول لو أن القائلين بها - ولو كانوا من العرب - رجعوا لكتاب الله العزيز وما ورد عنه من تفسيرات وأقوال رسول الله ﷺ وتابعين من أصحاب وتابعين لهم، إضافة إلى ما وصلوا إليه من رقى علمى عالٍ لكانت بحوثهم فى هذا الجانب وغيره - بإذن الله تعالى - لها شأن وأى شأن، ولكن لله حكمته.. وحتى لانطيل.. نرى أن مجمل ما قالوه، خصوصاً قضية الرئيسيات وقضية حيونة الإنسان وشطوح مقالاتهم فيها، ترى أن علماء الإسلام من مفسرى القرآن الكريم، وشراح أحاديث الرسول الكريم ﷺ، قد تحدثوا فى هذه القضايا ولكن من خلال منظورهم القرآنى وتصوراتهم المنبثقة من خلال ما جاء به دينهم الإسلامى الحنيف، فهذا الشيخ ابن عربى وقد رأيناه يشير إلى الجانب الحيوانى فى الإنسان عند تسويته الجسدية عند خلق الجرم الأدمى الذى سيوضع فيه جميع الجنس الإنسانى كما رأينا ذلك كما سبق فيما أوردناه لابن عربى عندما أشار لقضية الخلق والخلق الترابى، وكيفية أن ذلك كان من مبدأ التسوية، وأنه على ذلك وجد من البداية، ولم يكن هناك ارتقاء من حيوان إلى إنسان فى الأرض، بل نزل إنساناً كاملاً.. ولايضيق أخى القارىء بإعادة هذا الجزء السابق وروده.. لكن المقام يتطلبه، وليعلم مثل هؤلاء المتخرصين، أن ما يقولونه إنما هو أمر غيبى، يستفتى فيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأهل الذكر الإسلامى، (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون).

يقول الشيخ ابن عربى: (ولما استوت المملكة وتهيأت، وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها أى جنس يكون هذا الخليفة الذى مهد الله تعالى هذه المملكة لوجوده، فلما وصل الوقت المعين فى علمه لإيجاد هذا الخليفة الذى مهد الله تعالى هذه المملكة لوجوده، أمر الله تعالى بعض ملائكته، أن يأتية بقبضة من كل أجناس تربة

الأرض، فأتاه بها بعض من ملائكته) فأخذها سبحانه - وخمرها بيديه - فهذا قوله تعالى: (لما خلقت بيدي).

وقد كان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكروا .. وديعة لآدم وقال لهم: (إني خالقُ بشرٍ من طين).. وهذه الودائع التي بأيديكم هي له: (فإذا خلقتهم) فليؤد كل واحد منكم ما عنده مما ائتمنتكم عليه: (ثم سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). فلما خمر الحق - تعالى - بيديه طينة آدم حتى تغير ريحها - وهو المسنون - وذلك هو الجزء الهوائي في النشأة، وجعل ظهره محلاً للأشقياء والسعداء من ذريته، فأودع فيه ما كان في قبضته، فإنه - سبحانه وتعالى - أخبرنا أن في قبضة يمينه السعداء ، وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء، وكلتا يدي ربي يمين مباركة، وقال هؤلاء للجنة... إلخ.

وأودع الله تعالى - الكل طينة آدم، وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة، وأنشأه على الحركة - وصوره سبحانه وعدله وسواه، ثم نفخ فيه من روحه المضاف إليه - فحدث عند هذا النفخ فيه بسرياته في أجزائه أركان الأخلاط... ثم أحدث الحق فيه القوة الجاذبية التي بها يجذب الحيوان الأغذية، ثم القوة الماسكة.

ثم أحدث الحق فيه القوة الغذائية، والمنمية، والحسية، والخيالية، والوهمية، والحافظة، والذاكرة.

وهذا كله في الإنسان وهو حيوان لا بما هو إنسان فقط، غير أن هذه القوى الأربعة الخيال والوهم والحفظ والذاكرة، هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان.

ثم خص الله تعالى آدم - الذي هو الإنسان - بالقوة المصورة، والمفكرة والعاقلة، فتميز بها الإنسان عن الحيوان وجعل الحق هذه القوى كلها في هذا الجسم، آلات للنفس الناطقة لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية (ثم أنشأناه خلقاً آخر).. وهو طور الإنسانية، فجعله الحق إدراكاً حياً بهذه، عالماً ، قادراً، ومريداً، متكلماً، سميعاً، بصيراً على حد اكتسابه: (فتبارك الله أحسن الخالقين)^(١).

(١) الفتوحات المكية: ٢٤٣ - ٢٤٧/٢.

هذا مختصر مما سبق إيراده لابن عربى حول التسوية الجسدية، ومن خلاله تلاحظ أن نشأة الجسد الطينى الآدمى - المادى - لخلق الصورة الدنيوية لآدم - عليه الصلاة والسلام - وتسوية هذا الجسد، هو تسوية مشتركة لكل كائن توجد فيه صفات الحياة، ولذلك تلاحظ أن هذا العالم حينما تكلم عن نشأة هذا الجسد وتسويته استرسل فى حديثه إلى أن قال: (.. وهذا كله فى الإنسان وهو حيوان، لا بما هو إنسان فقط..) وذلك، لأن الإنسان والحيوان يشتركان فى أن كلا منهما له جسد، وفى كل جسد منهما ما فى الآخر من قوى جاذبية وغاذية، وغيرها من قلب وكبد وأمعاء ومخ وأعصاب وشرابين وقوى حسية وخيالية ووهمية، وحافظة وذاكرة، غير أن القوى الأخيرة - كما يقول - هى فى الجسد المختص بالإنسان أقوى منها فى الجسد المختص بالحيوان.. إذن فالصفة العمومية للبنية الجسدية وآلات قواه المحركة له تكاد تكون مشتركة، غير أن البنية الإنسانية أنشئت من بدايتها نشأة مستقيمة، ومسواة معدلة، لأن هكذا كانت بيئتها، وكذلك نجد فى بعض القوى الروحانية أن صفة الاشتراك موجودة كالقوى الحسية والحافظة والذاكرة والخيال والوهم، لكن وجودها فى الإنسان تجده أقوى، إذن فالقرد، والقردة العليا، تحس وكل الحيوانات كذلك، لكن إحساس الإنسان يختلف، لأنه إحساس يمد به بسنده إدراك الحيوان - وخصوصا القردة - يحفظ ويتذكر ويتخيل، لكن حفظ الإنسان وتخيله مبنى على تصور وتفكر، وعقل وتدبر يميز به بين البدائل، ومن هنا فالحيوان يحفظ، لكن حفظه وتذكره ترديد وتقليد، إذن فله دماغ ومخ، لكنه محدود البنية والمهمة، وسيبقى هكذا إلى أن يموت كل جنسه ويرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ولن يرقى فى يوم من الأيام أو يتطور ليكون إنسانا، لأن الحق جل سنا، أنشأ الإنسان من البداية داركا عالماً، متكلماً: (فتبارك الله أحسن الخالقين).

دارون وابن عربى:

الحقيقة التى تبدو لمن يقرأ ما أورده الشيخ ابن عربى - رحمه الله تعالى - قد لا تخلو من بعدين، يمكن أن يخرج بها هذا القارئ، وهذان البعدان لا يمكن أن يتحدد

منهما أى بعد إلا من خلال القارئ نفسه، فإن كان هذا القارئ دارساً لكتاب الله تعالى، وأحاديث رسوله الكريم ﷺ، وعالمًا - أو حتى عارفاً - بالثقافة الإسلامية، استطاع أن يعرف - ولو أكثرها - مقاصد دلالات هذا الشيخ - ابن عربى - الإسلامية ، والتي لاتخرج - فى أكثرها - عن دلالات الثقافة الإسلامية ومعانيها .. وكذلك العكس.. والذي يبدو أن ما قاله ابن عربى الآنف الذكر لا يبعد كما أراه أن يكون الشريحة الأساسية الأولى التى يبنى عليها دارون نظريته المنتشرة فى أكثر الأوساط العلمية وهى نظرية النشوء والارتقاء.. ولا نستغرب فابن عربى رجل علم مشهور ومعروف لدى العلماء الغربيين معرفة كبيرة ولاسيما الأوساط العلمية حتى أنهم يطلقون عليه شيخ العلماء، وذلك أن ابن عربى - رحمه الله - رأينا أنه يقول وبصراحة فى نصه السابق وهذا كله فى الإنسان بما هو حيوان لاسيما هو إنسان فقط.. إلخ. وعند التأمل فى كلام ابن عربى السابق ترى أن مقصده يظهر ويتضح بدون أى غموض ولكن بشرط أن تربطه بأوله وآخره، عندها ترى دلالات معانيه هى غير ما رمى إليه أهل العلوم المادية فقط، فأنت ترى أنه يبدأ حديثه، بأن الذى خلق وسوى هذا الإنسان هو الله سبحانه وتعالى .. وإذا كان الذى خلق هذا الإنسان، يقول: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.. والخليفة - بداهة - لا يكون إلا عالما، عاقلا مفكرا، إلخ.. وليس هذا فقط، بل الذى خلق هذا الإنسان يقول: ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾.. ويختم حديثه بكلام الذى خلق هذا الإنسان، وقال عنه أيضا: ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.. إذن فالعيب ليس فى ابن عربى ، بل فيمن لم يفهم كلام ابن عربى ولا مدلولات معانيه، ولعدم فهم كلام هذا العالم - ابن عربى - وجدنا أن جل ما بنى عليه كان خاطئا، وهذا أمر طبيعى، لأن ما بنى على فاسد لابد أن يكون فاسداً وبشهادة أبناء قومه من العلماء الغربيين. ولكننا إذا رجعنا إلى عالم كان ينهل من نفس النبع الذى كان ينهل منه ابن عربى، فإننا لانجد فى كلامه الذى بنى مفاهيمه على مثل ما ورد عن ابن عربى وغيره أى خلل أو فساد، بل سنجد كما فسر لنا الشيخ الرازى، حينما فسر إشارات هذه التسوية الإنسانية، والحيوانية، وبعض ما ظنه علماء الأحياء من مفارقات فى البنية الجسدية الإنسانية

عبر الأزمنة المختلفة، إنها تشهد لهم فيما ادعوه من ارتقاعات وتطورات تتقل منها الحيوان حتى أصبح إنساناً كما فى حجتهم السابقة، حجة عالم الرئسيات وما إلى ذلك، فقد رأيناها يقول - نوجز منه بعضه، لأنه قد سبق: (.. ونفس وما سواها.. إن حملنا النفس على الجسد فتسويتها هو تعديل أعضائها ، على ما يشهد به علم التشريح، وإن حملناها على القوة المدبرة، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة، كالقوة السامعة، والباصرة، والمخيلة، والمفكرة، المذكورة على ما يشهد به علم النفس.. فإن قيل لم نكرت النفس؟ قلنا فيها وجهان: الوجه الأول: أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس، وهى النفس القدسية النبوية، وذلك لأن كل كثرة لابد فيها واحد يكون هو الرئيس.. فالمركبات جميعها جنس تحته أنواع، ورئيسها هو الحيوان.. والحيوان جنس تحته أنواع، ورئيسها هو الإنسان، والإنسان أنواع وأصناف، ورئيسها هو النبى.. والأنبياء كانوا كثيرين، فلا بد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق.. فقله تعالى: ﴿ونفس...﴾ إشارة إلى تلك النفس، التى هى رئيسة لعالم المركبات (رياسة بالذات..).

هذا بعض ما أشار به هذا العالم الإسلامى - الرازى - وفيه تلمح أن الفوارق فى الصنعة المبدعة موجودة منذ بداية الخلقة، فالنفس هى واحدة لجميع جنس الخلق المركب، ومنها وجد الأدنى فالأدنى، والإنسان، هو سيد جميع تلك الأجناس المركبة، وذلك لما أوجده الله تعالى فيه منذ البداية، وقبل الإنزال إلى الأرض، وليس فى الأرض حدث ذلك الرقى والتطور... فإذا كان الحيوان جنساً عاماً، وتحت هذا الجنس أنواع، ورئيس هذه الأنواع جميعها هو الإنسان، فإن الإنسان أيضاً عام وتحت أنواع وأصناف، جميعها ترتبط برئيس عام يتسيدها، وهذا الرئيس هو النبى، والأنبياء هم كثيرون، إذن فلأن تختلف هذه الأصناف بحسب اختلاف سيدها ورئيسها وهو ذلك النبى، واختلاف أنفس رؤساء تلك الأصناف والأنواع، لو سألت كيف حصل، ومن أين جاء، لوجدت أنه جاء من قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ وتسويتها أحدث الاختلاف الحاصل فى ناحيتين لكل نفس من نفوس أولئك الرؤساء.

الجانب الأول: اختلاف الحاصل فى تسوية أجسادها من حيث تعديل أعضاء كل نفس بما يخصها، كما ينهض على ذلك علم التشريح.

والجانب الثانى: الاختلاف الحاصل فى تسوية قواها المدبرة للجسد من سمع وبصر وفكر وعقل وما إلى ذلك.. ومن هنا ندرك أن الاختلافات التى وجدها لاتشير فى حقيقتها إلى ما ظنوه رقىاً وتطوراً حصل للإنسان، وإنما هو يعود إلى أنواع الجنس الحيوانى بعمومه، لا إلى الأنفس الرئيسة وما تفرع منها، وأن الاختلافات الحاصلة فى أصناف الجنس الإنسانى نفسه إنما يعود إلى طبيعة الاختلافات التى حصلت فى أجساد وقوى الأنفس الرؤساء، وذلك نظراً لما أهلت له فى زمانها ومكانها، إذن فلاتطور ولا ارتقاء وإنما هو تسويات عمومية وخصوصية تابعة لأزمة وأمكنة هى مرتبطة بها كما سبق ومن هنا ندرك - أيضاً - الإشارة الأولى عند الشيخ ابن عربى، والتى لم يدركها دارون ومن تابعه من علماء الأحياء وغيرهم، وهى قوله: (فلما خمر الحق - سبحانه وتعالى - طينة آدم حتى تغير ريحها ، وهو المسنون، وذلك هو الجنس الهوائى.. إلخ)، وجعل ظهره محلاً للأشقياء والسعداء من ذريته فأودع ما كان فى قبضتيه... إلخ).

أى أن ظهر النفس الرئيسة المطلقة لجميع الأنفس الرؤساء وما حملته لكل نفس منها، مدخول فيه - أى فى ظهرها - خلق مسوى معدل ملائم لطبيعة مكانه وما يتطلبه زمانه، خلق جاهز يستدعى ويطلب إذا حان وقته وزمانه، فلا يخرج إلا فيه، لأن تسويته، لاتصلح الإله، لا لما قبله من زمان ومكان ولا لما بعده.. إذ قد رأينا أن لكل مرحلة زمنية ومكانية سماتها وصفاتها فى التسوية الخاصة - كما سبق - وهذا ما رمى إليه الشيخ الرازى وأمثاله من العلماء حينما قالوا: (والإنسان أصناف وأنواع ورئيسها النبى والأنبياء كثيرون).

إذن فالإنسان أهبط من الجنة إلى الأرض وهو كامل الأعضاء، وليس كاملاً فى بعض الأعضاء، والبعض الآخر يحتاج لأن يرقى ويتطور، ليتحول من حيوانية إلى الإنسانية كما قالوا.. ويدهى أن يكون الرئيس فيه صفات قد لاتوجد فيمن هو دونه

والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكما أنزل آدم - عليه الصلاة والسلام - هو رئيس الجنس الإنسانى جميعه، وفيه مدخول جميع ذريته الذين سيخرجون منه، كذلك نزل رئيس الجنس الحيوانى الأدنى من آدم وهو على مثل ذلك من الصفات والسمات ليس غير، فالقردة والقردة العليا لاتزال هى القردة، ولن ترقى فى يوم من الأيام لأن تكون إنساناً، ولا يمكن أن تكون إلا أن يشاء الله الخالق، لأنه هو وحده القادر على أن يغير السنن والقوانين، ولكنه سبحانه وتعالى، قد أخبرنا أنه كرم المخلوق الإنسانى ورفع على ما حوله، وميزه بعقل وعلم وفهم منذ أن خلقه وأخبرنا سبحانه - أيضاً - أنه لا يرفع من دونه لمصافه ودرجته، وأخبرنا أيضاً أنه - سبحانه - قادر على أن ينزل العاصى المتمرد الطاغى المنحرف إلى الجنس الذى دونه، وقد حصل كما أخبرنا - سبحانه - أنه قد أنزل عقوبة هذا التغير فى بنى إسرائيل، وأنه - سبحانه وتعالى - قد طبق معهم نفس القانون الذى أوجدت به تسوية النفس الرئيسة العامة - آدم عليه الصلاة والسلام - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - الرئيس الأعلى - وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين. وإذا تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون﴾^(٢).

إذن فالحق الخالق - سبحانه - يعلمنا أنه قد أنزل بفئة من الجنس الإنسانى المنحرف إلى الدرجة الأدنى من الأدنى، لكونه لا يستحق الدرجة والمكانة التى كان عليها، وهى أمة من بنى إسرائيل - اليهود - وعلى هذا - كما نرى - فما جعله أولئك

(١) سورة البقرة: الآيتان ٦٥ - ٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآيات ١٦٦ - ١٦٨.

العلماء - علماء الأحياء وغيرهم - أشباها للبشر، هو من بقايا الفئة المنحرفة المنقرضة، فهم وإن كانوا - كما وجدوهم - قردة، فليسوا هم قردة فى أصلها، وإنما هم أصلاً كانوا بشراً نزل بهم درجة عن بشريتهم، عقوبة لهم على ما كانوا عليه من عصيان وتمرد، فإذا كانوا - العلماء - حقاً قد وجدوها فى حفرياتهم المزعومة، فهم لا يخرجون عن ذلك، وليسوا حلقة فى تطور الجنس الإنسانى الراقى - كما يزعمون - الموجود اليوم، بل هم خلق منتكس عن إنسانيته، ومنقرض وغير متناسل ومقطوع، جعله الحق - سبحانه وتعالى - عبرة لزمانهم ولكل الأزمنة التالية لهم، كما أخبرتنا بذلك آيات القرآن السابقة، وأحاديث رسول الله ﷺ، وبعض ما ورد حول ذلك من إشارات تفسيرية من بعض الصحابة والتابعين - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - ولقد أوردناها سابقاً فى مكانها فليرجع إليها، ولا بأس من أن نشير ببعض ذلك تذكيراً أو ربطاً لمناسبة المكان وطلبه ذلك.

فمن ذلك نوجز بعضاً مما قاله القرطبى حول قوم من بنى إسرائيل لم يمتثلوا لما أمروا به من أكل الحيتان فى يوم السبت فعوقبوا بأن مسخوا قردة وخنازير، يقول: (.. روى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطاً ويضع فيه وهقه^(١) وألقاها فى نب الحوت، وفى الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع لا يبتلى، حتى كثر صيد الحوت ومشى به فى الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده. فقامت فرقة فنّهت وجاهرت بالنهى واعتزلت. ويقال: إن الناهين قالوا: لانسكنكم، فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا، فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحو الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنسان، ولا يعرف الإنسان أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنسان فتشم ثيابه وتبكي، فيقول لم ننهكم، فتقول برأسها نعم - تهزه - قال قتادة: صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

(١) جامع القرطبى، ١/٤٤٠.

وقد اختلف العلماء فى المنسوخ هل ينسل، على قولين:

(أ) قال الزجاج: قال قوم يجوز أن تكون هذه القردة منهم. واختاره القاضى أبو بكر بن العرى .

(ب) وقال الجمهور: المنسوخ لا ينسل، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل، لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه، لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل.. قال ابن عطية: وروى عن النبى ﷺ، وثبت أن المنسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.. قلت: وهو الصحيح من القولين..(١).

هذا بعض مما ورد عن تلك الفئة من البشر المسوخة بسبب عصيانهم لخالقهم، وفيه رأينا أنهم قد تحولوا إلى قردة وخنازير.. وقد سبق أن أوردنا الخلاف الذى دار بين بعض العلماء حول: هل هم فعلاً تحولت صور أجسادهم إلى قردة وخنازير أو لا، وخصوصاً ما قاله الإمام مجاهد رضى الله تعالى عنه، وبما رد الشيخ الرازى فى تفسيره الكبير حول ذلك، وكون ذلك فعلاً قد حصل ما حل بهم من مسخ فى أجسادهم، وفى الكلام الآنفة الذكر ما يؤكد حقيقة تحولهم ذاك، ولربما أن تكون تلك البقايا العظمية التى وجدوها واشتبها على هؤلاء العلماء - علماء الأحياء المعاصرين - أمرها، أن تكون من بقايا أولئك المنسوخين، ولا سيما أنه قد جاء فى الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ، أن أولئك المنسوخين قد تفرقوا وانتشروا فى أرجاء الأرض، كما روى عنه ﷺ: (فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يدري ما فعلت إلخ..)(٢).

.. إذن فقرد جاوة وقرد الصين والقرد الجنوبي المشبوهة، لا يعدو - عندي - أن يكونوا هم البقايا العظمية لهؤلاء المنسوخين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين... وقد يثار سؤال، وقد ثار قديماً.. وهو أن يقال: أنه بعد أن

(١) المرجع السابق.

(٢) جامع القرطبي: ١/٤٤١.

يصار الإنسان قرداً لا يبقى له فهم ولا عقل ولا علم، فلا يعلم ما نزل به منه من العذاب، ومجرد القردية غير مؤلم بدليل أن القردة حال سلامتها غير متألّمة، فمن أين يحصل العذاب بسببه، وقد أجاب الشيخ الرازي عن هذا السؤال وأمثاله بقوله: (ولم لا يجوز أن يقال إن الأمر الذى به يكون الإنسان إنساناً عاقلاً فاهماً، كان باقياً، إلا أنه لما تغيرت الخلقة والصورة لا جرم أنها ما كانت تقدر على النطق والأفعال الإنسانية، إلا أنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب شؤم المعصية وكانت فى نهاية الخوف والخجالة، فربما كانت متألّمة بسبب تغير تلك الأعضاء ولا يلزم من عدم تألم القردة الأصلية بتلك الصورة وعدم تألم الإنسان بتلك الصورة الغريبة العرضية^(١).. إذن فلا يبعد بعد هذا كله أن تكون هذه الحفريات العظمية هم من تلك الأمة الإسرائيلية . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . ولا نستبعد من بنى إسرائيل وعلماهم على وجه الخصوص، أن يوحوا بمثل هذه المغالطات، وأن يجعلوا له دراسات وأصولاً ليلهاوا الناس عما أصاب أجدادهم، وعن أصل حقيقة ما فيهم قد غرس من العتو والفساد والطفيان.. وعلى هذا يبقى الإنسان كما خلقه الله . تعالى . إنساناً والقرد كما خلقه الله . تعالى . قرداً.. أما علماء الأحياء هؤلاء، فتراهم لا يثبتون عند أى نظرة يدعونها، فهم دائماً ما يصدمون بالحقائق التى يكتشفونها ويجدون أنها قد تهدم ما قالوه، تراهم ينحرفون قليلاً قليلاً ليغيروا ما قالوه! ألم يقولوا بإدراج الإنسان مع القردة والقردة العليا فى رتبة واحدة عند تصنيفهم السابق، لكنهم عندما وجدوا أن الإنسان لا يمكن أن يرقى إلى درجته العقلية والإدراكية والذهنية أى مخلوق حيوانى، فروا عما قالوه وبادروا ليقولوا: (.. وقد أثبتت التجارب أن أقصى ما يمكن للشمبانزى البالغ أن يتعلمه لا يتعدى مستوى طفل بشرى عمره أربع سنوات ، بما يدل على أن القدرة الذهنية عند القردة العليا هى قدرة محدودة جداً وعاجزة عن الانطلاق، ولكن تلك الإمكانيات العقلية المتبورة تعتبر متقدمة جداً عند باقى

(١) تفسير الرازي: ١١١ - ١١٢/٣.

الشديدات.. ولو كان تصنيف الحيوانات بناء على القدرات الذهنية فقط لكان الإنسان نسيجاً وحده.. ولكان في رتبة خاصة يتميز بها ولا يشاركه فيها أحد.

ولكن التصنيف السائد حالياً معياره التشابه في الصفات التشريحية والفسولوجية شاملاً مكونات سوائل الجسم، ولهذا وضع الإنسان مع القردة العليا في رتبة واحدة، وهو تصنيف تفضيلي اشتقاقي^(١).

هذا بعض مما قالوه ولو أنا تأملنا قليلاً فيه، فما الذي سيتضح ياترى؟

أفلم يقولوا أن الشمبانزى تقصر قدراتها العقلية عن الإنسان لكونها محدودة مهما رقت وتطورت لأنهم يجهلون حقائق الأديان التي رأينا ما قاله علماءها حول مثل هذه النقطة بالذات وأمثالها أو حتى غيرها، ألم يقولوا: (.. إن قوة الحفظ والخيال والتذكر والوهم، هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان، ذلك لأنهم علموا أن الله تعالى، لما خلق هذا الخلق الحيواني جعله - كما سبق - أصنافاً وأنواعاً، وجعل لكل صنف نفساً عامة ترأسه، وزودها بما تحتاجه هي وصنفها ونوعها الأدنى منها في حياتها، فالشمبانزى نرى مثلاً هو رئيس جنسه، وهو الأدنى من الإنسان وقد يكون يليه في الدرجة، وقد زود من هذه القوى والتي زود منها الإنسان أيضاً، ولكن بقدر محدود لا يتجاوز حاجته، ولا يمكن أن يصل للقدر الإنساني من هذه القوى، ولا يمكن أن يتغير أو يتبدل ذلك كله، لأنه قد وضع هكذا منذ أن سوّى هناك قبل إهباطه - أي الإنسان - أو إنزاله - أي الحيوان - ولهذا كان هذا الإنسان في رتبة لا يشاركه فيها أحد.. وما الإنسان إلا هذه القوى وغيرها الخاصة به، المميّزة له عن غيره، وإلا فجسده جعل لحفظ هذه القوى، والحياة فيه، ما هي إلا لتحريك هذه القوى... فالشمبانزى - مثلاً - في جسده يدان، فهل كل ما في هاتين اليدين من مهمات متساوية مع يدي الإنسان، أظن أن ذلك غير صحيح.. نعم هما - الإنسان والشمبانزى - بهما يأكلان، ولكنها في الإنسان.. وسيلة المخ الإنسانى الذى لا يمكن أن يتساوى مع مخ الشمبانزى وغيره في قدرة الإبداع والعمل والإبداع والتفكير وصنع

(١) التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامي ص ٩٥، ٩٦.

ما لا يستطيعه هذا الشمبانزى.. هى فى الإنسان آلة لخياله وقدراته التى لا يمكن أن يرقى إليها خيال الشمبانزى أو غيره من الحيوانات، وكذلك الأمر فى بقية أعضائه وأجزاء بدنه...).. إذن فالإنسان ليس هذا الجسم، لتضييق مجتمه أو تتسع لتتفق مع هذا الحيوان أو غيره، وإلا تساوى مع غيره من الحيوانات التى خلقت لأجله، وسخرت له، أى لخدمة هذا الجسم والبدن التى هى من جنسه... إذن فما هو الإنسان مناط هذا التكريم، ثم التكليف والمسئولية؟ أو هذا الجسم أو شئ غيره؟ وهذا ما قد يتضح لنا بعضه مما يلى من صفحات بإذن الله تعالى.

الفصل العاشر

نورانية المرحلة الثانية

وقضية التركيب

قلنا - كما سبق - أن كل هذه التسويات جرت عندما كان الإنسان في طبيعة غير الطبيعية التي هو عليها الآن.. وهي طبيعة المكان الذي كان فيه في المبدأ الأعلى، عالم الروحانية، وقد قلنا الكثير - بحمد الله تعالى وتوفيقه - من الصفات والسمات عن بعض طبيعة تلك المرحلة.. وقد يمكن لنا بناء على هذا الكثير أو القليل الذي قلناه يمكن لنا أن نقول عن طبيعة تلك المرحلة - أيضاً - أنها مرحلة الطاقة المجهولة العناصر والعناصر، وإن كان ما نعرفه من أمر الطاعة وعناصرها - اليوم - من أنه قد يكون من جنسها وبعد تعنصره وتحوله، إلا أننا رغم ذلك كله لازلنا نجهل أمر طبيعة تلك الطاقة حقيقة.

شيء من طبيعة الروح وماهيتها؛

أما أمر تشخيصنا لها ووصفها بالطاقة، فذلك اعتماداً على ما سبق من بعض الإشارات السابق إيرادها، ومن ذلك ما قاله الإمام الرازي في تفسيره لقضية الروح وكيفية نفخها في الأجساد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - قال: (.. فاعلم أن الأقرب، أن جوهر النفس، عبارة عن أجسام شفافة تورانية علوية العنصر، قدسية الجوهر، وهي تسرى في البدن سريان الضوء في الهواء، وسريان النار في الفحم، فهذا القدر معلوم .. أما ذلك النفخ فما يعلمه إلا الله تعالى^(١)).

هذا بعض مما قيل عن الروح - أو النفس - وفيه ترى أنه شيء نوراني، علوي العنصر، أي أنه غير العناصر الأرضية، وإن كانت من عالمه المتحول، أي أن جزيئات

(١) تفسير الرازي: ٢٦/٢٢٨.

ذراته من عالم الأمر المجرد، عالم الملكوت الأعلى، والملائكة المقربين، أى أن الجنس الإنسانى فى تلك المرحلة كان طاقة مجردة - نورانية - فيها حياة مجردة، لايعلم كنهها إلا الله تعالى.. ولرب سائل قد يسأل هنا ويقول: إذا كانت هذه الأرواح، هى عبارة عن جسيمات شفافة نورانية، إذن فهى من عالم هذا الضوء، وإذا كانت كذلك فلربما يأتى وقت لنا أن نتعرف فيه على بعض الحقائق عن هذه الأرواح؟ وهنا نقول لهذا السائل أن التعرف على عالم الروح فى هذه المرحلة الدنيوية أمر غير ممكن، لكون خالق الروح قد فصل فى الأمر مبكرا حيث قال عز من قائل: ﴿يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي..﴾ إذن فالحق قد أجاب: أنها من عالم الأمر الذى هو عالم الأرواح المجردة، وعالم هذه الأرواح لا يظهر لنا، أى لا يستطيع رؤيته على حقيقته إلا عندما يتحول هو إلى صورة جسدية، لحكمة يريد بها بذلك خالقها، كما حصل مع سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام. وإن كانت هى حقا من عالم هذه الأضواء ولكنها لم تزل على هيئتها التى خلقت عليها لم تتحول.. حتى عالم هذه الأضواء التى ندرسها اليوم نحن لانراها حقيقة، بل نرى آثارها إذا هى تحيزت فى أى جسم ما، لأن الضوء نفسه لا يرى بل ترى به الأشياء، فكيف نراه، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة..﴾، وإذا كان الروح هو من طبيعة هذه العوالم فكيف نبصره، به نحن نحيا ونبصر - بإذن الله تعالى .. والذى أراه أن هذه المرحلة ذات التسوية التعليمية، هى فى طبيعتها أقرب إلى مرحلة الظل - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وهى التى استنسخ منها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - مرحلة الجنة، لكون طبيعتها هى أقرب إليها (وظل ممدود).. كما قال عز من قال ذلك عنها، ولكنها نسخة روحانية متجسدة نورانية محسوسة، ويقانون إحساس غير القانون الحسى الذى نعده فى دنيانا، وإن كان هذا من ذاك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب - ولكن طبيعة صفته الآن غير تلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين. وهنا قد يطرأ سؤال وهو لماذا لايبقى الإنسان عند عودته إلى عالمه الأول كما كان عند تعليمه، طاقة مجردة.. ومن الطبيعى أن تكون الإجابة على ذلك نفياً، لأسباب كثيرة جدا قد ندرك بعضها ونجهل

الكثير الكثير منها .. فما قد ندركه، أنه سيعود إلى طبيعة مرحلة قد وجد عليها قبل إهباطه إلى الأرض، وهذه المرحلة هي مرحلة وسطية بين مرحلة التسوية والمنهجة، وبين المرحلة الجسمية الكثيفة الدنيوية، لذا فهي تجمع بين صفات المرحلتين مع التفاوت بين ذلك، فهي مثلاً تأخذ من الأولى النورانية الروحانية.. ومن الأخيرة . الدنيوية . الجسمية . ولكن نورانياتها وروحانياتها الأولى.. والجسمية، هي ليست الجسمية الخالصة، بل هي أقرب إلى الجسدية مع التفاوت بعض الشيء، وذلك لتحقيق . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . قانون الجزء ثواباً وعقاباً المترتب على ذلك.. فتحول الجسمية إلى الشبحية . الهيولية . ليبقى الجسد الذي كان في الدنيا جسماً، ليدوق نتيجة هذا القانون ثواباً وعقاباً، لأنه هو الذي كان في الدنيا المتصرف فيه الروح، وعدم بقاءه، جسماً خالصاً كما كان في دنياه ليتلاءم مع طبيعة المكان، النورانية الروحانية، فهي بذلك . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . تأخذ من الأولى التجرد ولكنه وسطي . والله تعالى أعلم بالحقيقة . ومن الدنيا التركيب، لكنه بصفات وسمات تختلف ، لذلك : (فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار، والجان أرواح منفوخة في رياح، والأناسي أرواح منفوخة في أشباح^(١) .. وهنا يتضح لنا . بحمد الله تعالى وتوفيقه . بعض ما حاولنا أن نلف وندور حوله في أن جميع الخلق بجميع أنواعه تبقى صفة التركيب لازمة لهم.. ولكن هذه الصفة تختلف في جنس من غيره، فالعالم القدسي ذو الملائكة المقربين، هو مركب، ولكن تركيبه يكون في طبيعة من جنسه، ولما كان هذا الجنس الملائكي نوراني الطبيعة كان تركيبه لا بد أن يكون في طبيعة نورانية . طاقة . إذ هو مركب في أنوار . وذلك ليتحقق قانون الخلق والإحداث كما أراد الحق جل سناه . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهو لاظهار للأعيان إلا بوجود التركيب، ولكن لكل تركيب عالمه وقانونه وصفاته وخصائصه. ولذلك فالجنس الإنساني عند العرضة والتسوية التعليمية، في ذلك العالم المجرد الروحاني كان مركباً، وتركيبه من

(١) الفتوحات المكية: ٢/٢٨١ .

جنس هذا العالم النوراني، ولما أرادت الحكمة الإلهية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن يكون لهذا المخلوق الإنساني عوالم تتردد بينها خلقته لحكم يريد لها هو سبحانه وتعالى، اقتضت الحكمة والمشئنة والإرادة الإلهية أن يكون لكل عالم من هذه العوالم تركيبه وسماته وخصائصه التي تلائمه، فكان لذلك، هذا التركيب الوسطى والأدنى منه، لأسباب، منها ما سبق أن ذكرناه، وما سيأتي بمشيئة الله تعالى وإذنه، ومن تلك الحكم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - اقتضت إرادة الله تعالى ومشئته أن يكون التركيبان الأخيران من عنصر واحد رئيسي، مع حمله لخاصية رئيسية تربط بينهما وهي خاصية التحولات، وإن كان الجميع من عنصر واحد، وهو ذو الخاصية التركيبية التحولية من الأعلى إلى الأدنى، إلى الأدنى منه، مع خاصية العودة في نفس الطريق، وإن استقر الأمر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - عند العودة عند الاستساح والتحول الأوسط، لما سبق أن قلناه وما سيأتي بعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - بإذن الله تعالى وتوفيقه - لذلك - مثلاً لا مطابقة في الأمر - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لذلك ترى علماء الفيزياء يقولون إن الذرة الصغيرة تتكون بنيتها - من مجموعة جسيمات، وإن هذه الجسيمات هي أصغر أجزاء الذرة ومكوناتها ولكن اتضح أخيراً: (أن التجارب التي تصدم فيها البروتونات مع بروتونات أو إلكترونات أخرى بسرعات عالية دلت في الواقع على أن هذه الجسيمات مؤلفة من جسيمات أصغر حجماً، وسميت هذه الجسيمات الدقيقة (كوارك)^(١).

إذن حتى أجزاء الذرة الصغيرة تتجزأ إلى أجزاء أصغر وهكذا إلى ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ... ومن هنا فكل جزيء وإن دق أو صغر فهو لا يخرج عن قانون التركيب.. وهنا تبرز لنا مجموعة حقائق منها أن العنصر النوراني الذي كانت فيه مركبة أرواح الجنس الإنساني عند العرضة التعليمية، هو الذي طرأ عليه أمر التحول

(١) موجز تاريخ الزمن ص ٨٥ - ٨٦.

مع بقاء الروح على ما هي عليه، وهو العنصر الذى أسماه الحق جل سناه بالتراب: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾^(١).. وهذا العنصر الترابى يتحول إلى الطين الذى كون منه جسم آدم عليه الصلاة والسلام، ومنه ذريته، ولقطة الذرة توضح لنا حقيقة أن هذا العنصر الترابى كان نورانياً . طاقة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . لأسباب كثيرة منها ما سبق، وأيضاً أن الأرض منفقة أصلاً من السماء كما قال الله تعالى: (كانتا رتقا ففتقناهما).. ثم إن عالم الملكوت هو عالم نورانى، فحتماً أن يكون هذا التركيب أقرب إلى هذه الطبيعة النورانية، لذلك نجد أن من أهم صفات هذا العنصر الترابى، هي صفة وخاصية التحول، التى يقول عنها علماء الفيزياء نظرياً، وكانوا لا يزالون جادين فى محاولاتهم تلك لإثبات ذلك عملياً . إن وفقهم الله تعالى . هكذا قالوا^(٢).. ثم إن هذا العنصر الترابى الذى اختاره الحق . جل سناه . لتكون كل ذرة منه جسداً وجسماً لكل واحد من بنى آدم، ليس هو نفسه المقصود، بل عناصره، وإن كان ذلك منه فيما بعد، لذلك يقول علماء الكيمياء: (.. وكلمة التراب) كما جاءت فى القرآن الكريم لاتعنى بالضرورة (التراب) الذى ندوس عليه بأقدامنا، ولكن ربما كان المقصود به: عناصر الأرض الجافة من كربون وكالسيوم، وحديد، وصوديوم، وبوتاسيوم، وفوسفور، وكبريت، وغير ذلك^(٣).. إذن فمقصود كلمة تراب، هي قد تكون عنصراً من مجموعة من العناصر المكونة لكلمة تراب، ومعلوم أن ذرة واحدة تكون عنصراً من هذه العناصر، والذى هو بدوره قد يحمل فى ذرته بعض هذه العناصر.

عودة للإشارة من آية قرآنية سابقة:

ومن هنا تظهر لنا حقيقة أخرى من الحقائق، وخاصية أخرى من خاصيات التراب، وهى أن كل واحد من هذا الجنس الإنسانى، هو عبارة عن جسيم إن لم يكن

(١) سورة الروم: آية «٢٠».

(٢) موجز تاريخ الزمن ص ٩٤.

(٣) التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامى ص ١٢١.

كوارك من جسيم من ذرة من هذا التراب، تجمعت جميعها فى ذرة آدم - عليه الصلاة والسلام - (فتبارك الله أحسن الخالقين).. لتتجلى لنا إشارة من إشارات قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. لتستسخ منه خلقاً آخر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.. لذلك قال بعض المفسرين عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(١) أى إنشاء ذرات هوياتكم فى الأزل عند أخذ الميثاق^(٢).. إذن فلكل واحد من هذا الجنس الإنسانى ذرته التى تشكل هويته واستقلاليتها عن ذرة غيره، ثم إن هذه الذرة هى المتحولة طيناً بإذن الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾^(٣).. قال بعض المفسرين عن كلمة طين هذه: (.. هى المادة الهيولانية^(٤)). فماذا تعنى هذه الكلمة فى اللغة والاصطلاح، وماذا قال العلم المعاصر عنها أيضاً. ولنبدأ ببعض ما قالته اللغة، تقول اللغة: (هاله هولا: أفزعه.. والتهاول الألوان المختلفة، وزينة التصاوير والنقوش والحلى، والهالة دارة القمر.. وهال عليه التراب يهيل هيلاً، والهيل والهيال كسحاب، والهيلان: ما انهال من الرمل. والهيلمان بالفتح وتضم لامه، أى الكثير والرمل والريح.. والهيول كصبور، الهباء المنبث، وما تراه فى البيت من ضوء الشمس، معربة.. والهيولى: وتشدد الياء مضمومة عن ابن القطاع: القطن وشبه الأوائل طينة العالم به^(٥)).

هذا بعض مما أشارت به لغة العرب حول مادة هال، وهى كما ترى واوية الوسط ويائية، وترى أن المادة لاتبعد عن قضايا النورانية - الطاقة... فهى إن كانت واوية، لاتخلو من ذلك، فالتهاويل: هى الألوان، وهنا قد تقول لنا: لادخل لهذه اللفظة بأمور الطاقة، ولكننا نقول لك، لا، بل الدلالة تشير إلى ذلك لإشارات كثيرة، إذ هى

(١) سورة الأنعام: آية «٩٤».

(٢) تفسير ابن عربى.

(٣) سورة الأنعام: آية «٢».

(٤) تفسير ابن عربى: ١/٣٨٩.

(٥) القاموس المحيط: ٧١. ٤/٧٢.

تفسير للفظه التهاويل، وهذا يعطيها دلالة ما تراه الآن من ألوان صاخبة تظهر بين الحين والآخر فى أفق السماء وتتحدث عنها وكالات الأنباء وفيها من الإشارات التى تشير إلى ذلك الكثير.. وربما تقول: ولم لا يكون - أيضا - مقصودا بها الألوان المستخدمة فى التشكيل والرسوم، ونحن نقول لك أيضا، لا نفيًا - لأن صاحب القاموس كان مدركاً لذلك، وهو لذلك أردف بعدها لفظتين تشيران إلى ما قصدت أنت، وتبعد عن الأولى ما توهمت.. وهى قوله: (زينة التصاوير والنقوش والحلى).. إذن فقوله: التهاويل: الألوان.. مقصود بها - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ألوان الطيف، أى الألوان الفيزيائية فى عرفنا اليوم، وهناك ما يؤكد هذه الإشارة - والله تعالى أعلم - وذلك كون أن المادة واوية ويائية دلت وأشارت بدلالة أخرى أكدت ذلك وهى قوله: (والهالة هى دائرة القمر).. ومعلوم - كما يقول أهل العلم اليوم - أن لكل شئ هالة.. والهالة: هى ما يشعه أى جسم من الأجسام حوله من طاقة، وهذا معروف ومتداول عند أهل العلم الفيزيائى - وقد تكون لنا عودة مطولة مع موضوع الألوان، فيما بعد بإذن الله تعالى - ثم إن المادة اليائية قد أشارت بلفظتين أخريين تؤكد ارتباط المادة بقضايا الطاقة وهما لفظتا الريح، وهذه واضحة لا تحتاج إلى محاورة أو ربط.. ثم لفظة سحاب والسحاب وتركيب عناصره وذراته بقضايا الطاقة وعناصرها بل إن المادة اللغوية ذاتها أكدت على هذا الارتباط بالطاقة وعناصرها - بل إن المادة اللغوية ذاتها أكدت على هذا الارتباط بالطاقة وعناصرها بحقائق لاتدعو لأى شك فى أمر ذلك - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فالمادة اليائية - هيل - قد أشارت بهذه الدلائل الجلية إذ قالت: (الهيلان: هو ما انهال من حبات الرمل.. والهيول بدون ياء النسب، كصبور: الهباء، أو ذرات ضوء الشمس.. والهيولى بتشديد الياء هو القطن وبه شبه الأوائل طينة العالم)..

إذن فاللغة تقول: الهيول، هو الهباء وذرات الشمس، وهنا نسأل، ماهى أهم مصادر الطاقة اليوم فى عالمنا وقبل اليوم، أليست الشمس، وذرات الشمس هذه أليس منها الهيول والهباء، ألم يمر بنا أنه كما ورد صورة خلقية من صور الخلق وهو

لا يزال في حالة الطاقة.. ولذلك نرى اللغة تتعطف لتؤكد لك هذه الحقيقة حينما قالت لك: والهيولى بياء مشددة هو القطن وبه شبه الأوائل طينة العالم.. وقد رأينا أن طينة آدم - عليه الصلاة والسلام - هي من هذا الهيولى - كما سبق في إشارات المفسرين السابقين والتي دعنا لهذا الحديث عن الهيولى - إذن فعنصر طينة آدم - عليه الصلاة والسلام - هي شيء نوراني - والله تعالى أعلم.

مع الإشارة اللونية وطينة آدم:

ومن هنا رأينا اللغة نفسها تؤكد ذلك - وسوف يأتي الحديث عن ذلك مفصلاً ومطولاً بمشيئة الله تعالى - حينما قالت: والهيلان: هو ما انهال من حبات الرمل - وحبات الرمل هذه هي جزيئات ذرات الهباء التي كانت منها مكونات طينة آدم - عليه الصلاة والسلام - وذريته، وهذا - أيضاً - هو ما يؤكد القرآن الكريم نفسه بكثير من آياته التي أشار بها إلى بعض الحقائق التي تكون عند بداية النشأة الثانية، والتي هي نفسها مرحلة الخلق الثانية - كما سبق أن أشير إلى ذلك - وهناك - أيضاً - بعض الأحاديث الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم من تلك الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿إذا رجت الأرض رجاً. ويست الجبال بساً. فكانت هباء منبثاً﴾^(٢).. وقوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾^(٤). هذه بعض الآيات القرآنية.. أما الأحاديث فهي كثيرة جداً، منها مثلاً هذا الحديث نوره كإشارة إلى ما نريد قوله.. فقد ورد في أمهات الحديث بما معناه عن رسول الله ﷺ: (يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة، غرلاً بهما).

(١) سورة فاطر: آية «٢٧».

(٢) سورة الواقعة: الآيات «٤» - «٦».

(٣) سورة المعارج: الآيتان «٨» - «٩».

(٤) سورة القارعة: الآيتان «٤» - «٥».

هذه بعض الآيات القرآنية وحديث رسول الله ﷺ، فما الرابط بينها وبين طينة آدم عليه الصلاة والسلام - والعالم - في هذه المرحلة الثانية.

رأينا قبل قليل أن مادة - هال - اللغوية، قد أشارت في دلالاتها، بدلالة الألوان، وقد أشرنا عنها بإشارة مقتضبة، وهنا يأتي الحديث عنها بمناسبة هذه الآيات والحديث النبوى الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وذلك أنا رأينا أن الطينة التى خلق منها آدم - عليه الصلاة والسلام - وبنيه، هى أيضاً طينة مكونات هذا العالم الأرضى كله، كما أشار العلماء حينما تحدثوا عن آية التوحيد، وقالوا: (إن الإنسان هو العالم الصغير، إذ كل ما فى العالم وتكوينه، هو جزء من هذا الإنسان وموجود فيه مثله.. فهذه الجبال مثلاً هى جزء من هذا العالم الكبير، فما هى إشارة اللونية التى تربط بينها وبين الإنسان لتؤكد لنا حقيقة وحدة هذه الطينة.. وأيضاً أن الآية القرآنية الأولى وما بعدها تشير إلى ذلك، فكيف ذلك، من خلال ما قيل وورد عنها من تفسير وشرح، فالآية تقول: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾^(١).

إذن فاللونية قاسم مشترك فى تكوين مادة هذا الكون بما فيه وإن اختلفت تحولاتها من بيئة إلى أخرى بحسب القانون الذى يجعله الله - سبحانه وتعالى - لهذه البيئة أو تلك.. فهذه الثمرات والجبال والدواب والأنعام والإنسان تجمعهم جميعاً هذه الطبيعة اللونية.. فماذا قال عنها بعض المفسرين، يقول الشيخ الرازى: (مختلف ألوانها.. الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون، أى بيض مختلف ألوانها.. وحمر مختلف ألوانها.. ثم قال: - ومن الناس والدواب والأنعام..).. استدلال آخر على قدرته وإرادته.. وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه، وهو عالم المركبات. قسمين: حيوان وغير حيوان.. وغير الحيوان: إما نبات، وإما معدن..

(١) سورة فاطر: الآيتان ٢٧ - ٢٨.

والنبات أشرف... وأشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ ۖ ﴾. ثم ذكر الحيوان وبدأ بأشرف منها وهو الإنسان.. وقوله: ﴿ مَخْتَلَفَ أَلْوَانُهَا ﴾. القول فيه كما أنها في نفسها دلائل ، كذلك في اختلافها دلائل^(١).

هذا بعض موجز عن الآية الأولى.. وفيه نلاحظ أن المفسر أوضح أن جميع عالم المركبات، هو مخلوق من مادة واحدة، وكيف نوّعتها يد القدر.. وأنها مختلف ألوانها، لأن طبيعتها نورانية.. ومما يؤكد هذه الإشارة ذلك الحديث المروى عن حبر الأمة - عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما : (يبيعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما ..) وإذا أردنا أن نقف عند هذا الحديث فلنقف عند لفظة (بهما).. فقد ورد عنها: أنها (جمع بهيم: وهو فى الأصل اللون الأسود الذى لا يخالطه لون سواه).. يعنى ليس فيهم شئ من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا كالعمى والعور والعرج وغير ذلك^(٢).

إذن فخاصية اللونية أمر أساسى فى مادة الطينة الأرضية، وهى مزيج ممتزج من الألوان، مزجت جميعاً لتؤدى حكماً وأهدافاً كثيرة، أى أن كل لون منها ذو وعرض وغرض، يؤديه، فهناك صبغية الجين وهى ذات موروث العمى، وهناك صبغية الجين ذات موروث العرج، والقلب والسكر، و ، و ، و ليؤدى الجميع إلى هدم هذه البنية الجسدية ليأخذها الموت عن طريق جنده هؤلاء، وهم هذه الصبغيات اللونية، بل هناك حكم وأهداف كثيرة أيضاً لا يعلمها إلا الله وحده - سبحانه وتعالى - وإن انكشف لنا بعض منها .. لذا فهو سيعود عند العودة الأخيرة إلى خلقة المرحلة الثانية - النشأة الثانية - مرحلة التركيب الروحى الهيولى - الطينى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - سيعود إلى لونه الأصلى الانفرادى قبل الاختلاط والامتزاج الجماعى فى الجرم آدمى - عليه الصلاة والسلام .. إذن

(١) تفسير الرازى: ٢٦/٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧/٤٣.

فاللونية فى هذه الطينة - الهیولیة - دلیل النورانية - الطاقة - فى تلك المرحلة، وهذا ما یقوله أهل الفیزياء مثلاً: (أما الفئة الرابعة فهى القوة النووية الشديدة التى تمسك بالكواركات مجتمعة داخل البروتون والنيوترون، كما تمسك بالبروتونات والنيوترونات داخل نواة الذرة ، ويعتقد أن هذه القوة يحملها جسيم آخر ذو تدویم(١) يدعى غلوون، يتفاعل مع نفسه، ومع الكواركات فقط، وللقوة النووية الشديدة خاصية غريبة تدعى الحصر، بمعنى التحديد أو الاقتصار، فهى أبداً تربط الجسيمات معاً فى مجموعات مؤلفة لا لون لها. ولا يمكن الحصول على كوارك واحد منفرد بذاته، ولا يكون له لون (أحمر أو أخضر أو أزرق).

وبدلاً من ذلك لابد من وصل كوارك أحمر ، بكوارك أخضر وآخر أزرق، عن طريق (سلك) من الفلونات. و(أحمر + أخضر + أزرق = أبيض) ومثل هذا الثالث يشكل بروتوناً، أو نيوترونًا، وثم احتمال آخر، هو زوج مؤلف من كوارك، ومن كوارك مضاد، أحمر + أحمر مضاد، أخضر + أخضر مضاد ، أو أزرق + أزرق مضاد = أبيض.. مثل هذه المجموعات المؤلفة تشكل الجسيمات المعروفة باسم (ميزوفات) وغير مستقرة، لأن الكواركات المضادة تلتقى بعضها بعضاً مما یولد الكترونات وجسيمات أخرى.. وعلى هذا المثال، فإن الحصر ، یحول دون الحصول على غلوون منفرد بذاته، لأن للفلونات كذلك، ألوان.. فبدلاً من ذلك يجب أن يكون لدينا مجموعة من الفلونات، تتجمع ألوانها لتؤلف الأبيض. ومثل هذه المجموعة تشكل جسيماً غير مستقر يدعى الكرة الصفیة(١).

هذه بعض عناصر الطاقة المكونة لعالمنا، وإنى لأرجو أن نتأمل جميعاً فى هذا الجزء الذى نقلناه من هذه الإشارات العلمية ثم نحاول أن نتذكر جميعاً ما سبق قبله وما سیأتى بعده بإذن الله تعالى وبدون أن نتدخل لشرح هذه الإشارات العلمية، إلا ببعض الإشارات إن تيسرت - بتوفیق الله - ولننظر - مثلاً - كيف أن جزء الذرة یتكون من أجزاء، وأن الأجزاء - أيضاً یتكون من مثلها، وكيف أن ارتباط تكوينها بعالم الألوان،

(١) موجز تاریخ الزمن ص ٩٤.

الذى جعله الله تعالى طريقاً لظهور هذه الجزيئات المكونة لهذا العالم على السطح المرئى وغير المرئى بحسب ما تقتضيه الحكمة الخلاقة، وكيف أن بتآلفها يظهر عنها ومنها جزء آخر يحمل لونيّات عالمه الآخر هو، وكيف أن هذا التوالد والتداخل والتآلف العجيب البديع المتقن يجلى لنا حقيقة إعجاز هذا القول الموجز المجمل البليغ المنقول عمن لا ينطق عن الهوى، حديث رسول الله ﷺ، والذى يرويه عنه حبر الأمة رضى الله تعالى عنهما، حينما سئل بهذا السؤال، مم خلق الإنسان يا ابن عباس؟ أجاب بكل سرعة بديهية، وبكل سهولة لفظ: من ألوان هكذا من ألوان.

.. والنيوترون مم يخلق يا ترى؟ والبروتون مم يوجد؟ ألم يقل علماء الطاقة أنفسهم - كما رأينا آنفاً - أنه: لا يمكن الحصول على كوارك واحد منفرد بذاته، وإلا يكون له لون (أحمر وأخضر وأزرق) وبدلاً من ذلك لابد من وصل كوارك أحمر بكوارك أخضر وآخر أزرق عن طريق (سلك) من الفلونات: (أحمر + أخضر + أزرق = أبيض) ومثل هذا الثالوث يشكل بروتونا أو نيوترونا.. وهذا البروتون والنيوترون أليس كل واحد منهم هو جزء من أجزاء الذرة التى هى عالم كامل لوحدها.. إذن فكل جزء لابد أن يتكون من ألوان لأنه سيأتى - أيضاً - أن الكوارك يتكون من نكهات - كذلك الإنسان الذرة، تكون وخلق من ألوان، وهذا الثالوث الذى اجتمع فكون بروتونا أو نيوترونا.. ترى ماذا قال عنه تلاميذ مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ حينما سئلوا عن كيفية تجمع تلك الألوان، الألوان التى تكون الذرة الإنسانية، لأى إنسان.. قالوا - رضوان الله تعالى عنهم أجمعين - عن قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه...﴾ (وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.. قال: الأمشاج: هى الحمرة فى البياض، والبياض فى الحمرة.. وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة.. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - أيضاً - وهو أن يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ، بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فهو من ماء المرأة.. وقد روى هذا القول مرفوعاً، وذكره البزار.. وروى عن ابن مسعود رضى

الله تعالى عنه: أمشاجها: عروق المضغة، وعنه أيضا - ماء الرجل وماء المرأة لوانان.. وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه: نطفة الرجل بيضاء وحمرأ، ونطفة المرأة خضرأ وصفرأ.. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: خلق من ألوان، من تراب، قال ابن السكيت: الأمشاج: الأخلاط، لأنها ممترجة من أنواع - ألوان - والله تعالى أعلم - لذلك خلق الإنسان منها ذو طبائع مختلفة..^(١).

إذن فالإنسان متجمع من ألوان.. ولم هذا التجمع اللوني يا ترى.. لأن هناك حكماً كثيرة جداً من ورائه.. لا نعلمها.. أقلها هذه الحكمة التي قالها تلاميذ تلك المدرسة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم: (لذلك خلق الإنسان منها ذو طبائع مختلفة^(٢)).. وكما أن لكل بروتون أو نيوترون وحداته وقدراته المختلفة كذلك الإنسان.. كذلك الجبال - كما رأينا... بل كل شيء وكل جزئ في هذا الكون من ألوان، وليس الإنسان فحسب، بل كل شيء في عالمنا هذا، فاللونية قائمة في تكوينه وتركيبه، إذا الكل طاقة، ولكنها متحولة حسب قوانين أماكنها وبيئاتها.. وقد تقول كيف ذلك.. أظن أنا قد أجبتنا بأشياء كثيرة ولكننا سوف نزيد ما نوفق لكتابته بإذن الله تعالى... فقد سبق أن قلنا أن كل شيء خلق من ماء - كما ورد - ومعلوم أن الماء عنصر مركب من ذرة أكسجين وذرتي هيدروجين، وهذا أمر معروف في قضايا الطاقة، إذن فاللونية هي شيء قائم فيه.. ولنرى هذه الإشارة في هذه الآية القرآنية، قال الله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيئ فتراه مصفراً، ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب.﴾^(٣).

قالوا عنها: (اعلم أنه تعالى.. لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الأبواب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها.. وذلك أنه أنزل

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١١٨ - ١٩/١٢١.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١١٨ - ١٩/١٢١.

(٣) سورة الزمر: آية «٢١».

من السماء ماء، وهو المطر، وقيل كل ما كان فى الأرض فهو من السماء.. ثم إنه تعالى.. ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الأرض عيوناً ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجسام، ثم يخرج زرعاً مختلفاً ألوانه، من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك.. أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم، ثم يهيج، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه، فتلك الأجزاء كأنها هاجت، لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً: (إن فى ذلك لذكرى).. يعنى أن من شاهد هذه الأحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك، وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون متحطم الأعضاء والأجزاء، ثم تكون عاقبته الموت..(١).

هذا بعض ما أشار به الشيخ الرازى حول الآية السابقة.. وفيه ترى إشارات كثيرة ترتبط تقريباً بما سبق فى نص موجز تاريخ الزمن وإن لم تكن واضحة.. فالماء النازل من السماء يتنزل وبه جزيئات من ذرات ما سوف يخلق - بإذن الله تعالى - منه على الأرض، إذ كل ما على الأرض هو آت من السماء كما سبق ذلك فى آية الحجر: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.. إذن فهذه الجزيئات النازلة من السماء هى التى بتجميعها يكون تكوّن هذا النبات، وغيره فكواركات، خضر وحممر وزرق تكوّن بروتون ومثلها نيوترون، فتكون ذرة - من ذلك - يعنى تكون بنية معينة ذات صنف معين، شعير، برسيم، وهكذا - بأمر الله تعالى وإذنه -.. ثم إنه فى الآية إشارة مهمة جداً جداً، وهى قد تجلّى لنا أمراً فى غاية الأهمية فى كيفية تكون هذه الأشياء وعلى رأسها تكون الإنسان.. وهذا الأمر هو قضية التحولات وقانونها فى قضايا الطاقة والمادة والعكس وهكذا.. فالماء ينزل - وإن كان سيأتى تفصيل أكثر لهذا الموضوع فى فصل مستقل بإذن الله تعالى - من السماء إلى الأرض، ولكن ليس كل الأرض - بل إلى مسالك وينابيع ومجارى خاصة بهذا الأمر - التحولات - هذه المسالك والينابيع تقوم بهذه العملية، لما أودعه فيها الخالق سبحانه وتعالى - من

(١) تفسير الرازى: ٣٦/٣٦٤.

قدرات قانونية تتولى أمر هذا التحويل - بإذن الله تعالى - وهذا نأخذه من كلمة (يجعله) الواردة فى الآية السابقة.. إذ هى فى هذا الموطن بمعنى صير، وصير تعنى تحول ، لكونها من أخوات (ظن) وهى تنصب مفعولين، كما يقول أهل اللغة فى ذلك.. إذن فقانون التحولات هو أمر ذو أهمية بالغة فى هذه القضايا والتي جميعها تهىء وتشير إلى أمر البعث والنشور. ونمضى مع أمر اللونية القاسم المشترك فى أمر الطينة التى خلق منها جميع هذا العالم الأرضى وكل ما ارتبط به من نبات وزرع وجبال وغير ذلك، وجميعها يؤكد على أصالتها النورانية، وأنها كانت هى طبيعتها التى كانت عليها عندما كوّن منها جرم آدم - عليه الصلاة والسلام - وبنيه فيما بعد، ثم إنها تحولت فى الدنيا إلى طبيعة الكثافة كما يقتضيه قانونها.. وقد رأينا أهل التفسير وما قالوه حول قوله تعالى: ﴿خلقكم من طين﴾.. وأن هذه المرحلة الطينية مرحلة الهيولى.. ورأينا الكثير مما قيل عنها.. والآن نمضى مع إشارة أخرى من إشارات اللونية، مع لفظة الهباء، وما تشير به من دلالات مشتركة مع ما سبق، وقد رأينا أن دلالة الهباء هذه، أنها من دلالات لفظة الهيولى - الأساسية بل هى جسيمات ضوئية كما يؤخذ مما أورده أهل اللغة من دلالات معنوية حولها - ولا أستبعد - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أن دلالة الهباء هذه قد تؤكد نورانية جسيم آدم - عليه الصلاة والسلام - عندما وجد فى السماء، وهى الصفة التى سوف يعود إليها - بإذن الله تعالى وقدرته - بدنه عند النشأة الثانية - فهذه الجبال المخلوقة من ذرة تلك الطينة المخلوق منها الجسم الإنسانى، يخبرنا من خلقها عن كیفيتها التى ستتحول إليها عند العودة لما كانت عليه من صفة قبل إنشائها فى الدنيا ، يقول من خلق وهو اللطيف الخبير : ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾^(١) . ويقول: ﴿ويست الجبال بساً. فكانت هباء منبثاً﴾^(٢) ويقول: ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن﴾^(٣) ويقول: ﴿وكانت الجبال

(١) سورة القارعة: الآيتان ٤ - ٥.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٥٥ - ٦٠.

(٣) سورة المعارج: آية ٩٠.

كثيباً مهيباً^(١) ويقول: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب﴾^(٢) ويقول: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾^(٣).

هذه بعض الآيات السابقة عن الجبال أعدناها مرة أخرى لنرى بعضاً مما قيل عنها من إشارات قد تؤكد لنا بعضاً مما قيل حول طينة الجرم الآدمى والعالم الذى خلق معه منها.. وكيف كان أمر هذه الطينة عندما خلق منها هذا الجرم الآدمى.. وكيف كان شأنها فى عالم الاستحالات.. وكيفية أمر عودتها إلى طبيعتها الأولى عند الخلقة والإيجاد الأول بعد العرضة والتسوية التعليمية.. وعند أخذ الميثاق.. وسكن الجنة قبل الإهباط.. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - فماذا قيل إجمالاً من إشارات حول هذه الآيات.. لعنا قد نقف عنده ننهل منه بإذن الله تعالى.. قالوا: ﴿ويست الجبال بساً﴾ الفاء للترتيب الزمانى، لأن الأرض ما لم تتحرك والجبال ما لم تبس، لاتكون هباء منبثاً، والبس: التقلب، والهباء: هو الهواء المختلط بأجزاء أرضية تظهر فى خيال الشمس إذا وقع شعاعها فى كوة^(٤) وتكون الجبال كالعهن^(٥)، العهن فى اللغة: الصوف المصبوغ ألواناً، وإنما وقع التشبيه به لأن الجبال (جدد بيض وحممر مختلف ألوانها، وغرايب سود.. فإذا بست وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.. والنفش فى الصوف - العهن: هو فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض واعلم أن الله تعالى.. أخبر أن الجبال مختلفة الألوان.. ثم إنه سبحانه وتعالى يفرق أجزاءه، ويزيل عنها التأليف والتركيب فصير ذلك مشابة للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً.

وهنا مسائل:

الأولى: إنما ضم بين حال الناس، وحال الجبال، كأنه تعالى.. نبه على أن تأثير تلك القرعة - القارعة - فى الجبال، هو أنها صارت كالعهن المنفوش.. فكيف يكون

(١) سورة المزمل: آية «١٤».

(٢) سورة النمل: آية «٨٨».

(٣) سورة النبأ: آية «٢٠».

(٤) تفسير الرازى: ٢٩/١٤٢.

حال الناس عند سماعها .. (كالفرش المبتوث): المفرق .. ثم تصوير - الجبال - كالعهن المنفوش .. وهى أجزاء كالذر^(١) وأعلم أن الله تعالى، ذكر فى مواضع كثيرة من كتابه أحوال الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله .. وهو أن أول أحوالها الاندكاك، وهو قوله تعالى: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾.

الحالة الثانية: أن تصوير (كالعهن) و(كالعهن المنفوش).

الحالة الثالثة: أن تصوير كالهباء وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله تعالى: ﴿إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثاً﴾.

الحالة الرابعة: أن تتبس، لأنها مع الأحوال المتقدمة تارة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة، فتتسفف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فقل ينسفها ربي نسفا﴾.

الحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً فى الهواء كأنها غبار .. فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثرها أجساماً جامدة، وهى فى الحقيقة مارة، إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح صيرها مندكة متفتتة، وهى قوله تعالى: ﴿تمر مر السحاب﴾ .. ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره .

الحالة السادسة: أن تصوير - الجبال - سراباً، بمعنى لا شىء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بعد، إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجد شيئاً . والله تعالى أعلم^(٢).

هذا ما استطعنا أن نوجزه مما ورد عن بعض الآيات القرآنية السابقة وفيه كانت الإشارات عن جزء من أجزاء هذا العالم المركب، وهو الجبال، التى تشترك مع الجرم الإنسانى (جرم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام) فى مادته الطينية .. وقد رأينا فى الاستعراض الموجز - الآنف ذكره - إشارات كثيرة، توضح لنا ماهية هذه الطينة

(١) تفسير الرازى: ٧١ - ٧٢/٣٢.

(٢) تفسير الرازى: ١١ - ١٢/٣١.

وعنصرها عندما تنعدم وتتحول إلى طبيعتها التي تحولت عنها، فالجبال تتقلب ذرات وجسيمات ضوئية، ثم تنعدم سراباً، لا تقع منه ولا فيه - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وكذلك الإنسان تعود طينته إلى طبيعتها، ولكن ليس كالجبال لا هدف من ورائه، بل وراءه حساب وجزاء ولذلك نجد هذا المفسر يربط بين الإنسان والجبال في أن كلا منهما يعود إلى هذه الحالة، وذلك لأن الآية القرآنية هي التي ربطت أصلاً بينهما: ﴿يوم يكون الناس كالفرش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ .. وذلك ما أشار إليه في الحالة الأولى السابقة،.. وكما أن الجبال أجزاء مركبة تفككت وعادت إلى حالتها الأولى السابقة.. وكما أن الجبال أجزاء مركبة تفككت وعادت إلى حالتها الأولى.. كذلك الإنسان هو في أصله وطبيعته أجزاء من ذرة مركبة وبالموت تفككت وتعود طينته إلى أصل طبيعتها وحالتها النورانية الأولى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ .. أى كما قالوا: (تعودون إلى ذرات أصولكم عند الإيجاد الطيني): ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ .. إذن خلقتنا الطينية الأولى كانت نورانية متعنصرة، لذلك قالوا عنها (المرحلة الهولوية) .. ورأينا في كل ما سبق في هذا الفصل، قضية الهولوية، وما الذى تعنيه .. ولو عدنا قليلاً لما قاله المفسر السابق عن قوله تعالى: (كالعهن المنفوش): العهن في اللغة: هو الصوف المنفوش ذو الألوان المختلفة، والنفش في الصوف: هو فكه حتى ينتفش بعضه عن بعض ثم يتقطع ويصير أجزاء صغيرة تطير شعاعاً في الهواء، وهو الهباء .. إلخ.. وهذا الشأن في أمر هذه الطينة الآدمية وعالمها وما أشير به عنها في كتب التفسير نجد العلم الحديث في أيامنا يشير بمثل ذلك عن أمر هذه الطينة ولا يبعد عن مفاهيمها اللهم إلا في اختلاف الألفاظ وصياغة تركيبها .. فماذا قال هذا العلم عن هذه الطينة .

يقول علماء العلم الحديث عن ذلك : (إن كلمة (الطين) لا تعنى بالضرورة، ذلك الطين الذى نشاهده على ضفاف الأنهار والقنوات، ولكن ربما كان القصد منه، المادة العضوية التى اتخذت من ذرات الكريون هيكلها لها ثم أضيفت إليه ذرات عناصر أخرى فتقلبت إلى جزيئات غروية الشكل هائمة فى الماء، وهى ما أطلق عليها العلماء تعبير: (الحساء العضوى).

وهذه الجزيئات العضوية الغروية الطينية الشكل كانت أساس مادة (البروتوبلازم) الذى يصنع بنيان الخلايا الحسية.

وكما هو معروف عن مادة البروتوبلازم أنها إذا تفككت فإن جزيئاتها تظل معلقة فى الماء، ولكل جزيء منها شحنته الكهربية.. وبسبب تلك الشحنات يمكن لتلك الجزيئات أن تتلاصق أو تتنافر بعيداً عن بعضها

وهذه الخاصية الغروية للمادة الطينية العضوية هى تفسير لوصف القرآن الكريم للطين بأنه (طين لازب) وهذا الطين اللازب باستقباله لدفعة الحياة التى انبثقت عن تفتح الروح فيها، تحول إلى الخلايا الحية.. بداية جميع الكائنات النباتية والحيوانية، والإنسانية^(١).

هذا بعض مما قاله العلم الحديث من بعض صفات تلك الطينة، وفيه ترى أنها وإن كانت طيناً إلا أنها جعل لها الخالق سبحانه وتعالى.. صفة ذات طابع خاص وإن منها كان جميع هذا الكون النباتى والحيوانى والإنسانى، والجماد.. ونلاحظ أن تركيز النص على قضية الذرة والجزيئات، وما تحمله لفظة الذرة من قضايا الطاقة وخصائصها.. لهذا ندرك أن كل إنسان له عالمه وخصائصه، لتتجلى لنا عظمة القدرة الإلهية الخالقة التى قالت لنا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رِيبُكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إذن فالذرة هى شئ أساسى فينا - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - ومن هنا يتضح أنا حينما كنا فى الجنة مع أبينا آدم - عليه الصلاة والسلام - أو هو وحده ونحن مدخلون - مدمجون - فى صلبه ، كنا نورانيين - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وإن كنا أرواحاً فى أشباح، عندما استسخرنا منه - عليه الصلاة والسلام - فى الملأ الأعلى، على الوجه الثانى فى تفسير الآية.. فالروح وكونها نورانية أمر منته.

أما هذه الأشباح - الأجساد - فبناءً على بعض ما سقناه فى أمر الطينة فهو يؤكد لنا ماهية هذه الأشباح.. ورأينا أنها شئ نورانى غير كثيف.. ومما يدل على

(١) الإنسان وتطور العلم ص ١٢١.

أمر هذه النورانية لتلك الأشباح، أن آدم - عليه الصلاة والسلام - لما كان فى الجنة كان نورانيا، ولما وسوس له إبليس - نعوذ بالله تعالى منه - لأن يأكل من تلك الشجرة المنهى عن أكلها: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا﴾، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: (.. تقلص عنهما النور الذى كان لباسهما فصار أظفارا فى الأيدي والأرجل.. أى كان عليهما نور، لا ترى عوراتهما فزال ذلك النور عنهما)^(١).

وهنا نتضح لنا بعض إشارات الآية السابقة التى تحدثنا عنها فى المرحلة الأولى وهى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى أن جزيئات ذراتنا تم إبداعها فى ذرة أبينا آدم - عليه الصلاة والسلام - وفى داخل تلك الذرة التى جعلت فيما بعد - معملا تم فيه تجميع نبضات كل الذرات الإنسانية لتشكل كل ذرة داخل قالبها المختص داخل المعمل الآخر الموجود داخل المعمل الأول، والذى سوف يستسخ ويستخرج فيما بعد - وهو الجرم الحوائى - أمنا حواء - عليها الصلاة والسلام - لتصبح ذرة من جنس الذرة التى تكون منها هذا المعمل الكمبيوترى، لتتضح لنا إشارة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾^(٢) .. إذن فجرم آدم - عليه الصلاة والسلام - جعل من ذرة هذا العنصر الترابى ليتم بداخله تحويل نبضات صورنا النورانية البحتة إلى طبيعة هذا العنصر الهيولى القابل للتحويلات المتعكسة، وقد أشرنا إلى العملية التى كان وضع صورنا النورانية فى ذرة هذا الجرم الطينى الآدمى - عليه الصلاة والسلام - حينما تحدثنا عن ذلك فى المرحلة الأولى - إن كنا نذكر ذلك - عندما أوردنا الحديث الذى رواه أبو هريرة - والذى منه حينما قبض الحق جل سناه يديه وقال لآدم - عليه الصلاة والسلام - اختر ، فاختار آدم - عليه السلام - يمين ربه وكلتا يديه يمين ، فرأى آدم - عليه الصلاة والسلام - فيها صورته وجميع صور بنيه، إلخ.. وقد قلنا أن الحق جل سناه حينما جىء إليه بذرات أجرام بنى آدم الترابية - عجنها بيديه - كما فى الحديث... إلخ.

(١) تفسير جامع أحكام القرآن للقرطبي: ١٧٨ . ٧/١٨٠.

(٢) سورة الأنعام: آية ٢٥.

ليتضح لنا من حكم هذا العجن والتشريف لهذا المخلوق - العملية التي تم بها وضع هذه الصور في هذه المزجة الطينية .. وأظن أن هذا هو ما يشير إليه ما ورد من أحاديث وأقوال لبعض الصحابة والتابعين لهم - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - فمن ذلك رأينا أنهم قالوا: (.. إن المعنى - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين «ولقد خلقناكم» أى خلقنا الأرواح أولاً، ثم صورنا الأشباح آخرًا ..) .. وليرجع إليه من أراد في مكانه .. ثم إنه بعد هذا التجميع داخل المعمل الآدمي، تم الاستساخ الذي أشارت إليه آية الذر صراحة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فقد قالوا إن الله تعالى: أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم... وروى عن الإمام الترمذى أنه قال: (لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة)^(١) .. إذن فالأرواح مع الأشباح تكون الأنفس، ولذلك قال المفسرون عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أى أنها - الأنفس - قرنت بأجسادها وبالتأمل فيما ورد حول آية الذر نلاحظ أنها قد تجمل في ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: (أنه سبحانه وتعالى - أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد - وأنه تعالى جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به - سبحانه وتعالى عما يصفون) .. وقلنا إن هذا الوجه يتضح منه أنه كان هو المقصود به الاستساخ الأول من (أم الكتاب) .. والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين .

الوجه الثانى: أنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .. وأن هذا الوجه ، هو الوجه النوراني المتعنصر الذى أسكن الجنة .. إلخ .

الوجه الثالث: وهو ما أشاروا إليه بقولهم أنه تعالى: (أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض .. وهذا الوجه هو ما نرى أنه هو النسخة المقصودة للطبيعة الدنيوية - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - وقد نعود لتوضيح هذا الوجه بعد إتمام إشارة الوجه الثانى - بمشيئة الله تعالى - أما الوجه

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ٣١٤ . ٧/٢١٧ .

الأول فقد مضت إشارات عند الحديث عن مرحلة الخلق والاستنساخ النوراني الأول . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهذه الوجوه الاستنساخية نجد أنها تؤكد لنا كثيرا من حقائق أمر مراحل الخلق لهذا الجنس الإنسانى حسب ما سبق . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وتؤكد لنا أيضا أن الاستنساخ الأول كان من (أم الكتاب) .

وقفة أخرى مع آية الذر

وشىء من خلاف ما جرى حولها؛

أما الوجهان الآخران، فقد كان الثانى من آدم نفسه . عليه الصلاة والسلام . والآخر يشير إلى أنه كان من بينه بعضهم من بعض، وهو ما سيكونون عليه فى الدنيا بعد تحولهم . بالإهباط . إلى طبيعتها . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . بل يشير إلى أن كل ذرة من تلك الذرات . ذرات الجنس الإنسانى . قد عمل بها ما عمل بآدم نفسه، ولكن بصورة خاصة، أى أنه صور وأدخل فى ذرة ما سيكون إخراجة من خلاله، وهكذا إلى نهاية الأمر . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . بمعنى أن كلا منها هو صورة كمبيوترية مصغرة لأبينا آدم . عليه الصلاة والسلام . ولكنها خاصة به هو وذريته الذين سوف يخرجون بعضهم من بعض ليصدق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ .. إلخ . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهنا تحتل أول نقطة خلافية من نقاط الخلاف التى جرت بين العلماء حول هذه الآية .. ثم إن استنساخ الوجهين الآخرين فى وجه واحد يعطينا دلالات كثيرة وعظيمة .. منها قضية ما أشار إليه ﷺ فى قوله : (عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يعاد تركيبه ..) إذ أنه يشير . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . إلى أنه الذرة التى جرى استنساخها أولاً من أبينا آدم عليه الصلاة والسلام . هى نفسها عجب الذنب، وهى الذرة التى بها شفرة جزيئى النشاطين الأخيرتين، النشأة الدنيوية والنشأة الأخروية .. ثم إن آية الذر هذه قد وقف عندها

العلماء طويلاً ودار حولها كثير من النقاش والاستفهامات، وذلك حينما حاول بعض أولئك العلماء أن يحكموا العقل الإنسانى المحدود الأفق عند بعض الإشارات التى وردت حولها.. ومعلوم أن تحكيم العقل الإنسانى المخلوق القاصر فى نصوص القرآن والأحاديث النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم - يكون تحكيماً خطأ إن لم يكن العقل مستندا إلى ما يؤيد أحكامه، إلى نصوص أخرى تفتح له الخطوط التى قد توصله إلى حقائق بعض ما يقوله، أو أنه يترك ذلك للزمن الذى قد يبلغ الله تعالى فيه سر بعض ما انقلب عليه فى تلك الفترة لكونه ليس مختصاً بها، بل هو مختص بزمن ومكان ما جعله لانبلاج سر إعجاز ما حار حوله عقله ومن ذلك ما سوف نعرفه مما دار بين أولئك العلماء وكيف أن فى زمننا قد يكون انبلاج بعض أسرار تلك المغاليق والبقية تبقى لأزمانها التى أرادها الله سبحانه وتعالى فى وقتها - بعونه تعالى - فمن ذلك أنهم قالوا: إن قوله تعالى: ﴿من بنى آدم من ظهورهم﴾ لا شك أن قوله ﴿من ظهورهم﴾ بدل من قوله (من بنى آدم) فيكون المعنى: (وإذا أخذ ربك من ظهور بنى آدم) وعلى هذا التقدير، فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً.. وأنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئاً من الذرية لما قال (من ظهورهم).. بل كان يجب أن يقول: من ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد)، وكذلك قوله (ذريتهم) لو كان آدم لقال (ذريته).

٢ - أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا : ﴿إنما أشرك آبائنا من قبل﴾ وهذا الكلام يليق بأولاد آدم لأنه عليه الصلاة والسلام ما كان مشركاً .

٣ - أن أخذ الميثاق لا يمكن إلا من عاقل فلو أخذ الله تعالى الميثاق من أولئك لكانوا عقلاء، ولو كانوا عقلاء وأعطوا ذلك الميثاق حال عقلهم لوجب أن يتذكروا فى هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم فى هذا العالم، لأن الإنسان إذا وقعت له وقعة عظيمة مهيبة، فإنه لا يجوز مع كونه عاقلاً أن ينساها نسياناً كلياً لا يتذكر منه شيئاً، لا بالقليل، ولا بالكثير.

وبهذا الدليل يظل القول بالتناسخ، فإننا نقول: لو كانت أرواحنا قد حصلت قبل هذه الأجساد فى أجساد أخرى لوجب أن نتذكر الآن أنا كنا قبل هذا الجسد فى

جسد آخر وحيث إننا لم نتذكر ذلك كان القول بالتناسخ باطلاً، فإذا كان اعتمادنا فى إبطال التناسخ إلا على هذا الدليل - وهذا الدليل بعينه قائم فى هذه المسألة - وجب القول بمقتضاه، فلو جاز أن يقال أنا فى وقت الميثاق أعطينا العهد والميثاق.. مع أننا فى هذا الوقت لا نتذكر شيئاً منه.. فلم لايحوز أن يقال إننا كنا قبل هذا البدن فى بدن آخر مع أنا فى هذا البدن لا نتذكر شيئاً من تلك الأحوال.

٤ - أن جميع الخلق الذين خلقهم الله تعالى من أولاد آدم عدد عظيم وكثير، فالمجموع الحاصل من تلك الذرات يبلغ مبلغاً عظيماً، فى الحجمية والمقدار.. وصلب آدم على صغره لا يبعد أن يتسع لذلك المجموع.

٥ - إن البنية شرط لحصول الحياة والعقل والفهم، إذ لو لم يكن كذلك، لم يبعد فى كل ذرة من ذرات الهباء أن يكون عاقلاً فاهماً مصنفاً للتصانيف الكثيرة فى العلوم الدقيقة، وفتح هذا الباب يفضى إلى التزام الجهالات.. وإذا ثبت أن البنية شرط لحصول الحياة، فكل واحد من تلك الذرات لا يمكن أن يكون عالماً عاقلاً فاهماً، إلا إذا حصلت له قدرة من البنية واللحمية والدمية وإذا كان كذلك فمجموع أولئك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى آخر قيام القيامة لاتحويهم عرصة الدنيا فكيف يمكن أن يقال أنهم بأسرهم حصلوا دفعة واحدة فى صلب آدم - عليه الصلاة والسلام .. قالوا إن هذا الميثاق إما أن يكون قد أخذه الله تعالى منهم فى ذلك الوقت، أو ليصير حجة عليهم عند دخولهم فى دار الدنيا. والأول باطل، لانعقاد الإجماع على أن بسبب ذلك القدر من الميثاق لا يصيرون مستحقين للثواب والعقاب، والمدح والذم.. ولايحوز أن يكون المطلوب منه أن يصير ذلك حجة عليهم عند دخولهم فى دار الدنيا، لأنهم لما لم يذكروا ذلك فى الدنيا، فكيف يصير ذلك حجة عليهم فى التمسك بالإيمان.

٦ - إن أولئك الذر قى ذلك إما أن يكونوا كاملى العقول والقدر، أو ما كانوا ذلك.. فإن كان الأول: كانوا مكلفين لا محالة، وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال، ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم فى ذلك الوقت عن أحوالهم فى هذه الحياة فى

الدنيا .. فلو افتقر التكليف فى الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف فى وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر، ولزم التسلسل، وهو محال.. وأما الثانى وهو أن يقال أنهم فى وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملى العقول ولا كاملى القدر، فحينئذ يمتنع، فوجب الخطاب والتكليف .

٧ - قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق﴾ .. فلو كانت تلك الذرات عقلاء فاهمين كاملين، لكانوا موجودين قبل هذا الماء الدافق، ولا معنى للإنسان إلا ذلك الشيء، فحينئذ لا يكون الإنسان مخلوقاً من الماء الدافق وذلك رداً لنص القرآن .. فإن قالوا: لم لا يجوز أن يقال أنه تعالى خلقه كامل العقل والفهم والقدرة عند الميثاق، ثم أزال عنه عقله وفهمه وقدرته .. ثم إنه خلقه مرة أخرى فى رحم الأم وأخرجه إلى هذه الحياة .. قلنا: هذا باطل لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان خلقه من نطفة خلقاً على سبيل الابتداء .. بل يجب أن يكون خلقاً على سبيل الإعادة وأجمع المسلمون على أن خلقه من نطفة هو الخلق المبتدأ فدل هذا على أن ما ذكرتموه باطل.

٨ - ثم إن تلك الذرات أن يقال: هى عين هؤلاء الناس أو غيرهم .. والقول الثانى باطل بالإجماع .. بقى القول الأول فنقول: إما أن يقال أنهم بقوا فهماء عقلاء قادرين حال ما كانوا نطفة، علقه، مضغة .. أو ما بقوا كذلك، والأول باطل ببديهة العقل .. والثانى: يقتضى أن يقال: الإنسان حصل له الحياة أربع مرات. أولها وقت الميثاق .. وثانيها فى الدنيا .. وثالثها فى القبر .. ورابعها فى القيامة .. وأنه حصل له الموت ثلاث مرات: موت بعد الحياة الحاصلة فى الميثاق الأول .. وموت فى الدنيا .. وموت فى القبر .. وهذا العدد مخالف للعدد المذكور فى قوله تعالى: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ .

٩ - قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ .. فلو كان القول بهذا الذر صحيحاً لكان ذلك الذر هو الإنسان، لأنه هو المكلف المخاطب المثاب المعاقب، وذلك باطل، لأن ذلك الذر غير مخلوق من النطفة، والعلقة، والمضغة، ونص

الكتاب دليل على أن الإنسان مخلوق من النطفة والعلقة والمضغة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ .. وقوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَى شَىء خَلَقَهُ، مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ .. هذه جملة من الوجوه المذكورة فى بيان أن هذا القول ضعيف .. أى تفسير آية الذر بما قاله المفسرون وأهل الحديث^(١).

هذه بعض من الوجوه اعتبرت أن ما قاله أهل التفسير إنما هى تفسيرات ضعيفة، ولا يمكن القول بها أو الرجوع إليها .. وإذا نحن ركزنا على مجمل ما استطعنا أن نأخذه من أقوالهم تلك، فإننا سنلاحظ أنها كلها تركز على ثلاثة محاور، والبقية هى تفسير وتوضيح لهذه المحاور .. فمثلاً:

المحور الأول: يركز على نفى أن يكون لأدم صلة بهذه الآية، وإنما المقصود بنية فقط، لأن الآية لم تقل من ظهره، وإنما قالت: (من ظهور بنى آدم) .. ليصلوا من خلال هذه المقدمة الصغيرة لنفى واستبعاد قضايا ترتبط بذلك .. منها نفى قضية الاستساخ، إذ بإثبات الأخذ من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - يثبت ذلك .. لذلك بادروا لنفى تفسير الذرة بهذا المفهوم عند أهل التفسير والحديث، من أجل ذلك استعظموا أن يكون الجميع قد وضعوا فى ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - من هنا كان تركيزهم على قضية نفى الذرة لتكون هى:

المحور الثانى: الذى حاولوا استبعاده ببعض النقاط التى أشاروا بها - كما رأينا - ليصلوا من نفى هذا المحور للمحور الرئيسى لهذه المحاور جميعاً، وهو نفى واستبعاد قضية الميثاق والعهد الذى أشارت إليه الآية الكريمة نفسها.

وتمضى معهم فيما قالوا نقطة نقطة .. وإن كان جل ما سبق قوله من أول هذا البحث، إلى هنا وما بعده، كله يرد على أقوالهم هذه، ولكن لا يضر إن نحن استعرضنا بعض الأشياء فى الرد على ما قالوا.

ولنبداً من محور الذرة، إذ هو نقطة ارتكاز فى الحوار.

(١) تفسير الرازى: ٤٧ - ١٥/٥٠.

أولاً: أن الخطأ وقع من مفهوم انطلاقهم فى كل ما قالوا.. وذلك أنهم - كما قلنا - جعلوا العقل حكماً فى أخذهم وردهم فى قضايا نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام - فهم قد جعلوا إعجاز القرآن والحديث محدود الزمن والمكان، لذلك كان علاجهم لهذا الموضوع وغيره قاصراً.. فالذرة وإن كانوا لديهم علم وإلمام كبير بعلمها فى زمنهم، إلا أنهم أخطأوا حينما اعتبروا علمهم بها هو غاية علومها، فلو أنهم عاشوا لزمننا هذا - مثلاً - لسفهاوا أحلامهم بما قالوا فى زمنهم عنها.. فقد رأينا - اليوم أن العلم يقول: إن الجسم هو من أجزاء الذرة، ويحوى بداخله أجزاء، وإن جزيئات من هذا الجزيء، يمكن أن يكون بنيان ذرة جديدة إذا انفصلت عن أجزاء هذا الجسيم، كما رأينا ذلك فيما قاله علماء الفيزياء - سابقاً - إذن فالذرة هى لوحدها عالم يحوى بداخله عوالم.. وعوالم.. فبالعلم اليوم يقول أن بالإمكان أن يدخل ويبرمج فى داخل جزيء من أجزاء هذه الذرة فقط كل علوم الكرة الأرضية من يوم ما وجدت إلى يومنا هذا وبعده، كما سبق أن رأينا ما نقلناه حول ذلك من مجلة الشرق الأوسط - إن ما وصل إليه العلم التجريبي فى أيامنا قد يفوق كل الخيال.. فكيف يستبعد أن يدخل جميع ذرات الجنس الإنسانى فى ذرة آدم - عليه الصلاة والسلام - إذا علمنا أن المدخل - بكسر الخاء - هو الإله الخالق المبدع جلت قدرته - سبحانه .. إذا كان المخلوق لهذا الإله - سبحانه - يقول عن إدخال ما سبق قوله.. فكيف بالخالق سبحانه وتعالى.. إذن فاستعظامهم لأن يكون الجميع قد وجد فى ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - كان استعظاماً ساذجاً وضعيفاً.. لأنهم أخطأوا حقائق علم هذه الذرة... وليس لأنهم لم يكونوا ذوى علم بها.. لا.. فالذرة كانت ذات شأن علمى كبير فى زمنهم.. ولكن إقحام العقل فى كل شئ قد يعمى صاحبه عن حقائق الحق وهى أمامه.. ولذلك نجد من بعض حكماء الإسلام الذين يستخدمون العقل فى حدوده التى منحه الله تعالى، إياها.. ومن خلال ما وصل إليه علم الذرة فى زمنهم.. يردون على أولئك العقلانيين فيما استعظموه بقولهم.. إن مجموع الذرات - التى قلتم - يمتنع حصولها بأسرها فى ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام... قلنا : عندنا البنية ليست شرطاً لحصول الحياة فالجوهر.. قابل للحياة والعقل.. فإذا جعلنا كل

واحد من تلك الذرات جوهرًا فردًا.. ما الذى يمنعه من الحياة . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . فلم قلتم إن ظهر آدم . عليه الصلاة والسلام . لا يتسع لمجموعها... إذن فقضية الاستساخ . لا التناسخ . جائز الحصول . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وشيء تشير إليه الآية الكريمة . والله تعالى أعلم بالحقيقة . وتؤكد الأحاديث الشريفة . على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .. لذلك رأينا المفسرين وأهل الحديث، يرون ثلاثة أوجه لهذا الأخذ . الاستساخ من آدم عليه الصلاة والسلام . وقد سبق إيرادها .. إذن فالاستساخ لم يكن مرة واحدة من آدم . عليه الصلاة والسلام . بل كان كما يقولون أمره فى الجنة، كما هو الحديث المروى عن الإمام على رضى الله تعالى عنه وأرضاه . أرواح فى أشباح . أى بعد الخلق الطينى هناك الهيولى . والمرة الثانية، وهو ما أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ..﴾ وهو ما قالوا عنه إنه كان عند الإهباط من السماء الدنيا إلى الأرض.. وقبل ذلك عندما كانوا أرواحاً . خلق الله تعالى الأرواح قبل خلق الأجساد بألفى عام. ومن هنا جاءت الأقوال الكثيرة عن الصحابة . رضوان الله تعالى عنهم أجمعين . وكذلك عن التابعين رضى الله تعالى عنهم . عن تعدد أخذ مرات الميثاق، واختلافهم حوله.. وهذا الاستساخ لا يرفضه العقل . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . أو يأباه، بل إن ما جد من علوم الذرة وحقائقها يفسر لنا ذلك ويوضحه.. فالعلم اليوم يقول ذلك، وهو معلوم فى عالم البرمجة وقضايا الرقائق والديسكات فى عالم الكمبيوترات، وكلها أساسها عالم الذرة وجزيئاتها.. أما قضية إدخال ذلك فى صلب آدم . عليه الصلاة والسلام . فأمره بناء على ما علمنا، فى عالمنا المادى أنه شيء واقع.. فما بالك إذا كان أمر ذلك كله يرتبط بالخالق جلّت قدرته.

الاستساخ والشريط الوراثى وعالم المضغة

وبناء على ما جاءت به الأخبار التى أوردناها سابقاً، فالعقل لا يرفض ذلك، فقد رأينا أن الأرواح هى شيء نورانى.. ولما خلق آدم . عليه الصلاة والسلام . بعد

اصطفائه من بين تلك الأرواح طينا أدخلت فيه تلك الأرواح وقد رأينا أن طينيته . عليه الصلاة والسلام . ما حقيقتها عندما تكوّن منها جرمه؟ من أنها فى الأصل كانت ذرة نورانية . طاقة، إذن فعقليا، عملية إدخال تلك الأرواح فى صلبه . عليه الصلاة والسلام . أمرها هين، فكيف إذا كان ذلك كله من قبل الصانع القادر . سبحانه وتعالى . وإذا كنا نؤمن فى أيامنا هذه بتحويل كل شىء إلى نبضات كهربائية . كما يقولون . وإدخالها فى جزىء من جزىء من ذرة من ذرات السيليكون ، أفلا يدلنا ذلك على عظمة الصانع القادر فيما أخبرنا به من إدخال فى صلب أبينا آدم من ذرة . عليه الصلاة والسلام . أما ما الذى أدخل فى هذا الصلب، فأظن أنه هو الأجساد، بعد أن تم تحويلها . بإذن الله تعالى وأمره . إلى طبيعة تتلاءم وأمر هذا الإدخال والاستساخ، وهو كما سبق أن علمنا أن الأرواح فى تلك الفترة . بعد التسوية وأخذ الميثاق والعرضة التعليمية . كانت منفوخة فى أجساد هيولية، والهيولية رأينا أن طبيعتها نورانية، إذن فأجساد الأرواح النورانية . الهيولية . هى التى تم إدخالها فى ذرة أبينا آدم النورانية.. وهذا الأمر الذى سبق ليس غريباً فى عالمنا الدنيوى المشاهد، بل نجد أن علماء هذا العالم المشاهد يقولون لنا ما يوضحون به حقيقة هذا الإدخال فى صلب آدم . عليه الصلاة والسلام . حقيقة حصوله بأمر الله تعالى . يقول الدكتور مصطفى محمود حول ذلك ما نحاول أن نلخص منه التالى.. يقول: «ومن الحاجات العجيبة . أيضاً . فى استقرائنا للكون وعجائبه، وللإنسان والظواهر الغريبة فيه .. مسألة الوراثة .. والوراثة كيف يرث الابن شيئاً من أبيه وأمه وعرفنا فى الفترة الأخيرة أن هناك شيئاً اسمه «الشريط الوراثى».. وهذا الشريط الوراثى هو كتاب يحتوى على خمسة ملايين صفحة، ملئ بلفة شفرية بدل الحروف: ألف، باء، جيم، تبقى فيه جزئيات أربعة جزئيات، فتعمل لها تباديل وتوافيق^(١) . مثل ما أقول . مثلاً «رجع» ممكن تبقى «جرع»، وتبقى «عرج» نفس الحروف بالتباديل والتوافيق، تعطينى نفس المعانى، أو «علم» يمكن أن تكون «عمل»، وتكون «لمع».. ونفس

(١) هو ما يسمى فى عالم اللغة العربية بباب «دوران المادة حول نفسها».

الحكاية «كتب».. وهذا الكتاب الشفري من أربعة حروف، تتبدل فى مجموعات متعددة، لدرجة أنه لدينا ثلاثة آلاف مليون جزئ بالشكل، وبالتبادل والتوافق تعطينا مليارات من المعلومات فى هذا الشريط الوراثى، الكتاب الذى هو عبارة عن كتاب من خمسة ملايين صفحة، وهذه المعلومات الموجودة فى هذا الشريط الوراثى فيها تفاصيل عن المولود، لون عينيه، شعره طويل أم قصير، نحيل أم سمين، الأمراض التى يتعرض لها وما هى مقاومته. وما هى نقاط الضعف عنده.. كل التفاصيل الخاصة به.. معلومات تفصيلية من دماء هذا الكائن، بناء الفطيم، والبروتونات والكبد، عبارة عن لوح محفوظ صغير لا نراه بالعين المجردة وبالميكروسكوبات يمكن أن ترى.. ولما يوجد الكتاب، لابد من وجود كاتب.. فما بالك فى هذا الكتاب الذى يحتوى على خمسة ملايين صفحة، وملء بالحكمة والتاريخ لهذا النبى آدم بتفاصيله، ولون عينيه وطوله وعرضه، وصحته ومرضه لدرجة أننا نفهم أنه سيموت بماذا، كل هذا فى الكتاب الصغير الشفري الموجود فى حاجة اسمها الشريط الوراثى الذى لا يرى بالعين.. والذى لو جمعت كل الأشرطة الوراثية لكل البشر من أول آدم - عليه الصلاة والسلام - حتى الآن لا يملأ الفئجان الصغير.. نحن أمام اللوح المحفوظ الشريط الوراثى هو إحدى الشهادات العصرية بعظمة الخالق، وبإعجازه، وبحكمته، لأن الله - سبحانه وتعالى - هو قدر، وكتاب القدر اسمه - اليوم - الشريط الوراثى وهو كله خاص بالبدن وهو شريط خاص بالتفاصيل، بدمائك وتركيبك^(١).

هذا بعض مما يقوله العلم اليوم، وفيه ترى مدى تقبل العقل البشرى السليم لما قاله القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، عن الإنسان فى تلك الآية عن الاستساخ - الإدخال والإخراج - وكونه أمراً حقيقياً فهذا الشريط الوراثى يثبت ذلك، وعلمياً من أن الجميع قد أدخل فى صلب أبينا آدم - عليه الصلاة والسلام - كيف لا، وها هو العلم اليوم يقول: إنا لو جمعنا كل الأشرطة الوراثية البشرية منذ آدم - عليه الصلاة

(١) مقتطفات من محاضرة جرت فى نادى مكة الأدبى، مقالاً من مجلة «الليقظة»، عدد ١٣٥٢ تاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٩٥ م ص ٦٩ - ٦٨.

والسلام - إلى يومنا هذا لما ملأت فنجانا .. ثم إن هذا الشريط الوراثي، هو كله خاص بأمر البدن - البنية التي يقولون عنها - ومادة تركيبه - إذن فهذا البدن الذي أنا فيه اليوم هو ذلك البدن الذي كنت فيه عندما استسخت من صلب آدم - عليه الصلاة والسلام - وأخذ مني الميثاق، وهو البدن الذي سيعاد وضعه في الأرض وإخراجه منها «تارة أخرى» بصفة أخرى عند البعث - بأمر الله تعالى وإذنه - كما سيأتى تفصيل ذلك - بإذن الله تعالى - وهو البدن الذي كنت فيه قبل أن أهبط إلى الأرض. وهذه الحقيقة القرآنية هي ما أشار إليها حديث رسول الله ﷺ إشارة صريحة جلية واضحة، لا تحتاج إلى أى جدل أو مرأى، وسوف نلاحظ أن هذا يشير إلى كل ما جاء فى قضية هذا الشريط الوراثي، وسنجد فيه - أيضا - بإذن الله تعالى - الإشارة الصريحة إلى قضية الاستساخت، لنرى قضية ما قالوه عن أمر البنية وكونه شرطاً للحياة .. إنه أمر موجود لهذا الإنسان عند أخذ الميثاق، وإشارات أخرى كثيرة وعظيمة فى هذا الحديث، وإن تعددت رواياته، فتعدها كان لأمر عظيم، فقد تشير رواية بإشارة لم ترد فى الرواية السابقة لها وهكذا .. فماذا قال الحديث .. جاء فى كتب التفسير وكتب الحديث أنه قد روى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «إذا استقرت النطفة فى الرحم بعث الله تعالى - سبحانه - ملكا أخذها بكفه، وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة .. فإن قال: غير مخلقة .. لم تكن نسمة ومجتها الأرحام دما .. وإن قال: مخلقة. قال: يا رب فما صفتها. أى رب أذكر أم أنثى؟ أى رب شقى أم سعيد؟ ما الأجل ما الأثر؟ ما الرزق؟ وبأى أرض تموت؟ فيقول الله سبحانه وتعالى: انطلق إلى أم الكتاب فاستسخ منه صفة هذه النسخة، فينطلق الملك فينسخها، فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها»^(١). وفى رواية أخرى تذكر نفس الحديث وتزيد: «.. فيذهب فيجد النطفة فيقال للنطفة: من ريك؟ فتقول الله. من رازقك؟ فتقول الله. فتخلق، فتعيش فى أجلها، وتأكّل رزقها، وتطأ أثرها .. فإذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك المكان .. ويأخذ التراب الذى يدفن فى بقعته ويعجن به نطفته» أخرجہ الترمذی الحکیم، وأبو عبد الله فى نوادر الأصول^(٢).

(١) تفسير الرازى: ٢٤/٨.

(٢) التذكرة للقرطبي: ١٠٧/١.

هاتان روايتان من روايات الحديث المتعددة وفيهما ترى كامل قضية الشريط الوراثي، وقضية الاستساخ. وفيه - أيضاً - أن الملك الموكل ينسخ هذا الشريط الوراثي من «أم الكتاب».. وهنا قد يسأل سائل ويقول: إن نص الحديث يشير إلى أن هذا الاستساخ كان من «أم الكتاب» ولم يقل من آدم - عليه الصلاة والسلام - فكيف توفق بين ما في الحديث الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وبين ما أشرت إليه من أن الاستساخ لهذا الشريط الوراثي كان من آدم عليه الصلاة والسلام - وفي الرد نقول بعون الله تعالى: إن ما في هذا السؤال إنما هو حجة لنا لا علينا.. فهذا الشيخ ابن عريى - رحمه الله تعالى - يوضح لنا إجابة ما جاء السؤال لمثله، وإن رأينا أن ذلك يحتاج إلى توضيح آخر، وضحنا بما يوفقنا الله تعالى له.. رأينا الشيخ يقول سابقاً عن آية سورة الأنعام (٥٩) ﴿وَعنده مفاتيح الغيب إلا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾، يقول: «اعلم أن الغيب مراتب أولها: غيب الغيوب، وهو علم الله تعالى المسمى بالعناية الأولى.. ثم غيب عالم الأرواح، وهو انتقاش صورة كل ما وجد، وما سيوجد من الأزل والأبد من العالم العقلى، والذى هو روح العالم المسمى بـ «أم الكتاب»، على وجه كلى. وهو القضاء السابق ثم غيب عالم القلوب.. وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلاً تفصيلاً علمياً كلياً وجزئياً، فى عالم النفس الكلية التى هى قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.. ثم غيب عالم الخيال، وهو انتقاش الكائنات بأسرها فى النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة فى أجرامها معينة مشخصة مقارنة لأوقاتها، على ما يقع بعينه، وذلك العالم هو المعبر عنه فى الشرع بالسماء الدنيا، إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة.. ولوح القدر الإلهى الذى هو تفصيل قضائه، وعلم الله تعالى هو العناية الأولى وإحاطته بكل شئ سبحانه وتعالى عما يصفون»^(١).

هذا موجد ما أشار به ابن عريى - رحمه الله تعالى - حول الآية السابقة، فيه ترى أنه مستتب من كل ما ورد عن لفظة «الغيب» «أم الكتاب» وكل ما يرتبط به،

(١) تفسير ابن عريى: ١/٣٧٤.

وترى أنه يشير إلى أكثر من كتاب وهو بهذا يؤكد حقيقة الاستساخ، وأنها ليست خاصة بآدم مثلاً، بل إن «أم الكتاب» نفسه، هو ماخط فيه القلم الإلهي - بأمره تعالى - علم الله تعالى ثم إنه استتسخ من هذا الكتاب مجموعة كتب مستتسخة عامة أو خاصة، ومن هذه الكتب الخاصة المستتسخة؛ الكتاب الخاص بعالم القلوب، وهذا الكتاب وضع فيه كل ما يخص القلوب كلياً وجزئياً مفصلاً تفصيلاً علمياً.

مع قضية النفس الكلية وقلب العالم،

وهنا نقف عند كلمة «علمياً» الواردة مع هذا الكتاب.. واللفظة التي وردت مع الكتاب الأم «وهي لفظة العقل» والذي هو روح العالم إذن فـ «أم الكتاب» هو عقلي روحي، وكتاب عالم القلوب علمي، أي - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - أنه نسخة من هذا الكتاب الروحي، ولكنه بدرجة أقل روحانية - والله تعالى أعلم - ولكنه لايزال إلى العقلية الروحانية أقرب، لذلك قال: «مفصلاً تفصيلاً علمياً».. وترى أن هذا الكتاب هو كتاب خاص بعالم القلوب، الذي هو عالم النفس الكلية.. إذن فكل القلوب وما يختص بها، هي مودعة مدخلة في هذا الكتاب، الذي هو عالم النفس الكلية وهذه النفس الكلية هي قلب العالم المسمى «باللوح المحفوظ» وهنا نقف قليلاً، فكتاب عالم القلوب، هو النفس الكلية، وهي قلب العالم، وهو المسمى بـ «اللوح المحفوظ».. وبعد هذه الوقفة ننطلق مع هذا الشيخ، في موضع آخر ومع آية أخرى، فسنراه يشير بإشارة أخرى إلى من هي هذه النفس الكلية، وقلب العالم؟ يقول هذا الشيخ حول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).

يقول: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة..﴾ هي النفس الناطقة الكلية، التي هي قلب العالم، وهو آدم الحقيقي.

(١) سورة النساء: آية «١».

إذن فالنفس الكلية، قلب العالم - عالم القلوب - هو آدم، ولكن أى آدم، يجيب أنه آدم الحقيقى. وهنا قد يلتبس الأمر على الكثير منا، إذ كيف يكون هذا الكتاب، هو آدم الحقيقى وقد أشار أنه هو «اللوح المحفوظ»، ولكننا نجد الشيخ يوضح هذه الإشارة بإشارة أخرى فى حديث له حول آية أخرى، وهى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ..﴾^(١).

يقول الشيخ: «.. زوجته هى النفس، وسميت حواء لئلازمتها الجسم الظلمائى، إذ الحياة هى اللون الذى يقلب عليه السواد.. كما أن القلب سمي آدم لتعلقه بالجسم دون الملازمة بالإطباع، إذ الأدمة هى السمرة، أى اللون الذى يضرب إلى السواد، ولولا تعلقه لما سمي آدم..»^(٢).

إذن فالقلب هو آدم، وآدم هنا هو آدم الطينى الهولى، وهنا بدأت الرؤية تتضح، فكتاب غيب عالم القلوب، هو النفس الكلية - المسمى باللوح المحفوظ - وقلب العالم هو آدم الحقيقى الجرم الأول الذى أدمج فيه جميع الجنس الإنسانى قبل الإهباط فى حالته النورانية الهيولية، ولذلك قال عنه «مفصلاً تفصيلاً علمياً...» إذن فأدم الحقيقى هو كتاب عالم القلوب.. وهو أيضاً «اللوح المحفوظ» - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأنه نسخة مستنسخة كاملة منه، وجميع ما فيه هو فى آدم - عليه الصلاة والسلام - وذلك لأن جميع الجنس الإنسانى كاملاً ومفصلاً هو فى هذا اللوح المحفوظ، ومنه استنسخ آدم - عليه الصلاة والسلام - فى مرحلة ما قبل الإهباط، وفيه جميع هذا الجنس الإنسانى والعالم - والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين - لأن «الإنسان الحقيقى هو الكلمة الجامعة، ونسخة العالم، فكل ما فى العالم جزء منه، وليس الإنسان الحقيقى بجزء واحد من العالم، وكان سبب هذا الفصل، وإيجاد هذا المنفصل الأول، طلب الإنسان المشاكل فى الجنس الذى هو النوع الأخص.. وليكون - أيضاً - فى عالم الأجسام، بهذا

(١) سورة البقرة: آية «٢٥».

(٢) تفسير ابن عربى: ١/٢٤٧.

الالتحام الطبيعى الإنسانى، الكامل، بالصورة التى أرادها الله تعالى ما يشبه القلم الأعلى واللوح المحفوظ الذى يعبر عنه بالعقل الأول والنفس الكل.. وإذا قلت: القلم الأعلى فتفطن للإشارة التى تتضمن الكاتب وقصد الكتابة.. فيقوم معك عندئذ معنى قول الشارع «إن الله تعالى خلق آدم على صورته..»^(١).

إذن فالإنسان الحقيقى هو الكلمة الجامعة، والاسمية العمومية التى يشترك فيها كل هذا الجنس، قبل الاختلاط والامتزاج، وتكون آدمية، ولماذا كان الحقيقى ذلك لأنه هو نسخة العالم، ولماذا ترى لأن «كل ما فى العالم جزء منه وليس الإنسان الحقيقى بجزء لواحد من العالم».. ذلك لأنه نسخة وصورة للقلم الأعلى واللوح المحفوظ. لأنه قلب العالم، والنفس الكلية، المسمى باللوح المحفوظ.. أو آدم الحقيقى.. ولذلك رأينا كبار المفسرين وعلماء الشرع الإسلامى يطلقون على آدم اسم «..العالم الصغير.. مما يؤكد حقيقة ما أشار به الشيخ ابن عربى الأنف الذكر.. لذلك قال بعض الحكماء: إن كل شىء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير، الذى هو بدن الإنسان.. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾، وقال تعالى: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾.. فهو العالم الصغير..»^(٢).

إذن فالعالم منه أجزاءه. وهنا قد يسأل سائل ويقول كيف هذا وهناك نصوص تشير إلى عكس ما قلت.. مثل هذه الآية التى تشير إلى أن هذا المخلوق إنما هو من الأرض خلق وهو قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.. فكيف نوفق بين ذلك؟

وفى الإجابة نقول: بعد الاستعانة بالله تعالى أولاً: إن الآية تشير إلى الخلق أو النشأة الأولى.. والنشأة الأولى معلوم أن بدن الإنسان مأخوذ من عناصرها الأساسية وأهمها عنصر التراب، ولكن هنا يجب أن نقف قليلاً عند بعض النقاط لربما تتضح الرؤية أكثر.. فمن ذلك أن الشيخ ابن عربى قال: «الإنسان الحقيقى..» وكأنه يرمز

(١) الفتوح المكية: ٢/٣٠٠.

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبى: ٢٠٢ - ٢/٢٠٢.

بذلك إلى الإنسان الأول عندما استنسخ كصورة طبق الأصل، إما لأصله الذى هو موجود فى «أم الكتاب» وهو فى هذه الحالة نورانى.. وإما أن يكون شبيها بالقلم الأعلى واللوح المحفوظ، لأنه صورة منه . كما سبق قوله . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهو أيضا فى هذه الحالة نورانى.. وفى هذه المرحلة كانت ذرات عناصر العالم مستنسخة، إما من «أم الكتاب»، أو هو مستنسخ منه أى من «أم الكتاب»، فتكون تلك الذرات كأنها أخذت منه.. إما أنها استنسخت منه مباشرة وهو فى حالته النورانية، أو أنها أخذت من «أم الكتاب». وفى كلتا الحالتين كأنها أخذت منه، فهى إذن أجزاء منه وليس هو منها، وهناك شئ آخر إذا نحن أخذنا بظاهر الآية المشار إليها.. وهو أنه منها خلق.. فنقول: سبق أن قلنا أن المقصود بالخلق هو النشأة الأولى والنشأة . كما سبق . أنها تختلف عن الخلق، إذ هو ابتداء، وهى إنماء، لكن وردت بهذه الصيغة لكون الخلق هنا بمعنى التحويل كما يقول العلماء . وأيضا . فالمقصود بقوله: ﴿منها خلقناكم﴾ أى أبداننا وأجسامنا . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وأبداننا ذراتها هى من الأرض، والأرض قلنا أنها أصلا أخذت ذراتها من «أم الكتاب» ثم أخذ منها ذرات بدنه، لكونه سوف يهبط ويتحول ويؤول إليها . بإذن الله تعالى وتوفيقه . وهنا إشارة قرآنية تشير لحقيقة ما قلناه . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهى قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون﴾^(١).

فهى كما ترى تشير إشارة صريحة أن السماوات والأرض أصلهما واحد وعنصرهما كذلك هو واحد.. إذن فذراتهما وما فيهما أصله واحد وإن تحول عنصر الأرض إلى صفة أخرى بعد الفتق والتباعد، أى تباعد الأرض عن السماء حسب ما أراد لها خالقها . سبحانه . بذلك التباعد من خصائص أخرى سوف يخلق بدن آدم . عليه الصلاة والسلام . عليها وبخاصتها، بعد إهباطه ليعمرها ويقود من عليها وما

(١) سورة الأنبياء: آية ٣٠.

حولها بل هناك نص نبوى شريف . على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . يشير فيه رسول الله ﷺ إشارة صريحة إلى أن الكل أصوله ذرات وأجزاءه هي موجودة في «أم الكتاب» ومنه يؤخذ كل شيء، حتى ذرات بدن آدم عليه الصلاة والسلام وبنيه منه تؤخذ، هذا الحديث الذى يشير إلى أن آدم الحقيقى - عليه الصلاة والسلام - هو كتاب عالم القلوب، وهو أيضا اللوح المحفوظ . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . وهذا الحديث هو المروى عن علقمة وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما والذى يرويه أيضا أبونعيم الحافظ فى كتابه عن مرة بن مسعود رضى الله تعالى عنهم جميعا .. هي نفسها الرواية السابقة، ولكن فيها زيادة تأكيد للسابقة، إذ تروى ما سبق إلى أن يقول: «أنظر فى أم الكتاب» فينظر فى «اللوحة المحفوظة» فيجد فيه رزقه أثره... إلخ»^(١).

إذن فلا إلباس، فى كل ما سبق بحمد الله تعالى.. وإن كان هناك إلباس متوهم، وجاء السؤال السابق لأجله . والله تعالى أعلم بالحقيقة والصواب والحمد لله رب العالمين . فهو آت من قبل الرواة، فعندهم «أم الكتاب» هو «اللوحة المحفوظة»، و«اللوحة المحفوظة» هو «أم الكتاب». وهذا ما تؤكد هذه الرواية، وقد سبق أن أشرنا إلى قضية التفريق بينهما . ومن شاء ذلك فليرجع إليه فى مكانه بحمد الله تعالى . إذن فالإلباس الذى جاء من أجله السؤال.. أظن أنه . بحمد الله تعالى وتوفيقه . قد وضع وزال، بزواله تتجلى إشارة أن الجميع قد وضعوا فى صلب آدم عليه الصلاة والسلام وإشارة أن الجميع أيضا قد وضعوا وهم كاملو البنية واستسخوا منه فى المرة الثانية وهم أيضاً كاملو البنية، وأن هذه البنية التى وضعوا عليها فى آدم . عليه الصلاة والسلام . هي نفسها التى كنا عليها عند أخذ الميثاق.. وأظن أن فى كل ما سبق إشارة لما جاء السؤال السابق لأجله .

ومن خلال ذلك كله تتضح لنا حلول إشارة أخرى سبقت وهى مرتبطة بهذه الإشارة.. ألا وهى قضية لو أن هذا الميثاق أخذ من تلك الذرات . الجنس الإنسانى .

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: ٦/٣٨٨ .

لكانوا عقلاء.. وإذا كانوا عقلاء، لوجب أن يتذكروا فى هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم فى هذا العالم.. وفى الرد على الإشارات السابقة بعض الدلائل التى قد تجيبهم على استفسارهم هذا.. ومن ذلك بعون الله تعالى وتوفيقه أن قضية التذكر والتذكرة قد أجبنا على جزء كبير منها أثناء الحديث عن التسوية السابقة - بحمد الله تعالى وتوفيقه - ولا بأس أن نزيد ما ييسره الله تعالى - أيضا - لتكون الفكرة أكثر وضوحا وجلاء - ولكن قد تسبق إشارة هذا التذكر جلاء بعض أسباب هذا التذكر.. فكيف ذلك - بعون الله تعالى - وتوفيقه - والإجابة على ذلك أظنها تبدأ - بعون الله تعالى وتوفيقه - من كلام الشيخ ابن عربى السابق ألم يقل هناك: (إن عالم القلوب، هو آدم الحقيقى، وهو قلب العالم، وهو نسخة من «أم الكتاب»).

إذن فالإنسان هو القلب.. وما دام هو القلب، فمن هنا تبدأ إجابة هذا التذكر.. ولكن قبل ذلك، ترى ما هو القلب فى مفهوم اللغة والقرآن الكريم والطب؟ وماذا قال أهل الأثر والتفسير.. عن توضيح هذا القلب وماهيته؟

انتهى الجزء الأول، ويليه. بإذن الله تعالى. الجزء الثانى، والذى هو بعنوان:

«القلب. الفؤاد. عجب الذنب. بين الطاقة والمادة

فى مفهوم الإعجاز وعلوم الاستنساخ فى عالم الطب».

وصلّ اللهم على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم..

قائمة بأهم المراجع

(أ) القرآن الكريم وعلومه:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد فؤاد عبد الباقي - مؤسسة جمال للنشر - بيروت.
- ٣ - تفسير الطبري - محمد بن جرير الطبري ج ١٢.
- ٤ - تفسير ابن كثير - للإمام ابن كثير.
- ٥ - تفسير الكشاف - للإمام الزمخشري.
- ٦ - جامع أحكام القرآن الكريم - لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي.
- ٧ - تفسير مفتاح الغيب أو التفسير الكبير - فخر الدين الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج ١٦ مجلد ٣٢.
- ٨ - تفسير أبي السعود - أبو السعود العمادى - مكتبة الرياض.
- ٩ - تفسير ابن عربي - محيى الدين بن عربي - دار الأندلس.
- ١٠ - ما جمع من «تفسير ابن عباس رضى الله تعالى عنهما».
- ١١ - الفتوحات المكية - محيى الدين بن عربي.
- ١٢ - الفتوحات الإلهية.
- ١٣ - فتح القدير - محمد بن علي الشوكاني.
- ١٤ - تفسير اليبضاوى - الشيخ محمد أحمد كنعان - الطبعة الأولى - دار لبنان.
- ١٥ - تفسير الجلالين - السيوطي.
- ١٦ - تفسير المنار - محمد رشيد رضا.
- ١٧ - تفسير الإمام النسفى - عبد الله أحمد - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ١٨ - تفسير المراغى - للشيخ مصطفى المراغى.

- ١٩ - تفسير في ظلال القرآن - للشيخ سيد قطب - دار الشروق.
- ٢٠ - تفسير الجصاص (أحكام القرآن) أبي بكر الجصاص - الطبعة الأولى - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٢١ - أحكام القرآن - ابن العربي - دار السبيل - بيروت.
- ٢٢ - إعجاز القرآن - عبد الكريم الخطيب - الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت.
- ٢٣ - المنتخب من تفسير الشعراوي - الشيخ الشعراوي.
- ٢٤ - آيات قرآنية في مشكاة العلم - يحيى المحجري.
- ٢٥ - صفوة التفاسير - محمد بن علي الصابوني - دار القلم - مكتبة جدة.
- ٢٦ - دلائل إعجاز القرآن - عبد القاهر الجرجاني - مكتبة البابي - مصر.
- ٢٧ - نصوص الحكم - محيى الدين بن عربي.
- ٢٨ - الإعجاز القرآني - للباقلاني.
- ٢٩ - الإعجاز القرآني - للرماني.
- ٣٠ - الإعجاز القرآني - للشيخ محمد متولى الشعراوي.
- ٣١ - نظرات في القرآن الكريم - للشيخ محمد الغزالي.
- ٣٢ - الإنقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - الطبعة الثالثة - مصطفى البابي وأولاده.

(ب) الحديث الشريف وعلومه:

- ١ - صحيح البخارى - ج ١٣ - تعليق محمد شاكر.
- ٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى - للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني.
- ٣ - صحيح مسلم بشرح النووي - للإمام النووي.
- ٤ - صحيح الإمام الترمذى - للترمذى.
- ٥ - سنن الإمام ابن ماجه - ابن ماجه.
- ٦ - سنن الإمام النسائي - النسائي.
- ٧ - تنوير الحوالك على موطأ مالك - الإمام مالك بن أنس «رضى الله تعالى عنه».
- ٨ - رياض الصالحين - الإمام النووي - مطبعة الحلبي - القاهرة.
- ٩ - عمدة القارىء - للإمام العيني.
- ١٠ - مجموعة فتاوى ابن تيمية - الإمام ابن تيمية ج ٣٧.

- ١١ - النبوة والأنبياء - الإمام ابن تيمية ج ٣٧.
- ١٢ - مسند الإمام - للإمام أحمد.
- ١٣ - سنن أبي داود - أبي داود.
- ١٤ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - ابن تيمية.
- ١٥ - دليل الفالحين - الشافعي.
- ١٦ - نيل الأوطار - للإمام محمد بن علي الشوكاني.
- ١٧ - سبل السلام - محمد الكحلاني - مكتبة الرسالة العربية.
- ١٨ - مسند زيد - زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - منشورات دار مكتبة الحياة.
- ١٩ - البحر الزخار - أحمد يحيى المرتضى - المكتب الإسلامي.
- ٢٠ - شرح السنة النبوية - الإمام النووي.
- ٢١ - جامع الأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)
- ٢٢ - حلية الأولياء - للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني.
- ٢٣ - المشكل في غريب الحديث - ابن قدامة.
- ٢٤ - الحاوي للفتاوى - للإمام الحافظ السيوطي.
- ٢٥ - زاد المعاد - للإمام ابن القيم.
- ٢٦ - الروح - للإمام ابن القيم.
- ٢٧ - الفصل في الملل والنحل - ابن حزم.
- ٢٨ - المحلى - ابن حزم.
- ٢٩ - إحياء علوم الدين - الإمام أبي حامد الغزالي.
- ٣٠ - السيرة النبوية - لابن هشام.
- ٣١ - مجموعة رسائل ابن عربي - محيي الدين بن عربي.
- ٣٢ - تاريخ الطبري - للإمام الطبري.
- ٣٣ - الكامل في التاريخ - لابن الأثير.
- ٣٤ - البداية والنهاية - ابن كثير.
- ٣٥ - قصص الأنبياء - ابن كثير.

- ٣٦ - عرائس المجالس - ابن كثير.
- ٣٧ - المواهب اللدنية - أحمد محمد القسطلاني - الطبعة الأولى.
- ٣٨ - قصص الأنبياء - لعبد الوهاب النجار.
- ٣٩ - قصة الإسراء والمعراج - للشيخ محمد متولى الشعراوى.
- ٤٠ - مروج الذهب - أبى الحسن المسعودى - الطبعة الرابعة - مطبعة السعادة - مصر.
- ٤١ - العلل ومعرفة الرجال - الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامى.
- ٤٢ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى - الطبعة الثانية - دار الدعوة.
- ٤٣ - التذكرة فيما بعد الموت - للقرطبى.
- ٤٤ - كتاب الإبريز - لسيدى أحمد بن المبارك - دار الفكر.

(ج) علوم اللغة:

- ١ - لسان العرب - لابن منظور.
- ٢ - تاج العروس - الزبيدى.
- ٣ - القاموس المحيط - للفيروزبادى.
- ٤ - المخصص - لابن سيده.
- ٥ - المحكم - لابن سيده.
- ٦ - الخصائص - لابن جنى.
- ٧ - فقه اللغة للثعالبي - للثعالبي.
- ٨ - سر الصناعتين - لأبى هلال العسكري.
- ٩ - مثلث قطرب - قطرب.
- ١٠ - المفصل للرضى - للرضى.
- ١١ - المقاييس فى اللغة - لابن فارس.
- ١٢ - الكامل للمبرد - للمبرد.

(د) كتب علمية وثقافية متنوعة:

- ١ - «اعرف دماغك» - الدكتور إبراهيم فريد الدر - دار الآفاق الجديدة.
- ٢ - «القلب والدورة الدموية» - دار الهلال.

-
-
- ٣ - «كل شيء عن الجلد» - دار الهلال.
 - ٤ - «من مبادئ علم التشريح ووظائف الأعضاء» - الدكتور شفيق عبد الملك.
 - ٥ - «موجز في تاريخ الزمان» - ستيفن هوكنج - ترجمة: عبدالله حيدر - أكاديمية - بيروت.
 - ٦ - «التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامي» - الدكتور محمد فوزي جاب الله.
 - ٧ - «هندسة المستقبل» - الدكتور أحمد شوقي - المكتبة الأكاديمية - القاهرة - الطبعة الأولى.
 - ٨ - «مجلة اليقظة».
 - ٩ - «خلق الإنسان» - عبد الفتاح طيرة - الجزء الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ م.
 - ١٠ - «سليمان عليه الصلاة والسلام وحقائق التلفزة» - عبد الرحمن الرفاعي - مكتبة مدبولي الصغير.

محتويات الكتاب

● الإهداء.....	٥
● المقدمة.....	٧
● الفصل الأول: مع الطاقة والخلق الأول.....	٢٧
● من إشارات الخلق التقديرى.....	٢٧
● من إشارات مخازن عوالم الغيوب.....	٣٨
● مع (أم الكتاب) والوجود النوراني الخالص.....	٤٠
● وقفة سريعة بين مكونات (أم الكتاب) والكمبيوتر.....	٤٦
● مع إشارة الموجات والبث والاستقبال عبرها.....	٥٤
● مع دلالتى (أم الكتاب) واللوح المحفوظ وماذا تغنيان؟.....	٦٣
● الرق بين دلالات لغة القرآن والمصطلحات العلمية الحديثة.....	٧٠
● الفصل الثانى: عودة لآيات المحاور السابقة وقضايا التسجيل والبرمجة.....	٨٣
● مع آيات المحور الأول والثانى.....	٨٣
● المحور الثالث وكتاب الأجل.....	٩٠
● الأجل والبرمجة.....	٩٣
● لمحة سريعة عن عملية الموت والبرمجة.....	١٠٠
● المحور الرابع والكتاب المبين.....	١١١

الفصل الثالث: إشارات (أم الكتاب) بين فكر ابن عربي وعلوم الحاسوب ... ١١٩

- القلم الأول أو العقل الأول ١١٩
- (أم الكتاب) والاتصالات بين ابن عربي وعالم الرقائق ١٢١
- أول منفصل وآخر منفصل في دورة الملك ١٢١
- الإنسان في الأرض صورة للحاسوب الأعلى في السماء ١٢٢
- الإنسان مجموعة رقائق مشفرة ٢٢٣

الفصل الرابع: الاستنساخ.. فكرة سريعة حول بداية الخلق الثاني

- مراحل وتنوع صورته ١٢٧
- حول تنقل خلقتنا من خواص وخصائص مرحلة إلى أخرى ١٢٧
- مع استقلال الخلق قبل اصطفاء آدم واختياره للاستنساخ الآخر ١٢٨
- وقفة مع إشارة حديث شريف ١٣٤

الفصل الخامس: تعدد صور الخلق الإنساني مع إشارة الهباء والاستنساخ ١٤٣

- صورة العرض التعليمية في الملأ الأعلى ١٤٧
- من تعدد صور الأرض ١٤٩
- استفسار وقضية ١٦٠
- الجنة والنار وصور الظل في القرآن الكريم ١٦٤
- وقفة مع لفظ في آية قرآنية ١٧٢
- عودة للإيجاد النوراني للإنسان وإشارة لابن عربي وآية قرآنية ١٧٨
- من براهين اختلاف دلالات الإيجاد والإنشاء والخلق ١٨٤

الفصل السادس: البداية الإنسانية الطينية الأولى وخاصيتها الطبيعية ١٨٤

- التسوية العمومية لجسم الحاسوب الإنساني وما الذي تعنيه ٢٠٢

- الجسم الإنسانى وأنواعه ٢٠٩
- تكوين جسم عيسى (عليه الصلاة والسلام) ٢١١
- من دلالات السجود ٢١٢

الفصل السابع: تبويب وتجزيء ما أجمله ابن عربى فى أمر تاهيل الجسم

- الإنسانى ٢١٩
- نقل وإدخال صور جميع الجنس البشرى فيما يخصها من رقائى فى جسم آدم ... ٢١٩
- إدخال شفرة تفاعل خلط العناصر وامتزاجها إيذاناً بتشغيل الحركة الحيوية وسريانها فيها ٢١٩
- تشفير ضبط القوى التى تنتج نتيجة التفاعل الكيماوى للعناصر وامتزاجها ٢٢٠
- تشفير القوى الغريزية ٢٢٠
- تسوية أماكن القوى الخاصة بالإنسان ٢٢٠
- تحليل سريع لكلام ابن عربى ٢٢١
- مراحل الاستنساخ والإخراج الجمعى ٢٢٩
- ابن عربى وعالم الصور وتنوعه ٢٤٢

الفصل الثامن: حضور جميع الجنس الإنسانى عرض وحوار التعليم

- المنهجى فى الملاء الأعلى ٢٤٥
- التسوية العمومية ٢٤٥
- وقفة مع إشارة ٢٥١
- استفسار ذو شقين ٢٥٥

الفصل التاسع: التسوية والمنهجية التعليمية الخاصة ٢٦١

-
-
- الأبوة والتبعية الجنسية وما يرتبط بها من قضايا ٢٦٥
 - التسوية والاصطفاء بين النقل والعقل ٢٧٢
 - مع بعض علماء الفكر الإسلامى حول آية الاصطفاء ٢٧٣
 - داروين وابن عربى ٢٨٢

الفصل العاشر: نورانية المرحلة الثانية وقضية التركيب ٢٩٣

- شىء من طبيعة الروح وماهيتها ٢٩٣
- عودة لإشارة من آية قرآنية ٢٩٧
- مع الإشارة اللونية وطنينية آدم ٣٠٠
- وقفة مع آية النذر ٣١٤
- الاستنساخ والشريط الوراثى ٣٢٠
- مع قضية النفس الكلية ٣٢٥

المراجع ٣٣١

المحتوى ٣٣٧

المؤلف في سطور

- عبد الرحمن محمد الرفاعي
- من مواليد ابوعريش عام (١٣٧١ هـ)
- نشأ ودرس في جيزان.
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها.
- جامعة الامام.
- يعمل مدرسا للغة العربية بثانوية
- معاذ بن جبل بجيزان.



- عضو مجلس إدارة بنادى جيزان الأدبي.
- له من الكتب والأبحاث المطبوعة:
- ١. الحميني الحلقة المفقودة في إمتداد عربية الموشح
- الاندلسي.
- ٢. جيزان وحازان بين الحقيقة والتحقيق.
- ٣. واخيرا وجدت السنوسي.
- ٤. سليمان عليه الصلاة والسلام بين حقائق التلفزة وعلم
- التقنية.
- ٥. الجن وعلم الفيزياء
- وله من الكتب التي تحت الطبع ما يلي:
- ١. وكالة الانبياء بين خطأ الدلالة وحقيقة التسمية.
- ٢. العين بين برهان القرآن وعلم الفيزياء.
- ٣. السحر بين الادلة القرآنية والكيمياء الفيزيائية.
- ٤. الكمبيوتر بين الإعجاز القرآني والعلم الحديث.
- ٥. الشعر الحر بين الإصالة العربية والتعريب الأعمى.
- ٦. الأدب المسرحي في العصر الجاهلي بين الاثبات
- والنفي.
- ٧. اللغة بين العربية والاعراب التحوي.
- ٨. العربية والمصطلح اللاتيني.

